

مهرجان القراءة للجميع

المصريات

مكتبة

الأسيرة

1999

محمد علي وأولاده

جمال بدوي



0051462

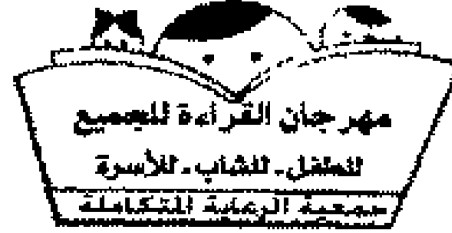
Bibliotheca Alexandrina

محمد علي وأولاده

محمد على وأولاده

بناة مصر الحديثة

جمال بدوي



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

محمد علي وأولاده

جمال بدوي

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرهان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقاها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

محمد على فى معيار التاريخ

●● لا خلاف بين المؤرخين على أن مصر الحديثة ولدت مع مطلع القرن التاسع عشر، ولكنهم يختلفون حول مسببات هذه الولادة.. بعضهم يعزوها إلى الحملة الفرنسية التى جاءت عام ١٧٩٨ ورحلت فى عام ١٨٠١ م. وحجتهم فى ذلك أن الحملة أيقظت مصر من سباتها، وختمت على مرحلة طويلة من التدهور والتخلف والجمود، وأنها غرست فى مصر بذور النهضة التى ازدهرت فيما بعد، ووضعت البلاد على أعتاب العصر الحديث.

وهذا القول فيه نظر.. ذلك أن مدة إقامة الحملة فى مصر لم تتجاوز ثلاث سنوات ويضع شهور، وهى فترة قصيرة لا تكفى لبناء نهضة أو حتى إرساء قواعد الحداثة فى مجتمع شرقى يخضع لمؤثرات تقليدية قوية، ثم إن مناخ التوتر الذى ساد أيام الحملة لم يمكنها من زرع أفكارها الحضارية، فالمؤثرات الحضارية لا تبدأ عملها إلا بعد أن تكف الحروب ونهضت المعارك، وهو ما لم يحدث للفرنسيين، فعذ رطأت أقدامهم أرض مصر، لاقوا مقاومة عنيفة شملت العاصمة وامتدت إلى



الدلتا والصعيد، الأمر الذي جعل بقاء الفرنسيين في مصر عذاباً مقيماً لم يحتملوه، فرحلوا إلى بلادهم تاركين في نفوس المصريين أسوأ الذكريات.

إلا أن هذا التقويم لأثر الحملة الفرنسية، لا يمنعنا من الاعتراف بالإنجاز الثقافي الذي تحقّق على أيدي الفرنسيين في أمرين هامين: أولهما تأليف كتاب (وصف مصر) الذي وضع فيه علماء الحملة خلاصة بحوثهم عن كافة الأوضاع في مصر، فكان هذا الكتاب - ولا يزال - نقطة البداية لكل من يتصدى للكتابة عن مصر في تاريخها الوسيط والحديث، وهو ما يراه عميد مؤرخي مصر الحديثة محمد شفيق غريال، ومادعاه للقول بأن هذا المؤلف العظيم يظل مرجعاً هاماً بما يحتويه من معلومات وبحوث، برغم أن الكشف الأثري والبحوث التاريخية قد غيرت أو عدلت مما كتبه علماء الحملة.

أما الأثر الثقافي الثاني للحملة الفرنسية فهو فك أسرار اللغة المصرية القديمة بعد اكتشاف حجر رشيد، مما أتاح للعالم كله أن يعرف تاريخ مصر منذ عصرها الفرعوني بعد أن كان لغزاً مغلقاً على المصريين أنفسهم، ويفضل هذا الجهد الذي بذله «شميليون»، أنجلت أمام العلماء والباحثين في الجامعات الأوروبية معالم التاريخ المصري، وعرف العالم موقع الريادة للحضارة المصرية التي تمثل حجر الأساس في البناء الحضاري العالمي.

باستثناء هذين العاملين الجليين، لم تخلف الحملة الفرنسية أثراً كبيراً من الحياة المصرية سواء في المجال الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي،

فالمطبعة العربية التي جاء بها «بونابرت» لطبع منشوراته وصحفه عاد بها «ميدو» ضمن مخلفات الجيش ولم تعرف مصر المطبعة إلا في سنة ١٨٢٨ م. وهي المطبعة «الأميرية» التي جلبها محمد علي لطبع الوقائع المصرية، وأما «الدراوين» التي اصطلحها بونابرت بقصد تغيير شكل العلاقة بين السلطة الفرنسية الحاكمة، والشعب، فإن المصريين لم يتقبلوا هذا الدواء الأفرنجي من حاكم أجنبي لا يمكن أن يضمن لهم المصلحة، برغم الشعارات الزائفة عن كونه مسلماً يحب الإسلام والمسلمين.

ولو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية، لن نجد أثراً واحداً يدل على تغلغل الأفكار الأوروبية بين المصريين، ولن نسمع عن فولتير أوروسو أو موليير أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة (...). إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوي من رحلته الميمونة إلى باريس في عام ١٨٣١ م أي بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة، وكأن لم تكن السنوات التي عاشها الفرنسيون في مصر، سوى سحابة صيف.. انقشعت... وعادت مصر بعدها مسرحاً للمفوضي والصراع بين القوى الغارية: العثمانية والمملوكية.. وكلاهما يسعى لاستعادة نفوذه، ثم دخلت إنجلترا حلبة الصراع لتحل محل فرنسا، وقام المماليك بتهريب العملاء لتمهيد الطريق أمام الإنجليز لاحتلال مصر انتقاماً من الفرنسيين، ولكن الوطنية المصرية الوليدة نهضت لتحمل مسئوليتها الجديدة، وتقتصدى لحملة «فريزر» في سنة ١٨٠٧، وتلقن الإنجليز في رشيد والحماد درساً قاسياً لم يسلموا من لسعته حتى تحقق لهم احتلال مصر في عام ١٨٨٢ بطلب رسمي من الخديو الخائن «توفيق».

ظهور العنصر الوطني المصرى

● ● ونعود إلى فترة تواجد الحملة الفرنسية، لنعترف بفضلها - دون أن نقصد - فى ولادة هذا العنصر الجديد الذى ظهر على الساحة المصرية لينافس بقية العناصر المتصارعة التى كانت تحتكر التحكم فى مصير البلاد. وأعلى به العنصر الوطنى المصرى الذى برز خلال المقاومة الباسلة التى قام بها المصريون ضد الفرنسيين، وهو عنصر لم يكن له وجود قبل هذا التاريخ، ولكنه واد بعد أن شعر المصريون بالفجيعة فى النظام العثمانى والمملوكى واتضح لهم عجزه الفاضح عن الدفاع عن البلاد وهى تواجه احتلالا عسكريا أجنبيا.. وتوالى هزائم الجيش المملوكى وهربت فلوله إلى الصعيد وعلى رأسهم «كذاب الزفة»، مراد بك الذى كان يقسم برأس أجداده أنه سيسحق الفرنسيين كما يكسر حبات الفسق، وأما شريكة فى الحكم - إبراهيم بك - فقد جمع غلماناه ومماليكه وجواريه، ومعهم الوالى العثمانى، وأطلق ساقبيه للريح نحو سوريا.. وتركوا الشعب المصرى - وحده - يواجه مصيره بنفسه - وأثبت المصريون أنهم رجال قادرين على التصدى للعسكرية الفرنسية رغم فارق التسليح والتدريب، شعر المصريون - لأول مرة منذ قرون - أنهم يدافعون عن «وطن»، يتعرض للاحتلال من جانب دولة أوربية غاشمة.. وآلت الزعامة الشعبية إلى مشايخ الأزهر وعلى رأسهم «عمر مكرم».. واندلعت ثورة القاهرة الكبرى فى أكتوبر ١٧٩٨ وسقط جنرالات الجيش الفرنسى تحت وابل الطوب والشوم وغطيان الحال ورماس البنادق المتواضعة وكانت هى كل أسلحة أهل القاهرة.. وأوشكت الثورة أن تطبق على الحملة كلها، لولا المدافع التى نصبها نابليون على تلال

المقطم لذلك البيوت والأزهر الذى تحصن الناس بداخله، فأمر بونايرت خيالته بافتحام المسجد وقتل من فيه، واستباحة حرمة .. وتمزيق مصاحفه وكتبه .. وجعلوا من المحراب مربطاً للخيول ومرحاضاً يتبولون فيه (١١)

● أين كان الأمراء المماليك فى هذه الأيام العصبية ؟

● وأين كان السلطان العثمانى الذى زعم أنه حامى حمى المسلمين ؟

كلهم التزموا الصمت .. ومن خلال هذا الصمت ولدت الوطنية المصرية بطريقة تلقائية، ودون ترتيب أو تنظيم أو توجيه .. نعم .. كان شيوخ الأزهر يحركون أهل القاهرة .. ولكن .. من الذى كان يحرك أهل الريف والصعيد فى المدن والقرى والنجوع والكفور ؟؟ ومن الذى كان ينظم هذه الجموع فتخرج من قراها لتتقضى على جحافل الفرنسيين فى كل مكان يتواجدون فيه .. وفى كل طريق يمرون به ؟؟

● ● الجواب: لا أحد .. وإنما هو الحس القومى المكبوت والجريح . انطلق من عقاله ليدفع بالمصريين إلى ميادين التضحية والشرف والجسارة دون انتظار لتعليمات أو توجيهات من أحد، وتدفق الشعور بالمسؤولية كالشلال يكتسح فى طريقة حاجز الخوف وحسابات القوى، وكان ما حدث فى تلك الأيام المجيدة ثورة وطنية جارفة، ولم تكن «هوجة» قام بها المسلمون «الملتزمون» فى القاهرة احتجاجاً على تبذل الفرنسيين وخروج نسائهم متبرجات، كما يقول الدكتور حسين فوزى فى «السندباد» (١١) وإذا كان الأمر كما يقول، فهل كان هناك فرنسيون عابثون وفرنسيات متبرجات فى القرى والنجوع ؟ أم أنها كانت ثورة

عارمة اجتاحت كل المصريين احتجاجا على إنتهاك حرمة بلادهم (١١) وليس أدل على ذلك من تنامي الشعور بالثقة بالنفس حتى بعد رحيل الحملة، فقد أشد تيار الوطنية المصرية حتى فرض نفسه على الأحداث التي شهدتها البلاد طوال السنوات الأربع التالية، وعندما حاولت العناصر الغارية أن تستعيد نفوذها وجدت العنصر المصرى ماثلا، ليؤكد حقه فى اختيار الحاكم وبينما عملية الاختيار فى مخاضها الأخير، إذا بالحركة الوطنية تقع فى إبهام تاريخى عندما صعد الزعيم عمر مكرم إلى القلعة يوم ١٣ مايو ١٨٠٥ ليضع مقاليد الحكم على طبق من فضة ويقدمه هدية ثمينة إلى الضابط الألبانى الأصل، العثمانلى الهوية محمد على . الذى جاء ضمن المراكب العثمانية لحمل جنود الحملة الفرنسية إلى بلادهم، وتقبل محمد على الهدية بعد أن أقسم على المصحف بأن لا يقطع أمرا دون مشورة العلماء، ولا يرتكب شيئا من المظالم، ولا يفرض ضريبة فيها إجحاف على المصريين (١١)

استبعاد الزعامة المصرية

● ● لماذا فعل عمر مكرم هذه الفعلة المحيرة ؟ ولماذا أحجمت الحركة الوطنية الوليدة عن تنصيب عمر مكرم نفسه، وكان يتمتع بكل مؤهلات المنصب الرفيع من حيث الثقافة والعلم والجدارة والنسب الشريف ؟

● هذه إشكالية تاريخية تعددت فيها التفسير ..

فمن قائل أن تقاليد العصر العثمانى لم تكن لتسمح لأى عنصر - خارج الدائرة العثمانلية - بتولى منصب الولاية .. كانت السلطنة، فى

ذروة نزعتها الطورانية، ترى قصر المناصب الرفيعة على الترك ومن يلوذ بهم من العناصر السلافية والبلغارية والبوسنية والمقدونية والمورالية.. أما العنصر العربي والمصري، فمحال أن يشغل منصبا قياديا (١١)

وبعض الباحثين يلقون باللائمة على مشايخ الأزهر الذين كانت تتحكم فيهم عقدة الغيرة والحقد على الزعيم عمر مكرم، فلم يرتفعوا إلى المستوى الخلقى القويم فيختاروه حاكما على مصر.. وكان «عمر» نفسه يعرف هذه المشاعر الدفينة، ودفعته فضيلة إنكار الذات إلى الامتناع عن طلب الولاية، حتى يكون جهاده خالصا لوجه الله والوطن.

ومن قائل أن المصريين أنفسهم.. تحت تأثير ولعهم بالأجنبي وكراهة ابن البلد.. لم يتحمسوا لتتصيب عمر مكرم، وأن هذا المرض العضال القديم قد استحكم في أخلاقهم، وأضعف ثقتهم في أنفسهم، ولم يتصوروا أن يحكمهم إلا مستبد ينتمي إلى جنس الترك، ولو كان يتصف بالعنف والفظاظة (١٢)

وأثبتت الحوادث فيما بعد، أن معظم هذه التفسيرات كان صحيحا.. فبعد تولية محمد علي، وانفراده بالحكم، ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم على احترامها (....) كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفذه إلى دمياط وطلطا، تنفيذا لتعليمات «مكيافيللي» التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم (١٣) ووجد محمد علي تشجيعا وتأييدا.. بل تحريضا.. من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم، مقابل إنعامات رخيصة أغدقها عليهم، ثم استردها منهم

بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم، وعندما ذهبوا إليه محتجين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات .. وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه .. ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوّثت وفسدت (١١) .

وعندما تبحث في تاريخ الجبرتي عن سر إبعاد الزعيم عمر مكرم عن الحكم، لا تجد جواباً واضحاً، رغم أنه كان شاهد عيان على العصر كله، وإنما تجد ارتياحاً عند الجبرتي لإبعاد الزعيم عن الحياة السياسية كلها بعد انقلاب محمد علي عليه، ولأن الجبرتي كان ينقم على محمد علي إلغاء الامتيازات التي كان الجبرتي يتمتع ببعضها، فقد انسحبت هذه النقمة على الزعيم عمر مكرم لأنه، في رأيه، سبب البلوى التي جاءت بهذا الجندي الألباني إلى قمة الحكم، فلما وقع عمر مكرم في المحنة، شمت فيه الجبرتي، لأن من أعان ظالماً سلطة الله عليه، وأن الذي وقع له بعض ما يستحقه ولا يظلم ربك أحداً (١٢) .

ولسنا الآن بصدد تقويم نظام وطريقة الحكم التي نهجها محمد علي بعد أن أصبح والياً مستبداً، وحاكماً فرداً، فسوف يأتي ذلك في حينه، ولكننا بصدد المراحل الأولى التي مهدت له الرئوب إلى الحكم بإرادة مصرية خالصة، ونعني بها مرحلة انبثاق الحس القومي المصري، فكان محمد علي أول من قطف ثمار هذا الذبت الجديد، وفي ذلك يقول المؤرخ عبيد الرحمن الرافعي في تأريخه للحركة القومية: أن محمد علي هو أول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الأحداث السياسية، وأنه من هذه الناحية: ثمرة من ثمرات الحركة

القومية، ودور من أدوارها التاريخية، اقترن ظهوره بظهور العامل القومي، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب، ومناذاتهم به واليا مختارا على مصر، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر بناء في صرح القومية المصرية.

المصالح العليا للبلاد

● ● هذا رأى مؤرخ له وزنه وجهده الدائب في رصد تطور الحركة القومية المصرية. وهو صريح في تقويمه لمحمد علي واعتباره ثمرة من ثمرات القومية المصرية، رغم أنه لا يمت إلى المصرية بأية صلة، والرافعي في ذلك ينهج نهج المؤرخين المصريين في العصور الاسلامية الذين لم يكن يهمهم جنس الجالس على عرش البلاد، ولا الوسيلة التي دفعت به إلى الحكم، وإنما كانوا يتوقفون عند أعماله، فيحكمون له أو عليه، كما جرى الرافعي في مجرى المؤرخين التقليديين عند النظر إلى المصالح العليا للبلاد، والمكانة العظيمة التي تحققت لمصر في عهد محمد علي، وعندئذ لا يسع الرافعي إلا أن يعترف بأن عصر محمد علي يمثل صفحة جديدة من صحائف الحركة القومية، ففيه نشأت الدولة المصرية الحديثة، وفيه تحقق الاستقلال القومي، وشيدت الدعائم الكفيلة بالقيام به، فيه تأسس الجيش المصري، والأسطول المصري، والثقافة المصرية، وفيه وضعت أسس النهضة العلمية والاقتصادية للبلاد.. فهو عصر استقلال وحضارة عمران..

هذا هو محمد على البتاء العظيم فى رأى الراقعى، فماذا عن محمد على «آخر المماليك العظام وأول الفراعنة الجدد، كما وصفه جمال حمدان؟» والذى أتى به مزيج من الثورة الشعبية والانقلاب العسكرى، وجاء هو بنظام سياسى واقتصادى واجتماعى هو مزيج من الفرعونية والمملوكية ليصبح بالتالى نسخة جديدة من الطغيان الشرقى، وعلمنا حديثا على الأتوقراطية المطلقة؟ وكما وضع الفراعنة نظام الرى الحوصلى بجهد الفلاحين، اصطنع محمد على نظام الرى الدائم بعرق الملايين على مدار السنين فى شق الترع وتطهيرها وتعميقها وبناء الجسور والقناطر ومواجهة الفيضانات العالية واستصلاح البرارى (١٠٠) كل ذلك بالسخرة غالبا، وتحت الكرياج والفلكة دائما (١١) وكما كان فرعون مالك الأرض، أعلن محمد على نفسه المالك الوحيد فصادر ملكية الفلاح وغير الفلاح، تاركاً له حق الانتفاع وحسب.. هذا بعد أن ألغى نظام الالتزام، واسترد للدولة أراضي الأوقاف وإقطاعيات المشايخ العلماء والأمراء المماليك.. ثم لم يلبث أن فرض نظام الاحتكار على الإنتاج الزراعى، رغم إرادة ومعارضة الفلاح وهربة.. ثم فرضه على التجارة الداخلية والصناعة المحلية، جميعا.. وبذلك تحول «المحتكر الأول» إلى صورة كالحة من رأسمالية الدولة.. لقد تحولت الملكية إلى الملكية.. وخلق محمد على لأول مرة فى تاريخ مصر إقطاعا فعليا حقيقيا.. بعد أن كان نظريا.. وبدأ عصر جديد تماما فى تاريخ الملكية الزراعية فى مصر، وتحت دعوى إصلاح الأراضي البور: أقطع الأبعديات والشفالك والوسايا والعزب لأفراد أسرته وعملائه وعماله

وأتباعه وشيوخ البدو، وذلك على نطاق ضخم أرسى نواة الأقطاع الحديث ..

مقاييس عصرنا

● ● صورتان متناقضتان .. كلاهما يقع على طرف يبعد عن الآخر بعد المشرقين ..

فى الأولى يطل علينا محمد على فى صورة المصلح والمنقذ والبناء العظيم .. وفى الثانية بيدرجبارا طاغية غليظ الفؤاد، يتحكم فى مصير البلاد كما يتحكم المالك فى ملكه .. وليس من شأن هذا التناقض أن يزعجنا .. أو يضعنا فى حيرة الباحث الذى يشد الحقيقة المطلقة، أو القارئ المتعجل الذى يريد أن يختصر الطريق ويجد أمامه حكما نهائيا على الرجل غير قابل للنقض: إما أبيض أو أسود .. فيطمئن وجدانه، ويضع حيثيات الحكم فى أعماق ذاكرته حين يستعرض تاريخ العظماء .. ومحمد على أحدهم بدون شك .. ومن شأن عظماء التاريخ أن تختلف حولهم الأقوال على مر العصور .. ألم يختلف الناس حول هارون الرشيد فقال بعضهم أنه كان رجل لهو وعبث ونساء ومجون ؟ .. حتى أطلقوا اسمه على الحسانات وعلب الليل لاجتذاب السكران والماجنين .. وقال آخرون: بل كان تقيا نقيا يحج عاما ويغزو عاما، ويصلى فى الليل مائة ركعة .. و.. ألم يختلف الناس حول جدة الخليفة المنصور؟ فقال قائلون أنه كان سفاكا للدماء، لا يتورع عن قتل أصحاب الفضل إذا اشتق منهم رائحة التآمر على سلطان الدولة .. ألم يقتل المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى يرجع إليه الفضل فى إقامة ملك

العباسيين على سنان رمحه ٢٠٠ وهو الذى قضى على دولة الأمويين بما كان يتمتع به من شجاعة وحسن تدبير.. ألم يقتل المنصور الأديب العظيم عبد الله بن المقفع قتله شنعاء فكانوا يقطعون أوصاله - وهو حى - ويلقون بها فى النار، وهو ينظر إليها ودخان الشواء يخلق صدره حتى لفظ أنفاسه.. وقال آخرون: بل كان المنصور رجل دولة من الطراز الأول، وهو الذى وطد أركان الدولة بالحزم والعزم والضبط والربط.. ولولاه لذهبت الدولة فى مهب الريح، وعصفت بها مؤامرات الأعداء والخارجين.. وأنه كان عالما وفقيها يجالس مالك وأبى حنيفة وأبى يوسف، ويجادلهم جدال العالم (١١)

والأمثلة كثيرة حول اختلاف الناس فى تقويم العظمة، وكلهم ينظر إلى الشخصية التاريخية من الزاوية التى توافق منهجه وتفكيره.. فأرباب الفكر الحر يرفضون التضحية بالمبادئ والقيم وحرية الفرد بحجة الحفاظ على أمن الدولة: وعلى النقيض منهم يرى دعاة القومية أن بناء الدولة لا يلامون إذا صادروا الحرية الفردية من أجل توطيد أركان الدولة، فمداعة الدولة مقدمة على حرية الفرد.

● ● وسواء صحت نظرية هؤلاء أو أولئك.. فإن العدالة فى تقويم العظماء تقتضينا أن نحكم عليهم بمقاييس عصرهم، وليس بمقاييس عصرنا، وأن نفهم الظروف التى عاشوا فيها، وهى بلا شك تختلف شكلا ومضمونا عن ظروف عصرنا.. وكل هذا يتطلب أن ننقل بعقولنا إلى العصر الذى كانت فيه مصر قبيل ظهور محمد على لنحدد مقدار المكسب أو الخسارة من خلال المقارنة بين مصر القرن الثامن عشر، ومصر فى القرن التاسع عشر.

مصر قبل محمد علي

لكي نضع محمد علي في إطاره الحقيقي، ونقوّم مكانته في منظومة التاريخ المصري، فإن علينا أن نبدأ بإطلالة على أوضاع مصر في القرن الثامن عشر وهو القرن السابق على ولادة النهضة المصرية الحديثة.. كيف كانت تحكم مصر؟ وماذا عن مستوى التعليم والثقافة والعادات والتقاليد السائدة.. ماذا كان نصيب المصريين في ثروات بلدهم.. من واجبنا أن نستجلى هذه الحقائق حتى يتبدى لنا الفارق بين حالة مصر في قرنين متتاليين.. ومن خلال المقارنة يتضح لنا دور محمد علي في بعث مصر من وهنتها، وجعلها قاعدة لدولة عظمى تحمل رسالة المدنية، وتستأنف رسالتها الحضارية، بعد أن كانت فريسة يتكالب عليها الأوغاد من مطايرد العثمانية، وقلول المملوكية الغارية. ويتحكمون في مصيرها وأموالها ومقدراتها ويزرعون فيها بذور الجهالة والفساد والخرافات والخزعبلات، لقد نصب معينها العلمي والثقافي والحضاري، حتى إذا نزلها أحد الولاة الأتراك، يحدوه الأمل في مجالسة علماءها والاعتراف من علومها، لم يجد مايشفى

غليله ، فقال قولته الأسيفة : «المسموع عندنا فى الديار الرومية - يعنى التركية - أن مصر منبع العلوم والفضائل وكنت فى غاية الشوق إلى المجئ إليها، فلما جئتها وجدتها كما قيل... سماعتك بالمعبدى خير من أن تراه» (11)

ولو كلف هذا الوالى التركى نفسه مشقة البحث عن السبب فى ما آلت إليه مصر، لعلم أن أسياده الذين بعثوا به إلى مصر، هم السبب فى تخلفها وشقائها، وإليهم يرجع «الفضل» فى تفرغها من معالم العلم والحضارة، وإدخالها النفق المظلم منذ وطأتها خيل سليم الأول فى عام ١٥١٧ م، فقصى على استقلالها، وشنق آخر سلاطينها على باب زويلة، ورسم لها النظام السياسى والأدارى الذى أودى باستقرارها وأمنها، وأضعف قدرتها الانتاجية، فأفقرت الأرض، وخربت القرى، لأن مصر - كما وصفها بوناپرت - بلد إذا أحسنت الإدارة فيه أكل العامر الصحراء، وإذا فسدت الإدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العامرة. ولقد كان النظام العثمانى من أسوأ النظم التى مرت على مصر، وما ظنك ببلد يتنازع الحكم فيه ثلاث قوى، كل منها تتربص بالأخرى وتكيد لها، والغارم فى النهاية هو شعب مصر الذى كان عليه أن يروى نهم هذه القوى المتعطشة دوماً إلى المال .. والدماء (11)

كان يجلس على رأس السلطة (الوالى) ممثل الشرعية العثمانية وتبعث به الاستانة لمدة عام واحد لا يترك منه يوماً يضيع دون نهب بقدر ما تساعد قدراته على الذهب، فإذا أراد التجديد لمدة عام أو يزيد، كان عليه أن يبعث بالرشاوى والهدايا إلى الباب العالى ليحصل على

مبتغاه وكان إلى جانبه فيالق عسكرية هي (الأوجاقات) التي كانت تضم شراذم من أحط وأسفل ما استطاعت العثمانية جمعه من المرتزقة والعاطلين الذين احترقوا العسكرية، وليس فيهم من شرف العسكرية نصيب، بل كانوا نسوراً جارحة نهشت جلود المصريين بالأنياب والسياط، وتحولوا من حراس على الأرض وحماة لها من ذئاب اليد، إلى عصابات وحشية تنقض على القرى فيغتصبون النساء جهراً ويخطفون الغلمان ويمارسون اللواط علناً... وكانت تلك هي القوى الثانية التي زرعها العثمانيون في مصر لتثبيت احتلالهم لها حتى مشارف القرن التاسع عشر.

أما القوة الثالثة فكانت قوة الأمراء المماليك الذين ترك لهم العثمانيون حكم الأقاليم، وصارت إليهم سلطة الإدارة المحلية بحكم درابتهم بأمور مصر وأساليب حكمها، وبرغم الصراعات الداخلية فيما بينهم، إلا أنهم جعلوا من أنفسهم حزباً قوياً في مواجهة الباشا، والى، وقادة الوجاقات، وصار زعيمهم يسمى (شيخ البلد) وله من النفوذ مايفرق نفوذ والى،

بهذه التركيبة الحديدية، دارت رحى النظام الإدارى لتعصر المصريين اعتصاراً قاسياً وأليماً، وجعل مصر شجرة عجفاء جفأ رحيقها، وتساقطت أغصانها، ولم يتركها إلا جذعاً خاوياً غير قادر على العطاء.. كان ممالك القرن الثامن عشر غير أجدادهم عند مطلع ظهورهم وبلغوا ذروة الفتوة لا يعرفون إلا حياة الكر والفرو والنزال، فهزموا الصليبيين في المنصورة، والمغول في عين جالوت، وأنقذوا

عالم الإسلام من فكي الكماشة التي أطبقت عليه من الغرب والشرق، وجازوا شرف إزالة آخر أثر للوجود الصليبي من فلسطين عندما نجح الأشرف خليل بن قلاوون في تدمير أقوى وآخر حصون الصليبية في الشرق الإسلامي. وكان هذا آخر العهد المجيد لهؤلاء الصغاليك الذين نشأوا رقيقاً ثم صاروا ملوكاً.. بعدها.. خادوا إلى التعميم والخلاعة إلى أن دهمتهم العثمانية فأزاحتهم عن ملك مصر، ولكنهم عادوا من الباب الخلفي، واحتلوا مقاعد السلطة المحلية: سناجقاً وكشافاً، بل احتكروا السلطة الفعلية المباشرة، وجعلوا سلطة الباشا القابع في القلعة لا تزيد على سلطة الطرطور الساكن فوق رأسه، فإذا لم يعجبهم أو إذا استثقلوا دمه أوتوجسوا منه الغدر، بعثوا إليه رسولاً يضع على رأسه قبعة لها حافة عريضة تشبه الطبق، فيصعد (أبو طبق) إلى القلعة، ويتقدم من الوالي، وينحني بكل احترام وأدب، ويطوى السجادة أمامه قائلاً: إنزل ياباشا (١) فلا يسع الباشا إلا أن ينزل.. ويتجه إلى بولاق في انتظار أول سفينة تحمله إلى الآستانة، ويأتي من بعده باشا جديد أكثر طوعاً لأرادة البكوات وأن كان أكثر رغبة في النهم والجشع.

بروفة على بك الكبير

● ● في الثالث الأخير من القرن الثامن عشر، استطاع أحد هؤلاء البكوات - هو علي بك الكبير - أن يتمرد على السلطان، ويستقل بشئون مصر، ويضرب النقود بأسمه، ويحرك الجيوش إلى الشام، ولكن العثمانية التي سبق أن احتلت مصر عن طريق الخيانة المملوكية في معركة مرج دابق، استخدمت نفس الأسلوب. واستطاعت شراء ذمة

قائد الجيش - محمد بك أبو الذهب - وهو زوج ابنة علي بك في نفس الوقت، فعاد من الشام ليعلن الحرب على سيده ومولاه وحميه، ويقتله في الصالحية، وبذلك فشلت المحاولة الاستقلالية الأولى وكانت حركة علي بك الكبير هي البروفة التي مهدت لمحمد علي باشا الطريق إلى الحكم، ولكن بعد أن أسفاد من أسباب فشلها، وهو خيانة المعاليك، ولذا جعل أكبر همه إزاحة هذه الطغمة الباغية بعد أن صارت مثل اللقمة المحشورة في زور أي حاكم يسعى إلى استقلال مصر وتحديثها وتجديد شبابها، وتقطيع روابطها بالعثمانية التي دب فيها العفن، ويقدر ما كان الوجود العثماني الرسمي يعيل نحو الأفول - تبعا لضعف الدولة المركزية - بقدر ما كان النفوذ المملوكي يزداد شراسة متحالفا مع بقايا الشراذم العسكرية العثمانية التي توطئت، كالداء الويل، في تضاعيف الحياة العصرية، وصار أفرادها يملكون الضياع والعزب ويحتازون الامتيازات، ويمارسون التجارة، وللأسف، رأينا بعض المصريين من التجار والأعيان يلوذون بهم على سبيل التزلف والتعلق بأذيال الطبقة ذات النفوذ، ويكونون عوناً لهم على ما يرتكبون من فظائع ومظالم بني وطنهم، بل وجدنا بعض النساء ينتسبن إلى هذه الوجاقات العسكرية ورثة عن أزواجهن، ويتمتعن بامتيازاتهم، وتشكل من هذه الشرائح الأرستقراطية قوة ضاغطة على الحياة المصرية في شتى نواحيها، لا تعرف إلا الكرياح كأداة وحيدة في التعامل مع المصريين. ولن نستطيع فهم أبعاد هذه العلاقة إلا إذا ألقينا نظرة على نظام الملكية الزراعية، فهو المعيار الذي توزن به الأوضاع في بلد يقوم اقتصاده

الرئيسى على الزراعة. وتعتمد خزينة الدولة على ماتجيبه من
الفلاحين فى شكل ضرائب وإتاوات وعادات لاتقع تحت حصر.

نظام الالتزام فى جباية الضرائب

(● ●) ابتدع العثمانيون نظام (الالتزام) وبمقتضاه توزع البلاد
والقرى على (الملتزم) الذى يضمن جباية الضرائب وتسليمها إلى
الحكومة، وله سلطة مطلقة فى البلاد التى يضع يده عليها، وإلى جانب
الضرائب القانونية التى تسمى (المال الميرى) كان من سلطة الملتزم أن
يفرض على الفلاحين من الضرائب والأتاوات مايفيض من المال
الميرى المقتن وهو الفايضة الذى جعله الفلاحون مرادفا للربا الذى
يفرضه الملتزم لتحقيق مصادر إضافية لدخله، رغم أن الحكومة كانت
تمنحه - مقابل التزامه - بعض الأطنان تسمى (الوسية) معفاة من
الضرائب ويلتزم الفلاحون بزراعتها وخدمتها بالسخرة - أى بدون أجر -
وكان يعاون الملتزمين فى نشاطهم جهاز إدارى محلى - كله من
المصريين - الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وسخروا أنفسهم - كجلادين
- فى خدمة الملتزمين مقابل مايحصلون عليه من مال حرام منتزع من
لحم الفلاح ورغم ضخامة هذا الجهاز الجهمى المطبق على أنفاس
الريف المصرى، لم تفكر الدولة فى النهوض بالشروة الزراعية أو
الإنفاق على إصلاح الأراضى أو شق القرع وتطهير المصارف، فقد
ركزت كل جهدها فى استنزاف الأموال، فتدهور الريف، وهجر
الفلاحون قراهم، حتى يذكر الجبرتى أن إقليم المنوفية لم يعد به سوى
خمسة وعشرون قرية بها بعض السكان، وباقى القرى هجرها أصحابها

ولم يعد بها لا دينار.. ولا نافع نار (11) وكتاب (الريف المصرى فى القرن الثامن عشر) للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن يعطينا صورة تفصيلية دقيقة عن تغلغل هذا الجهاز الإدارى كالسرطان فى شتى أنحاء البلاد، ويضم شبكة حديدية تتعاون على الإثم والعدوان، وتتحالف على ظلم الفلاحين، وتفرض عليهم المغارم والمظالم ولا يجدون مغيثا ينتشلهم من هذا البرؤس.

فهذاك شيخ القرية (العمدة) الذى يعينه الملتزم وينوب عنه فى تحصيل الضرائب من الفلاحين. فكانوا يختلسونها لأنفسهم، ويزعمون للملتزم أن الفلاح لم يدفعها، ويضطر إلى دفعها مرة ثانية، وقد سجلت وثائق المحكمة الشرعية عجز الفلاحين عن استرداد أموالهم التى دفعوها ظلما، وكان من مهمة مشايخ القرى إخراج الفلاحين بالسخرة للعمل فى ترميم الجسور وقت الفيضان، وكانوا يقاسمون الصيارفة فى الأموال الحرام التى يأخذونها من الفلاحين مقابل انقاء شرهم، وبهذه الأساليب غير المشروعة تمكنوا من تكوين ثروات ضخمة بمقياس العصر، واتخذ بعض هؤلاء المشايخ من قسوتهم على أبناء طبقتهم وسيلة للتسلق لدى أجهزة الإدارة المركزية، والأرتقاء بأنفسهم درجة، ووسيلة لجمعهم الثروات، وقد عبر أحد الكتاب المعاصرين عن قسوة مشايخ القرى على الفلاحين، وعدم رحمتهم، بأن فقهاء القرى أصبحوا يكتبون فى ثمائهم ضد العمل قولهم: إرجل أيها العمل كما رحلت الرحمة من قلوب شيوخ القرى (11).

أما الكاتب المعاصر الذى أشار إليه الدكتور عبد الرحيم، فهو الشيخ يوسف الشربيني مؤلف كتاب (هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف)

وهو كتاب يصور عذابات الفلاحين المصريين فى العصر العثمانى، ويرسم بأسلوب صريح وساخر معاناة الريف من جباة الضرائب القاسية كلوبهم.

وكان الملتزم يقوم بتعيين (مباشر) يعتبر بمثابة الوكيل له فى حصة الالتزام، وكان يعاون هذا المباشر عدد من الصيارفة الأقباط، لكل منهم منطقة اختصاص، ووظيفته جباية الأموال المقررة على الفلاحين، يدفع منها النفقات الإدارية التى تتطلبها مصلحة الالتزام ويسلم الباقى للملتزم، والواقع أن بعض الصرافين - كما توضح وثائق المحاكم الشرعية - لم يؤدوا عملهم بأمانة وإخلاص، وكانوا يستغلون نفوذهم أسوأ استغلال، ويفرضون سلطانهم على الفلاحين، وسجل الشريينى فى شرحه لقصيدة أبى شادوف: (إن النصرانى، يعلى الصراف، إذا نزل قرية لقيض أموالها يحضر إليه الفلاحون ويكرمونه ويرسلون إليه الوجبة، ويتذللون بين يديه، ويطيعون أمره ونهيه، بل يكون غالبهم فى خدمته، وأن بعض الملتزمين كان يولى الصراف أمر القرية، فيحكم فيها بالضرب والحبس، فلا يأبته الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف،

ونظرا لتسوية الصراف وخراب ذمته، أصبح الفلاحون يخشونه أكثر مما يخشون الملتزم ذاته، وذكر دجيرار، عن نهاية القرن الثامن عشر: إن فئة الصرافين، توصلت بسبب جهل الفلاحين، وبمشاركة الصيارفة مشايخ القرى فى أرباحهم المحرمة، وأحيانا بالرشاوى التى تؤمنهم العقوبات إلى جعل نفقات الجباية ربع الإيرادات، أى مايزيد على ثلث الأموال المجبية فى مصر.

والى جانب هؤلاء، كان هناك: الضولى.. والمساح.. والوكيل..
والمشد.. والكلاف.. وفيالق من الخفراء مهمتهم توقييع الظلم على
الفلاح.. وتشكلت من كل هؤلاء سلسلة جهنمية تتعاون على استغلال
الفلاحين، ونهب أموالهم. ومحاصرتهم فى حقولهم أو بيوتهم إذا
ظهرت منهم بوادر التقصير فى دفع المستحق عليهم.

حاميتها.. حراميتها

إلى جوار هذا الجهاز الإدارى العفن، كان هناك عساكر (الوجاقات)
العثمانية وكان أحطهم خلقا أوجاق (السباهية) وكانت مهمته الأساسية
مراقبة الأراضى الزراعية، والمحافظة على شبكات الري، والأشراف
على توزيع المياه على القرى، وحماية الفلاحين من غارات البدو،
ولكنهم استغلوا نفوذهم فى الريف إلى درجة كبيرة مكنتهم من السيطرة
على كثير من الالتزامات حتى أصبحوا يشكلون النسبة الغالبة من
الملتزمين، وبدلاً من أن يكونوا مصدراً للأمن والنظام، صاروا مصدراً
لترهيب وتخويف أهل الريف، فسلبوا ونهبوا وارتكبوا الموبقات، حتى أن
مصدراً معاصراً أرجع أسباب خراب الريف، وفساد الأحوال، ونقص
الأموال والغلال، وانتشار الموبقات، وضعف الفلاحين وسوء أحوالهم
المعيشية إلى: ماكان يرتكبه أفراد السباهية من المظالم ومايفرضونه من
مغارم وعصادات وطلب لم يستطع الفلاح منها فكاكاً، حتى أصبح
المصرى غير آمن على أمواله وأولاده من أعمال هؤلاء الجند، فكان
مجرد اقترابهم من القرية بسبب القلق والفزع لسكانها لأن ذلك لايعنى
إلا طلب الأموال، وهتك الأعراض، وعندما حاولت السلطة المركزية

وضع حد لما يسمى (الطلبية) وهى المغارم والأتاوات المعروفة باسم
 (حق الطريق) عندئذ ثار السباهية، وأنطلقوا كالوعول الهائجة يدمرون
 ويسفكون الدماء - ويكفى أن تغف على هذه الصورة البشعة التى كتبها
 محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى فى كتابه (كشف الكرية فى
 رفع الطلبية) وهو مخطوط فى مكتبة الطهطاوى بسوهاج عن الأعمال
 الإجرامية التى ارتكبها أفراد السباهية بعد إلغاء غرامة (الطلبية) فيقول
 إن مصر اختل أمرها، وضاعت معيشة أهلها، وكثر شرها، وخربت
 قرأها، وضعفت فلاحيتها، وانفصمت عراها، وانقلبت أحوالها، وخست
 أموالها، ونقصت غلالها لما أراد الله تعالى فى القوم، من نقلها من
 الوجود إلى العدم، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وجلاء الفلاحين،
 وازدراء الشرع المبين، وقد اتسق الخرق، وازداد الحرق، وأصل ذلك
 كله، قيام طائفة من الجند المكتوبين فى بلاد الأرياف، مع كشاف
 الأقاليم، فأظهروا العناد، وسعوا فى الأرض الفساد، وأحدثوا شيئا سموه
 (الطلبية) على الفلاحين والمزارعين فى سائر الأقاليم، وعلى العمالين
 والبطالين، وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين، إلى أن زادت
 على أموال المقاطعات، بل عمت وطمت، ولم يقدر أحد على
 المراقعات، وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة، والأفعال
 المنكرة الفظيعة، من الزنا واللواط جهارا، واقتضاض الأبقار نهارا،
 لايتناهون عن منكر فعلوه، ولا يأترون بأمر ولاتهم ولا يمثلوه
 ولا يتورعون عن تهديد الكشاف بما فيه القتل، إن قصروا عن ذلك، بل
 ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون منهم فى أمر مريع، ليس
 لهم منه خلاص، بل أضحوا فى غاية التعويج، صار أرذل الجند مقلدا

بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة، والخيول المسومة، والعدد المقومة، والمرد (الغلمان) الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول، في لهر وفرح لا يزل، وإن وجدوا أيضاً ولداً مقبول الصورة، أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف؛ مع الفسق بدسائير الفلاحين، واقتصاص أبنائ المسلمين، بل قتل بعضهم، وسلب ماله، وغير ذلك من القبايح المنكرة، والحوادث الشنيعة المبتكرة.

ويلغ الأمر بأفراد السباهية، نتيجة محاولة إلغاء (الطلبية) أن قتلوا الوالى ومعه أمير آخر، وطافوا برأسيهما فى شوارع القاهرة، وهم يصيحون صيحات هيسديرية وعلقوهما على باب زويلة، ويحكى ابن أبى السرور ما وقع عليه شخصياً من مظالم السباهية بسبب (الطلبية) بحيث يأتون إلى الكاشف (حاكم الأقليم) فيقولون له: اكتب لنا على الناحية الفلانية كذا وكذا مما يريدون، فيقول لهم: بأى طريقة اكتب لكم ذلك؟ فيقولون: اكتب أن فلاناً اشتكى فلاناً، من أهالى الناحية الفلانية. فيمثل الكاشف لما يقولون ويكتب لهم (حق الطريق) بقولهم وجميع ما يقولون لأصل له، فهذا معنى (الطلبية) وقد كان لى بلد بالمندوفية. يقول البكرى الصديقى - وماله، أى ضربيتها، مائة ألف نصف فضة، فخرمت أنا وأهلها فى مائتى ألف نصف قصة - أى الضعف - وجاء إلى بلدنا المذكورة شخص من العسكر السباهية بطلبية يزعم فيها أن حق الطريق ألف نصف فضة، فحين دخل القرية هرب أهلها جميعاً، فرأى امرأة لها ولدين، فأخذهما معها، وألقى بهما فى الخرج، فحين رأت الأم ذلك، ذهب عقلها، فجاءت له بمصاغها، وقالت

له: هذا يساوى زيادة على ألف نصف فضة، فأخذ المصاغ منها، وأخرج الولدين من الخرج، فإذا هما ميتين. فانظروا على الجرم الذى مايفعله كافر، بخلاف المسلم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم،

وعندما تمكن الوالى وكان اسمه محمد باشا من كسر شوكة السباهية المتمردة فى الخانقاه والقاهرة، وقتل من قادتهم عددا كبيرا، ونفى الباقين إلى اليمن، علق بن أبى السرور على هذا الانتصار الذى أحرزه الباشا على السباهية بقوله: «وهو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى، وتمكن محمد باشا بهذا الانتصار من إلغاء «الطلبية»، واستحق بذلك من المصادر المعاصرة ألقاب «معمار مصر» و«مبطل الطلبية». وفى هذا دلالة على قداحة المعاناة من جرائم هذه الشرزمة الفاسدة ويرتبط بها عدة ظواهر تستوقف النظر:

● الأولى: إن عددا كبيرا من المماليك انتسبوا إلى طائفة السباهية ليتمتعوا بما كان يتمتع به السباهية من نفوذ على أهل الريف، والرغبة فى حيازة الامتيازات التى انتزعوها بالقوة.

● الثانية: انتماء بعض المصريين إلى صفوف السباهية، بل إن هذا الانتماء صار أمنية عزيزة على الفلاح. كما يقول الشريبنى فى هز القحوف - سجلت وثائق المحكمة الشرعية أن عرب الهوارة امتنعوا عن سداد أموال الميرى بحجة انتمائهم إلى الوجاقات التركية العسكرية، ولكن هذه الوجاقات رفضت هذا الانتماء وقالوا: «هم ليسوا منا.. والعريان لا تكون عسكرية، وقد ساعد على شيوع الانقسام إلى الفرق العسكرية التركية: الرغبة فى الحصول على الامتيازات

● الثالثة: رغم أن مهمة السباهية كانت محصورة في الريف، إلا أنهم، كثيراً ما كانوا يذهبون إلى القاهرة للمشاركة في الفتن والصراعات التي كانت تنشب بين القرى الحاكمة، وكان سفرهم إلى القاهرة يسبب للفلاحين فزعاً ورعباً، نظراً لما يصاحب السفر من نهب وسلب فضلاً عن الفوضى التي تسود القاهرة عن دخولهم لها.



تلك صورة بائسة لما كانت عليه البلاد في القرن الثامن عشر ووقوعها تحت نير طبقة حاكمة تجمع أشقائنا من الشراذم التركية الرافدة، التصقت بها شرائح من الأنثهازية المصرية الطامحة إلى الثراء على حساب الجرح الدامي في الجسد المصري، فلم يعملوا على وقف الزيف، ولم نسمع طوال هذا العصر عن ظهور زعامة مصرية قادرة على الوقوف، في وجه المعتاة الظالمين، ولم يجد غالبية المصريين من مهريب سوى اللجوء إلى الخرافات والسحر والخزعبلات، والوقوع في براثن الأدعياء الذين أوهموهم أن مايجري لهم إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن عليهم أن يتقبلوا هذه المظالم بزعم أنها ابتلاء من الله لهم، وأن مايفعله الحكام بهم إنما هو بعض مهامهم التي تسوجب الطاعة. وتعاون الجميع على إفساد العقائد، وأنحطاط الأخلاق، ونشر الذل والاستكانة والخنوع في نفوس الناس. حتى باتت صورة المجتمع المصري في ذلك العصر مثار أسف للرحالة الأجانب الذين عرّ عليهم أن تهبط مصر إلى هذا الدرك وهي التي وضعت أسس الحضارة الإنسانية.

مصر الحديثة

عندما نسمع تعبير (مصر الحديثة) نذكر على الفور (محمد علي) فهو المؤسس والرائد الذي انتقل بمصر من ظلام العصور الوسطى إلى مشارف العصر الحديث، وهو الذي أشعل بيده شرارة النور والعلم والعرفان فعم ضياؤها أرجاء مصر والشرق العربي، وهو بهذا يقف على قدم المساواة مع ميثا وخوفو وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني في مصر القديمة، وعمر بن العاص وأحمد بن طولون والمعز لدين الله وصالح الدين وبيبرس في مصر الإسلامية، أولئك الذين جعلوا مصر دولة الشرق، وواسطة العقد في منظومة العالم القديم، ووضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها فباحث لهم بسرها، وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ.

كان ظهور محمد علي إيذاناً بأفول ثلاثة قرون من الجهل والضعف والتخلف، عاشتها مصر تحت حكم العثمانيين. وبرزت بظهوره نهضة جديدة أخرجت مصر من كبوتها ودفعت بها إلى مستوى الدول القوية. وأرسى محمد علي الأساس المتين لبناء مصر الحديثة، وأدرك بفطرته

السايمة - رغم كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب - إن التعليم هو نقطة البداية، وأن الحداثة تعلى إحياء العلوم والآداب وفتح المدارس وخلق طبقة من العلماء المتخصصين فى الهندسة والطب وال عمران والأخذ بالأساليب التى أخذته بها الحضارة الأوروبية .

كان التعليم، قبل محمد على - محصوراً فى الكتاتيب التى تعلم الصبية مبادئ الدين والقراءة والكتابة والحساب، وتدفع إلى الأزهر بمن يسعده الحظ بالهجرة إلى القاهرة، ولم يكن الأزهر يقدم لطلابه سوى قشور من علوم الدين واللغة فى شكل حواشى وشروح وتعليقات على كتب الأسلاف، وتوقفت فيه حركة التأليف والإبداع، وقد صدم هذا القحط العلمى الأجانب الذين كانوا يحسنون الظن بهذه المؤسسة العلمية العريقة، كان الأزهر هو شعاع النور الضئيل فى هذا الظلام الحالك، ومن الأزهر انتخب محمد على العناصر المؤهلة لاستيعاب العلوم الحديثة . وكان أول ما فكر فيه محمد على إنشاء مدرسة الهندسة وهذا يدل كما يقول الرافعى على الجانب العملى من تفكيره فإنه رأى البلاد فى حاجة إلى مهندسين ليقوموا بأعمال العمران فبدأ بإنشاء مدرسة الهندسة عام ١٨١٦، ويذكر الجبرتى فى سبب تأسيس هذه المدرسة قصة طريفة . ذلك أن أحد أبناء البلد، واسمه حسين شاذى عجرة، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه، وقدم نموذجه إلى محمد على، فأعجب بها وأنعم على مخترعها بمكافأة، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة فى دمياط، وأخرى فى رشيد، فكان هذا الاختراع باعثاً لتوجيه فكره إلى إنشاء مدرسة للهندسة، فأنشأها فى القلعة .

قال الجبرتي: إن الباشا لما رأى هذه «النكتة» (والنكتة في لغة الجبرتي تعني الحادثة أو الواقعة) من حسين شلبي، قال إن في أولاد مصر نجابة، وقابلية للمعارف، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية بالقلعة، ورتب فيها جملة من أولاد البلد، ومماليك الباشا، وجعل معلمهم حسن أفندي، المعروف بالدرويش الموصلي، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير، والقياسات، والارتفاعات، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي (تركي) يقال له روح الدين أفندي، بل وأشخاص من الإفرنج، وأحضروا لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهریات وكساوى فى السنة، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب وسموه (مهندسخانة) فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضى بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا.

ولما ضاقت مدرسة القلعة عن الوفاء بحاجة البلاد من المهندسين، أنشأ فى عام ١٨٣٤ مدرسة أخرى للمهندسخانة فى بولاق، وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلًا لها، ثم تولى نظارتها يوسف هاككيان أفندي أحد خريجي البعثات أيضاً. وهو الذى أدخل زراعة اليوسفى إلى مصر، وإليه ينتسب، ثم تولاهما على باشا مبارك، ومن هذه المدرسة تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة وشاركوا فى بناء القناطر والسدود وبقيّة المنشآت العمرانية التى زخر بها عصر محمد على.

مدرسة الطب:

بعد الهندسة اتجه محمد على إلى الطب، فأسس في عام ١٨٢٧ مدرسة الطب في أبو زعبل لوجود المستشفى العسكري بها، ولتوافر وسائل التعليم الطبي والتمرين، فكانت أشبه بالمستشفى التعليمي، فقامت في البداية بتخريج الأطباء المصريين للجيش - ثم صار يتخرج منها الأطباء لخدمة البلاد عامة، واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر تحت إشراف الطبيب الفرنسي (كلوت بك) الذي اختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الفرنسيين يدرسون علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والصيدلة والطب الشرعي والكيمياء والطبيعة والنبات، إلى أجانب أساتذة آخرين لتعليم اللغة الفرنسية للطلبة الأزهريين. وبعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الدفعة الأولى من الأطباء توزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش، أما المتفوقون منهم وعددهم عشرون فأبقى ثمانية منهم للعمل كمعيدين في المدرسة، وأرسل الأثنى عشر الباقين إلى باريس لإتقان علومهم، فلما عادوا عينوا أساتذة في المدرسة. وهم الذين تألفت منهم البعثة العلمية الرابعة، وفي عام ١٨٣٧ نقلت المدرسة والمستشفى إلى (قصر العيني) فجاء وجودها في قلب القاهرة أدعى إلى نشر التعليم الطبي في مصر.

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابات والولادة، واختيرت لها مجموعة من السودانيات والحبيشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن التوليد وألحق بها مدرسة متخصصة في أمراض النساء.

ثم توالى ظهور المدارس العالية (بخلاف المدارس الحربية والبحرية) على النحو التالي:

- مدرسة الألسن بالأزبكية.
- مدرسة المعادن بمصر القديمة.
- مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب.
- مدرسة الفنون والصنائع.
- مدرسة الصيدلة بالقلعة.
- مدرسة الزراعة بنبروه.
- مدرسة الطب البيطرى.
- المدرسة التجهيزية (الثانوية) بأبوزعبل.
- المدرسة التجهيزية بالأسكندرية.

وبينما كانت همة محمد على تتجه إلى إنشاء المدارس العالية، ثم المدارس الابتدائية التى أخذت تنتشر فى مدن مصر، اتجه تفكيره إلى إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا حتى يتوفر لهذا الجيل الجديد من المتعلمين المصريين فرصة التخصص فى شتى العلوم والمعارف التى تدرس فى الجامعات الأوروبية. ومن الأمور التى تثير دهشة المؤرخين هذا الاهتمام الكبير بالتعليم من حاكم أمى لا يعرف القراءة والكتابة. وفى تفسير هذه الظاهرة يذكر عمر باشا طوسون فى مقدمة كتابه (البعثات العلمية فى عهد محمد على):

من أفضل المواهب الإلهية السنية، أن يشعر الإنسان بما فيه من نقص، ويدرك ما يؤدى إليه من الأثر السيئ فى حياته، وهذه الموهبة

العظيمة تستتبع في الغالب موهبة أخرى أكبر وأعظم، وهي أن يدفعه ذلك الشعور إلى تلافى هذا النقص ثم يوفق إلى حد الكمال، ومن يقرأ التاريخ بشئ من العناية، يجد هذه المنح الإلهية قد قيضت لمحمد علي، وأن يد المنعم جلت قدرته قد أفاضتها عليه واحدة تلو الأخرى، فعندما أتاحت له الفرصة عرش مصر لا بد أن يكون قد تملكه هذا الشعور الصادق بما ينقصه ليكون عرشه قوى الدعائم، فشعر عن ساعد الجد، ولم يبال بما يحيط به من الملومات، وشعر، رغم أميته، بأن الملك لا يشيد إلا على أمتن أساس من العلم، وأن العلم الذي تدعم به الممالك ليس هو العلم الذي يسمونه علماً في الشرق، وإنما هو الذي قامت به المدنية الغربية، وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها، فأقرت لها الأمم بالغبلة، ووقفت أمامها صاغرة ذليلة.

ابتدأ محمد علي ينفذ ما جال في خاطره، فأنشأ المدارس في القطر على مثال المدارس في أوروبا، وجلب لها الأساتذة من هناك، ثم ساق إليها التلاميذ قسراً، ولكنه بعد ذلك أحس بأن كل هذا لا يفي بالغرض المروم، وأن حاجة البلاد إلى الأجانب من مدرسين وغيرهم لا تزال حيث كانت، وهو لا يريد أن تحتاج بلاده إلى شئ مامن الخارج، فهدته الفكرة إلى الحل الصحيح لهذه المعضلة وهو أن يبعث البعث من الشبان الذين أهلته معاهد العلم بمصر إلى أوروبا ليتعلموا دراستهم بها، ويخصصوا في العلوم التي ليس من المصريين أخصائيون فيها، وبذلك يتخلص من الاحتياج إلى الأجنبي، ويضمن الاستقلال العلمي لبلاده التي كان يعمل لاستقلالها، ولا يحب أن تشوب هذا الاستقلال شائبة، فأخذ يرسل التلاميذ تباعاً إلى مختلف الممالك الأوروبية ليتخرجوا في

الصدائع والعلوم والفنون، ولكن مئله كان أكثر إلى فرنسا. لذلك فكر فى الشخص الذى يعهد إليه بالإشراف على بعوئه العلمفة بها، فهدها حسن الحظ إلى مسفر (جومار) فكان رئفس البعثات المصرفة بفرنسا وغيرها.

ولم فكن مسفر جومار حدفث الصلة بمصر. فقد كان ضمن علماء الحملة الفرنسفة بقاءة بونابرت إلى مصر، واشترك فى تألف كتاب (وصف مصر) وله فى هذا الكتاب العظم مباحت واسعة جزفلة الفائدة بمكم كونه من نوابغ العلماء المهندسفن الفرنسففن، ولم فنس لمصر حقها علفه مدة إقامته ففها، وقد عرفنا محمد على لهذا الرجل فضله، وفظهر أن جومار لم فكن فرغب فى الففام بهذه المهمة ففبفن ذلك من الخطاب الذى كتبه فلفه ونشر عمر باشا طوسون خطاب محمد على بعد ترجمته إلى العربفة عن النص الفرنسفى:

القاهرة فى ١٠ ففابر سنة ١٨٣٥ م.

جناب المحترم السفد جومار العضو بمعهد فرنسا.

شكراً لك فاصدفق مصر العامل بجد وإخلاص لنفعها حتى كأنك نبراس رغباتى فى فمففن البلاد التى جعلنى الله على رأسها، إذ لم تنقطع عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة، وهى تلك الجهود العظفمة التى تعانفها فى مراقبتك التلامفذ الذىن أرسلتهم إلى وطئك منذ سففن عففدة، وففامك حق الففام بتهذفبهم، ولقد عادل جدك تصحفتك، وإنى وإن لم أجد وسفلة إلى الآن للتغلب على تمنعك الذى ففس له مصدر ففرقة طباعك، أرجو رغبة فى إظهار ما فكنه فؤافى من قدر فضائلك العظفمة حق قدرها، ألا ترفض الهدفة الصغفرة التى أقدمها

لك، ألا وهي عالية تبغ قد يكون لها قيمة في نظرك، عندما تعلم أنى أنا الذى أهديتها إليك، وقد أمرت وزيرى الأمين (بوغوص بك) أن يوصلها إليك، وإنى أؤكد لك أيها السيد إن هذه ليست مكافأة تليق بجهودك التى عادت على مصر بالفوائد الجليلة، بل هي تذكار صغير من أمير ساعدته على أن يسير ببعض خطوات في طريق تمدين الشعب الذى يحكمه، وهي في الوقت ذاته رجاء متى لك بالاستمرار في المستقبل فيما بدأت به، وإنى لفي انتظار هذا البرهان الجديد على تفانيك في خدمة قطر مدين لك بكثير من الخدم الصالحة ومن جهة أخرى كن متأكداً من العزيمة الصادقة التى اعتزمتها، ألا وهي معاضدة الرغبات التى يبديها لى أمثالك الملتهبون غيرة على الإنسانية . تلك الرغبات التى تبدونها في سبيل الإصلاح، وإنى أهدي إليك في الختام تحيات تذكلك عن خالص مودتى .

محمد على

أول بعثة :

لعلك لاحظت في صدر خطاب محمد على إلى مسيو جومار أنه مؤرخ في سنة ١٨٣٥ أى بعد سبعة عشر عاماً من تاريخ أول بعثة مصرية إلى فرنسا وخلال هذه السنين كانت البعثات تتوالى على فرنسا وتؤتى ثمارها . أما أول بعثة فكانت إلى إيطاليا سنة ١٨١٣ عندما أوفد محمد على بعض التلاميذ لدرس الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها . وقد ضاعت القائمة بأسماء هؤلاء ولم يعرف منهم سوى طالب واحد هو (نقولا مسابكى أفندى) الذى ذهب إلى ميلان

ليتعلم فن سبك حروف الطباعة وفنونها، ومكث هناك أربع سنوات عاد بعدها إلى مصر وتولى إدارة المطبعة الأميرية ببولاق إلى أن توفي عام ١٨٣١ م.

ولاندرى السبب الذى جعل محمد على يصرف النظر عن إيطاليا ويتجه إلى فرنسا. ربما كان ذلك بتأثير من صديقه (ديلسبس) والد المقاول (فردناند) صاحب مشروع حفر قناة السويس، وربما لاطمئنانه إلى مسيو (جومار) صاحب الخبرة القديمة بالديار المصرية.. المهم أن قائمة هذه البعثة ضاعفت هي الأخرى من وثائق بعثات محمد على، ولم يذكر عمر طوسون سوى واحد فقط هو (عثمان نور الدين) الذى أرسل سنة ١٨١٩ لاتقان الفنون الحربية والبحرية ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ وترقى فى مناصبها إلى رتبة (سر عسكر) ورئيس للأسطول المصرى سنة ١٨٢٨ بدلاً من (محرم بك) زوج بنت محمد على. ويذكر عمر طوسون أن عثمان نور الدين - أثناء بعثته - نزل منزلة سامية - من نفس مسيو جومار، فاقترح على تلميذه أن يسعى عند عودته إلى مصر لدى سيده محمد على ويرغبه فى إرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا لتلقى مختلف العلوم فيها، فلما عاد عثمان نور الدين عرض على مولاه هذا الاقتراح، فتلقاه بالقبول، وكان ذلك سبباً فى إرسال بعثة سنة ١٨٢٦ وما بعدها إلى فرنسا، وكان محمد على يحب عثمان نور الدين حباً جماً لئذله قصارى جهده وعنايته فى خدمته حتى كان لا يناديه إلا بلفظة (ولدى عثمان) ولا يكتب له إلا بها، وبني له منزلاً بجواره غربى قصر رأس التين ليكون على مقربة منه، ولقبه على أثر ما ظهر من مهارته الحربية برئيس البحر والبحر، ولم شبت

ثورة كريت وأراد محمد علي إخماد الثورة، أرسل عليها عثمان نور الدين باشا على رأس قوة عسكرية ضخمة فأخضعها بعد أن أعطى رؤساء الفتنة عهد الأمان على أرواحهم وأموالهم، فلم يوافق محمد علي ذلك، وصمم على قتلهم، فحار عثمان باشا في أمره، ولم يجد مخرجاً من هذا المأزق سوى ترك خدمة مولاه، فترك كريت ولجأ إلى الآستانة سنة ١٨٣٣ وأقام بها إلى أن توفاه الله .

قدوة الأمائل :

وتوالى إرسال البعثات إلى فرنسا .. ورغم مشاغل محمد علي في بناء الدولة العصرية، فإنه لم يكن مقطوع الصلة بأولاده الذين يتلقون العلم في المدن الأوروبية .. وبلغ من اهتمام محمد علي ، بأعضاء البعثات، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم في بلاد الغربة ، ويواليهم بالنصائح والإرشادات، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة أوردها رفاعة رافع الطهطاوى - الرائد الدينى للبعثة الأولى - فى كتابه المشهور :تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

«قدوة الأمائل الكرام، الأفندية المقيمين فى باريس، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، نلهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة

على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمه لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئاً، وأنتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم. وهذا الأمر غمنا كثيراً، فإنا أفندية ماهر مأمولنا منكم، فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وأثار مهارته. فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغي للإنسان أن يتبصر في عاقبة أمره، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعب، فبناء على ذلك، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ولم تجتهدوا في كسب نظرنا، وتوجهنا إليكم لنتميزوا بين أمثالكم. فإذا أردتم أن تكتسبوا رضائنا، فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم، وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم ويكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم في الاجتهاد والغيرة، فاكتبوا لنا سببه. وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم. وأي تشويش لكم: هل هو طبيعي أو عارض، وحاصل الكلام أنكم تكتسبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا منكم، فافقروا

هذا الأمر مجتمعين، وافهموا مقصود هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر
فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمئة الله تعالى.

الصدمة الحضارية:

وفى كتابه الوثائقي عن بعثات محمد على إلى باريس، يعطينا عمر باشا
طوسون صورة تفصيلية عن حياة الطلاب المصريين فى الخارج والعلوم التى
كانوا يدرسونها، والطعام الذى كانوا يأكلونه، والصدمة الحضارية التى حدثت
لهم عند هبوطهم أرض فرنسا، واتقأنهم اللغة الفرنسية خلال فترة زمنية
قصيرة. يقول مديرهم الفرنسى: من المدهش الذى لا يكاد يصدق أن عربا
أتوا باريس منذ عشرين شهرا تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم بشعر فرنسى
لا عيب فيه، وألفوا مقطوعات منه يشرف الفرنسيين اتيانهم بها. وفى كل ما
يخطه قلم هؤلاء الشبان المصريين باللغة الفرنسية يجد القارئ ضريبا غريبا
من البساطة وحرية الفكر يستأهل الذكر، ويظهر من فحوى كتابتهم أنهم قبل
أن يكتبوا يفكرون بعقل فرنسى لا بعقل عربى، فمن المنتظر أن الخرافات
الشرقية ستدعى من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التى تغطي أعين الشرقيين
وتقيدهم بسلاسل المظلمة ستسقط تدريجيا على الأقل عن أولئك الذين
يدرسون عندنا.

وقال الطالب محمد مظهر، (باشا فيما بعد) فى رسالة له إلى أحد
أصدقائه بالقاهرة: عندما نزلت فى مرسيليا ظهر لى جملة مناظر لم أرها من
قبل، أولها جمال المباني مع علوها الشاهق ثم الشوارع المرصوفة مع اتساعها
واستقامتها، ثم انى سمعت جلبة لم أسمع مثلها، ورأيت بعد ذلك عربات
تجرها الجياد (نعله يقصد الحناطير) وهى أول مرة فى حياتى أرى فيها هذا

المنظر وكانت تلك العريات لا ينقطع مرورها فى الشوارع. وقد استولت على الدهشة عندما وقع بصري على السيدات الفرنسيات وقد سفرن (من السفور) بحرية بأزيائهن الجميلة فى الشوارع والميادين والمنزهات، الأمر الذى تايء عادتنا وشرائع بلادنا.

البعثة الأولى :

ويعرض المؤلف بيانا تفصيليا عن أفراد البعثة الاولى وجنسياتهم والعلوم التى تخصصوا فيها، وكان اعضاء هذه البعثة ٤٤ منهم ثلاثة رؤساء واثنين انضموا اليها بعد سفرها، وخمسة غائبين. أما الباقون فمئهم أربعة أرمن مسيحيين وثلاثون مسلمون، وأن ثلاثة منهم يحملون لقب شيخ، و١٨ مولودون فى مصر وستة عشر خارج مصر، وأحد الـ ١٨ عثمانى الأصل مولود فى القاهرة من أم مصرية وهو محمد مظهر باشا وأن ١٢ آخرين هم عثمانيون أتوا إلى القاهرة يافعين،.

أما الثلاثة الشيوخ فهم الشيخ أحمد العطار وتخصص فى علوم الميكانيكا، والشيخ محمد الدشطوطى وتخصص فى دراسة الطب والجراحة والتشريح، أما الثالث فهو الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى درس الترجمة من الفرنسية إلى العربية.

ويقدم لنا المؤلف نبذة عن امتحان هؤلاء التلاميذ فى العلوم الطبية كما سجلها كلوت بك وكيف أن كلوت بك ذهب إلى باريس سنة ١٨٣٢ وبصحبه ١٢ تلميذا مصريون منتخبون من مقدمى تلاميذ مدرسة الطب بأبوزعبل، وعند وصولهم باريس اختبروا من الجمعية العلمية الطبية بحضور عظماء العلماء الأوروبيين فأسفر هذا الاختبار عن نجاة هؤلاء التلاميذ وعلموهم

أستاذهم في التعليم، وكانت إجابتهم عن الأسئلة التي وجهت إليهم باللغة الفرنسية لأنهم كانوا يتعلمونها في مصر، وقد اعترفت لهم هذه الجمعية بوصولهم إلى درجة التلاميذ الفرنسيين ولما كانت رغبة محمد علي باشا امتحان هؤلاء التلاميذ بفرنسا حتى يظهر مبلغ ما وصلوا إليه من العلوم الطبية التي تلقوها في مصر، فقد تشكلت لجنة من كبار العلماء الفرنسيين وتحدد الاجتماع في الساعة الواحدة من ظهر يوم الأحد ١٨ نوفمبر ١٨٣٢ بقاعة جلسات الجمعية العلمية الطبية الملكية، وأول من دعى منهم للامتحان الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لانقاذ المريض منها، فأجاب وأجاد وصدق له الحاضرون استحسانا، وأثلوا عليه ثناء مستطابا، ثم دعى حسين الههياوى أفندى فسئل عن شرح العجان وعن المثانة وعن الأعراض التي تدل على وجود الحساة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التي كان يستعملها كلوت بك، فأفاض وأجاب اجابة حسنة. ثم قام ابراهيم افندى النبراوى فسئل عن تركيب المفاصل العضدية وعن خلع الذراع وكيفية ردها فأجاب بما أظهر قوته وأبان للحاضرين ذكاءه وفطنته ولما وجد البارون (ديبويتن) نجابة التلاميذ المصريين نهض فيهم خطيبا فقال: أيها التلاميذ أيذاء مدرسة الطب بأبي زعل، من دواعي الغبطة والسعادة لنا أننا دعينا إلى هذه الحفلة لنشاهد ما اكتسبتموه بمدرستكم الطبية بمصر من العلوم، وقد أبان لنا تفوقكم أن مدرستكم أعادت إلى مصر شهرتها القديمة في العلوم الطبية بعد ما أصابها الخمول، والفصل في ذلك يرجع إلى واليها الأمير الأعظم محمد علي باشا الذي قبض على زمامها وسيرها في الطريق الأقوم ونشر ما طوى من مفاخرها العاصية، وشيد ما قوضته بها أيدي الزمان من معالم

الحضارة والعمران، وأنشاء مدرستكم وانتخب لها الدكتور كلوت بك فأحيا بعمله الجليل ذكرى مدرسة الاسكندرية الشهيرة فلحضرتة الشكر الجزيل، ولكم أيها الشبان النجباء منا ايضاً جزيل الشكر والثناء، فقد نطقتم بالصواب بلغة غير لغة بلادكم مما دل على أنكم تعلمتم على أساس متين، وقد جعل ذلك أملاً في انكم ستحيون مجد أجدادكم العظماء من كبار الأطباء كابن سينا والرازي والزهرأوى وانكم ستسيرون على مثوالهم وتحيون آثارهم لتكونوا نعم الخلف لهؤلاء السلف.

الأسطوانات :

ولم تتوقف البعثات على الدراسات العليا، وإنما شملت ايضاً ايفاد الاسطوانات لتعلم الصنائع والفنون التطبيقية، وفي سنة ١٨٣٢ ارسل محمد علي ١٥ تلميذا تحت اشراف أدهم بك منهم اربعة لتعلم معدن الفحم (التعدين) في انجلترا التي هي أشهر ممالك أوروبا بمناجم الفحم والتعدين، وبعضهم للتدريب في ورش صناعة الحرير.. ومما يذكر عن أدهم بك أنه عندما وصل إلى انجلترا خلع الزي الشرقي المصري، وارتدى الزي الانجليزي وقاد الانجليز في عاداتهم واحوالهم، وما أن علم عزيز مصر بما حدث من أدهم بك حتى أمر بإعادته إلى مصر مفضوا عليه، وقال: اننى بعثته ليعاين فابريقاتهم (يعنى ورشهم ومصانعهم) ويقف على مصانعهم ليلتها في مصر لا ليقلدهم في ملابسهم وعاداتهم، ثم عفا عنه بشفاعه حفيده عباس باشا وعينه مديراً لديوان المدارس.

أولادنا في باريس

كان رفاعة رافع الطهطاوى أشهر وأشهى ثمرات البعثات العلمية الكبرى التي أرسلها محمد على إلى فرنسا، رغم أن المهمة الأساسية لهذا الشاب الأزهرى أن يؤم المبعوثين فى الصلاة ويحثهم على التمسك بالفضائل حتى لا يقعوا فى حبال الغواية، ولكن عبقرية رفاعة، وحبه للبحث والاطلاع، واستعداده الفطرى للمقارنة، جعله يتغمس فى دراسة الأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية المحيطة به، فعاد إلينا وهو يحمل فى عقله أفكارا جديدة كانت الأساس الذى قامت عليه النهضة المصرية - والعربية عامة - فى مجال الفكر والسياسية وأنظمة الحكم الدستورية، ومن هنا طغت شهرة رفاعة الطهطاوى على شهرة مئات المبعوثين الذين تخصصوا فى علوم الطب والهندسة والرياضيات وفنون الحرب، وإذا كان الفكر الحديث لا يزال هائما فى فلك الطهطاوى، ومتصلا بترائه الذى صبه فى «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز» و«مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية»، وغيرهما من كتب التدوير، فإن أحدا لا يذكر شيئا عن المؤلفات التى وضعها علماء البعثات بعد عودتهم فى مجال تخصصهم .. من منا يذكر كتاب «ثمررة الاكتساب فى علم الحساب» و«جامع الثمرات فى حساب المثلثات» للعلامة

مصطفى باشا بهجت، أو القسانون الرياضى فى فن تخطيط الأراضى،
لإبراهيم بك رمضان، أو الأقوال المرضية فى علم بذية الكرة الأرضية
لأحمد باشا فايد، أو رعاية الفلاح فى أعمال الجراح، ونشر الكلام فى
جراحة الأقسام، للدكتور محمد على البقلى باشا، ونزهة الإقبال فى مداواة
الأطفال، للدكتور أحمد حسن الرشيدى بك..

هذه عينة من الكتب التى ألفها علماء البعثات ووضعوا فيها خلاصة
بحوثهم، وصارت هذه المؤلفات تشكل مناهج التدريس فى المدارس العالية
التي أقامها محمد على، وتخرج فيها الرعيل الأول للطبقة المثقفة التي حملت
عبء النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر، وإذا أردت أن تعرف حجم
الدفلة الهائلة فى الحياة الثقافية المصرية، فما عليك إلا أن تقارن بينها وبين
ما كانت تفرزه القرية المصرية الخاوية - قبل محمد على - إلا من قشور
سطحية، وتعليقات ضحلة على تراث الأسلاف، ناهيك عن الخرافات
والخرعبلات التي كانت سائدة فى مصر والشرق.

هؤلاء الرواد:

من المفيد، ونحن نقرب فى التراث العلمى لمشروع الدولة المصرية التي
أقامها محمد على، أن نزيح الغبار عن هؤلاء الرواد، ونبحث فى أصولهم
الاجتماعية، والبيئة التي خرجوا منها، والظروف التي عاشوا فيها أثناء
إقامتهم فى فرنسا، حتى يتواصل حاضرننا بماضيها، وتوضح لنا معالم اللبنيات
الأولى فى الهرم الثقافى المصرى.

إن المعلومات القيمة التي جمعها عمر باشا طوسون فى كتابه الوثائقى
عن البعثات العلمية فى عهد محمد على، تعطينا صورة راقية عن حجم هذه

البعثات والعلوم التي درسوها والمرتبسات التي كانت تمنح لهم. ولكن لم يتطرق عمر باشا طوسون إلى القواعد التي تم على أساسها اختيار هؤلاء المبعوثين، أو الجهات التي رشحتهم، أو الأصول الاجتماعية لهم، وإن كانت البيانات التحليلية تدل على أنها كانت تضم مسلمين ومسيحيين، وغير مصريين ينتسبون إلى أصول تركية وشركسية وأرمن وفوقاز وسودان وأحباش من أبناء كبار الموظفين أو الرقيق الذين كانوا يعملون في خدمة ولي النعم، كما كانت تضم تلاميذ ينتمون إلى عامة المصريين الذين توفرت لهم فرص التعليم.

لقد اعتمد عمر طوسون في تأريخه على التقارير التي وضعها عنهم مسيو «جورمار»، ولكنه اكتشفت بعض الأخطاء في بيانات الطلاب، فصححها بالرجوع إلى دفاتر دار المحفوظات المصرية بالقلعة. ومع ذلك فقد عانى المؤلف معاناة جمة في تخصيص هذه الدفاتر لأنها كانت «تقتصر على الناحية المالية فقط وما كان يصرف لهم من مرتبات فضلا عن سقم كتابتها، وتعدد الكاتبين لها بأقلام مختلفة يزيد بعضها على بعض في الرداءة وعدم تحري التدقيق في كتابتها بوجه عام، مما يجعلنا نلقي أشد العناء في استخلاصها. فقد كان القصد منها لم يكن أكثر من قيد ما أنفق على التلاميذ فهي دفاتر حساب لا أكثر ولا أقل، أو دفاتر أصول وخصوم، وذكر أسماء التلاميذ فيها إنما جاء عرضا ضرورة أن لكل منهم حسابا، فلم يكن من الأمور المهمة في نظر كاتبها ذكر أسمائهم واضحة جليلة مقرونة بما يميز بعضها عن بعض، ولا ذكر العلم الذي كان يتعلمه كل واحد منهم، وقد يكون هناك عدة أشخاص يحملون اسما واحدا.. وأدهى من ذلك أن يذكر الاسم بأكثر من صيغة.. مثل اسم الشيخ رقاعة رافع، فلم يكتب في هذه الدفاتر إلا

هكذا «الشيخ رفاعة».. إلخ» .

وقد اجتهد عمر طوسون في تحقيق أسماء الطلاب والعلماء أو الصنائع التي تخصصوا فيها والمراكز التي شغلوها مستعينا بما ذكره على باشا مبارك في الخطط التوفيقية.. وبذلك توفرت لنا حصيلة جيدة من المعلومات.

لبعثة الأولى:

كانت البعثة الأولى التي ذهبت إلى فرنسا في صيف ١٨٢٦ تضم ٤٠ طالبا بخلاف الشيخ رفاعة «إمام البعثة»، وأحمد أفندي مختار المسئول الإداري عنها، ثم التحق بهم فيما بعد اثنان، وقد نجحوا جميعا في الامتحانات النهائية، فيما عدا خمسة لأسباب تعود إلى نقص كفاءتهم أو مرضهم. وبذلك يكون العدد النهائي لخريجي هذه البعثة ٣٩ شخصا. يقول عنهم كلوت بك إن منهم (١١) تخصصوا في علوم الإدارة الحربية والمدنية والسياسية و(٨) في علم الإدارة البحرية والمدفعية والهندسة العسكرية و(٢) في الطب والجراحة و(٥) في الفلاحة والتاريخ الطبيعي والمعادن و(٤) في العلوم الكيميائية و(٤) في علم الهيدروليكا «قوى المياه» وفن صبب المعادن وصناعة الأسلحة و(٣) في الحفر والطباعة. وواحدا في فن العمارة، وواحدا في فن الترجمة هو الطهطاوى. وإليك بيانات شخصية عن بعض هؤلاء المبعوثين والأعمال التي قاموا بها بعد عودتهم إلى مصر:

* أرفين أفندي سكياس الأرمنى: تخصص في علم الإدارة الملكية. كان مرتبه الشهري ثلاثمائة قرش، عين بعد عودته مديرا لمدرسة الإدارة والترجمة بالقلعة، ثم عضوا في المجلس الأعلى للحكومة فعضوا في مجلس ديوان المدارس، وفي سنة ١٨٣٩ عين سكرتيرا لولى النعم، ثم تقلد نظارة

الخارجية والتجارة خلفا لباغوص بك الأرمنى (خال نوبار باشا) وفى سنة ١٨٥٠ اعتزل الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٥٩ . وأرتين أفندى هو والد يعقوب أرتين باشا صاحب المؤلفات المعروفة عن الملكية الزراعية والذي صار وكىلا لنظارة المعارف حتى عهد عباس الثانى .

* محمد خسرو تيمور أفندى الكرجى (من جورجيا) : أرسل لتعلم الادارة الملكية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش ، مرض بأوروبا وتكلف علاجه فى النمسا ٢٢٩٠ قرشا و٣٦ فضة . وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ويظهر أنه توفى على أثر رجوعه .

* دويدار مصطفى مختار أفندى : أرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى ٢٩١٦ قرشا وبعد رجوعه عين عضوا فى المجلس الأعلى للحكومة ومديرا لديوان الحربية ، ثم مديرا لديوان المدارس فكان أول ناظر للمعارف فى مصر ، وفى عهده أنشئت عدة مدارس .

* رشيد أفندى أباطة : أرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش ومما تعلمه صناعة الرصاص .

* أحمد يكن مصطفى أفندى القوللى : ينتسب إلى (قولة) مسقط رأس محمد على وإلى الاسرة اليكندية . وأرسل لتعلم الإدارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش . وتعلم صناعة الرصاص ، ورجع ومعه كتب كثيرة فى الفنون الحربية .

* حسن الاسكندرانى أفندى : أرسل للتعليم فى ترسانة (برست) ثم سافر إلى انجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل مع زميليه محمود أفندى نامى ومحمد أفندى شنان وتكلفوا فيها مدة سنة ، ١٧٤٧ قرشا و٢٠ فضة ، وكان راتبه الشهرى ٤١٦٦ قرشا وبعد رجوعه حاز لقب باشا وصار ناظر البحرية

فقايدا للأسطول ولقى حتفه على ظهر السفينة (مفتاح جهاد) التي غرقت في حرب القرم سنة ١٨٥٥ .

* محمد بيومي أفندى: درس العلوم الرياضية وكان مرتبه مائة قرش، وبعد رجوعه صار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة ومن نوابغ علماء الرياضيات، ولد بمصر وأصله من دهشور بمديرية الجيزة، وصار استاذا ومرجعاً لعلماء الهندسة المصريين ثم انتقل إلى قلم الترجمة بنظارة المعارف، واشترك مع رفاعة الطهطاوى في العمل، وله جملة مؤلفات في الهندسة والرياضيات. ونقم عليه عباس الأول فتفاه مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفى بها، قال عنه على باشا مبارك: كان من أعظم رجال تلك الرسالة، حسن الأخلاق مهييا جليلا ذا رأى حسن.

* محمد أفندى مظهر: بعث إلى فرنسا لتلقى الهندسة بها، ثم سافر إلى إنجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وكان مرتبه الشهرى أربعمائة قرش، نبغ في العلوم الهندسية والرياضية، وقد امتدحه المسيو «جومار» في رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه: «إن نبوغ مظهر أفندى في الرياضيات لما يسترعى النظر، ولما عاد إلى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطرة، وهو الذى بنى منار الاسكندرية الكبير القائم فى رأس التين، واشترك مع مسيو «موجيل» بك فى بناء القناطر الخيرية، وأختص بالأشراف على إنشاء قناطر فرع رشيد، ونال فى عهد اسماعيل رتبة الباشوية. ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر ارسل إلى فرنسا للنظر فى اصلاحها، ويطلق اسمه على الشارع المعروف بالزمالك.

* أحمد طائل أفندى: من قرية بلتان بالقليوبية أرسل إلى فرنسا لتعلم الهندسة وكان راتبه الشهري خمسين قرشا. وعند عودته عين مدرسا فى مدرسة المهندسخانة للعلوم الميكانيكية والجبر، ثم مهندسا للركاب العالى، ثم نفى إلى الخرطوم فى عهد عباس الأول مدرسا بالمدرسة الابتدائية بصحية رفاعة الطهطاوى ومحمد بيومى، وعاد من منفاه فى عهد سعيد مصابا بالحمى، وتوفى بعد ليلتين من وصوله، قال عنه على مبارك: كان قصير القامة صغير الجسم، كثير الفهم، لا يبالي بأكثر الأمور، وله جرأة وإقدام على الأمور، وكان محبا للتلاميذ يرغب فى تعليمهم وأخذ عنه جميعهم.

* أحمد فايد باشا: من كباد بمديرية القليوبية، تخصص فى دراسة الهندسة والكيمياء والرياضيات وكان راتبه الشهري خمسين قرشا، ولما عاد إلى مصر عين معيدا لدروس بهجت أفندى بمدرسة الطوبجية ثم مدرسا بالمهندسخانة وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلها، وتخرج على يده كثير من المهندسين الكبار، وله مؤلفات فى الهندسة والرى منها «تحرىك السوائل»، و«لدرة السنية فى الحسابات الهندسية»، كما عمل فى السكك الحديدية حتى صار باشمهندس عموم السكك الحديدية المصرية وإليه يرجع الفضل فى مد خطوطها فى أكثر أنحاء القطر وباسمه سميت محطة (فايد) بخط السويس. ونال رتبة الباشوية قبل وفاته سنة ١٨٨٢.

* أحمد بك دقلة: من بسيون غربية نشأ فى مدارس مصر وأرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ وتخصص فى العلوم الرياضية

وعاد سنة ١٨٣٥ وعين معيدا للاستاذ محمد بيسرى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق . ثم مدرسا لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور ثم وكيلا للمدرسة وانتقل إلى قلم الهندسة . قال عنه على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية : أكثر المهندسين الموجودين تلقوا عنه ، وكان حسن الألقاء يجتهد فى التعليم ، ويحث على الفهم وكان من اعظم المهندسين . وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) مات سنة ١٨٥٦ .

بعثة الصنائع :

وفى أول يناير ١٨٣٠ وصلت بعثة مصرية كبيرة إلى أوروبا مؤلفة من ٥٨ تلميذا لتلقى الفنون الآلية (الصنائع) من بينهم ٣٤ تلميذا ارسلوا إلى فرنسا ، وأربعة إلى النمسا ، وعشرون إلى إنجلترا ، ولم يعثر عمر طوسون على أسمائهم فى دفاتر دار المحفوظات ، ولكنه عثر على بعضهم فى مصادر أخرى ، ولم تحدد لهم مرتبات شهرية فى الدفاتر ، بل كان كل واحد منهم يأخذ فى كل أسبوع مبلغا يسيرا من الفرنكات بمثابة «مصرف يد» . ويزداد هذا المصروف لبعضهم إذا تفوق فى صنعه . ويذكر عمر طوسون أن هؤلاء التلاميذ كانوا يتعلمون بجانب صنائعهم أمورا مهمة منها مايرتبط بالصنائع كالرياضيات والرسم ، ومنها مايرتبط باللغة الفرنسية ، حتى كان كثير منهم يتلقى علم البيان فى اللغة الفرنسية على أساتذة متخصصين . وإليك بعض البيانات عن هؤلاء كما وردت فى دفاتر دار المحفوظات :

* عبد الرحمن: ولم يذكر بقية الاسم أرسل لتعلم صناعة آلات الجراحة فى مصنع المسيو «سيرايزى» وكانت أجرة تعليمه فى سنة، ١٦١١ فرنكا و ١٥ صلديا (٤٨٣٥ ربيع قرش) على اعتبار أن الفرنك يساوى ثلاثة قروش.

أما التلميذ فكان يحصل على فرنكين صحيحين كل أسبوع ثم صار أربعة فرنكات (١٦ قرشا) وعند عودته إلى مصر تسلم ٢٠٠ فرنك مكافأة له على نجاحه الباهر.

* محمد حاكم: أرسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الساعات فى مصنع الساعات بمدينة ليون، وكان يأخذ فى الأسبوع ثلاثة فرنكات (١٢ قرشا) ثم صرف له مبلغ ١٨٦٤ فرنكا ثمن كتب وآلات. وكان يتلقى أيضا علم البيان فى اللغة الفرنسية على استاذ فرنسى وتسلم عند عودته «بقشيش» قدرة ٢٠٠ فرنك.

* إبراهيم العتال: أرسل لتعلم الصياغة والجواهر. وقد انعم عليه فى أثناء تعليمه بمبلغ عشرين فرنكا لتفوقه فى تعلم صناعة الصياغة، وتسلم ٢٠٠ فرنك بقشيش قبل عودته.

* حسين محمد: أرسل لتعلم صناعة الشمع وكان يأخذ كل اسبوع فرنكا واحدا، وعند عودته إلى مصر أعطى له مبلغ خمسين قرشا مكافأة.

* مصطفى الزرابى: أرسل لتعلم صناعة المدسوجات الحريرية فى قابرقة بمدينة ليون ومنها سافر إلى لندن وكانت تكاليف تعليمه ٩٧٣ فرنكا وكان يأخذ فى الأسبوع فرنكين.

* محمد اسماعيل: ارسل إلى فرنسا لتعلم النقش والدهان بالمباني، وتعلم في فابريكة مسيو غارنى النقاش وتعلم علم البيان الفرنسى على يد استاذ متخصص، وكان مرتبه فرنكين ارتفعت إلى ثلاثة فى الأسبوع.

* سليمان البهناوى: من قرية بهناى بالمنوفية، ارسل لتعلم صناعة السروجية في فابريكة مسيو هنرى، وسافر إلى لندن وعاد إلى فرنسا وأنعم عليه بمبلغ ٢٠ فرنكا ومبلغ ٥٩٩ فرنكا ثمن قطع حديد وجلد وآلات.

* محمد يوسف: ارسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الأحذية أو الجزم والمراكيب كما في الدفاتر. وقد مرض هناك وصرفت عليه مصروفات علاج كثيرة ثم شفى وعاد إلى صنعته ثم عاوده المرض وتوفى، وصرف على خرجته مبلغ ٣٨٠ فرنكا و١٠ صلاوى (١٥/١١٤ من القروش) وصرف على قبره ٣٠٨ فرنكات: ١٨ ثمن سرير + ١٩٠ ثمن حجر رخام + ١٠٠ أجره كتابة اسمه بالعربى والفرنساوى على الرخام.

* عبد الرب: كان يتعلم صناعة الاجواخ بفابريكة مسيو أملدلون وكان يأخذ في الاسبوع ثلاثة فرنكات وكانت أجره تعليمه في سنة، مبلغ ٣٦١٩ فرنكا.

* خليل البقللى: كان يتعلم بفابريكة (قلمار) ومعناه مصنع الرسم بالقلم أو بصم الشيت. وكان راتبه الشهرى ٣٢ فرنكا وقد توجه له مسيو جومار وقاوم عليه في تعلم صناعة النقش بتكاليف بلغت ١٠٨٩ فرنكا في ثمانية اشهر.

*هنرى روسى: ابن الخواجة روسى ناظر فابريقة دباغة الجلود
برشيد فى عهد محمد على . وهو التلميذ الوحيد فى بعثة الصنائع من
حيث جنسيته الأوروبية ومن حيث أنه كان يأخذ مرتبا شهريا طوال
مدة بعثته . وكانت والدته بفرنسا وكان يزورها كثيرا كما ورد فى دفاتر
المحفوظات، وجاء عنه انه كان يتعلم الرياضيات والكيمياء . وكانت
أجرة تعليمه فى سنة، ٢٦١٥ فرنكا و ١٥ صليدا وقد اشتريت له ساعة
ذهبية بمبلغ ٣٢٤ فرنكا عقب قيامه بامتحان فاز فيه . وكان مرتبه
الشهرى ١٠٠ قرش وعاد إلى مصر عام ١٨٣٦ .

منحة المالك

مذبحة المماليك . هل كانت النقطة السوداء في تاريخ محمد علي

اختلف المؤرخون حول مذبحة القلعة التي دبرها محمد علي للقضاء على المماليك . بعضهم أدان محمد علي ليس فقط لأنه سلك أسلوب الغدر وأوقع بهم بطريقة تتنافى مع القيم الإنسانية، ولكن لأنه أفرغ البلاد من القوة العسكرية الوحيدة التي كانت تعتمد عليها البلاد وقبل أن يقوم فيها جيش نظامي يقوم بمهمة الدفاع والحماية . ومن المؤرخين من يائتمس العذر لمحمد علي لأن المماليك فقدوا قدراتهم العسكرية منذ هزيمتهم أمام القوات الفرنسية . وتحولوا الى عصابات للسلب والنهب .

على أية حال . . لنترك حكم التاريخ مؤقتا . . وندخل في تفاصيل هذه المذبحة البشعة التي دبرها محمد علي بحكمة ودقة .

في صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨١١ أخذت القاهرة زخرفها وازينت بالأعلام والبيارق، وخرج الأهالي إلى الشوارع لتوديع الجيش المصري الذاهب إلى الحجاز لحرب الوهابيين، والذي سيأخذ طريقه من باب العزب المطل على ميدان الرميطة بالقلعة إلى شارع الأزهر ثم

ينحرف يميذا فى شارع المعز لدين الله حتى باب الفتوح .. ومنذ الصباح الباكر كان عزيز مصر محمد على باشا يتصدر أريكة الحكم فى قصره بالقلعة ويستقبل الشيوخ والعلماء والقضاة والتجار والأعيان الذين توافدوا عليه للفهنة والدعاء لقائد الحملة ابنه أحمد طوسون باشا، وأفت الأنظار قدوم كبار الأمراء المماليك على خيولهم المطهمة، وفى ثيابهم المزركشة للإعراب عن سعادتهم بالدعوة التى وجهها إليهم محمد على لحضور الاحتفال، وليكونوا ضمن الموكب الذى سيصاحب الحملة أثناء مرورها فى شوارع القاهرة ..

أما وجه الدهشة فيرجع إلى تراجد المماليك داخل عرين الأسد بعد سلسلة المعارك الدامية التى وقعت بين الطرفين، ودارت رحاها فى الصعيد حيث حشد المماليك قواهم ورفضوا الاعتراف بمحمد على حاكما على مصر دون مشاركة من المماليك الذين كانت لهم السيادة على مقدرات البلاد طوال ستمائة سنة، وكانت دعوتهم إلى احتفال القلعة إعلانا عن المصالحة وحقن الدماء وبدء صفحة جديدة تخاد فيها البلاد إلى الهدوء والاستقرار بعد ست سنوات من الاضطرابات والفتن ..

كان هذا هو الانطباع الذى رسخ فى ذهن الحضور، وزادت دهشتهم حين وجدوا محمد على يستقبل أعداء الأس بوجه بشوش، وكلمات معسولة، ويسأل عن أحوالهم، ويضفى عليهم من عطفه ما جعلهم يقابلون التحية بأحسن منها ويدعون له بدوام العز والإقبال .. ولم يخطر على بال أحد أن هذه الابتسامات ليست إلا سرايا خادعا يخفى وراءه المصير الدامى والنهاية المفجعة للمماليك (1) ..

كانت العلاقات بين محمد علي والمماليك - منذ انفراده بالحكم - قد وصلت إلى طريق مسدود، وكان من الصعب على المماليك أن يقبلوا بالأمر الواقع، وهو أن محمد علي صار سيدا على مصر بلا منازع، وأن عليهم الأنزواء إلى الظل والعيش في سكون.. فالسكون ليس من طبيعتهم، ويعتسى لهم الموت الحقيقي، ولذلك أعلنوا عليه الحرب واستدرجوه إلى الصعيد حيث تتجمع قواتهم منذ أيام الحملة الفرنسية، واستمعانوا عليه بالانجليز وجاءت اليهم حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧ لتساعدهم على خلع محمد علي ولكن أهل رشيد قاموا بواجب الدفاع عن مدينتهم وطردوا الانجليز شر طردة، ولم يستسلم المماليك وأخذوا يدبرون المؤامرات لاغتيال محمد علي ففشلوا، وأيقن الثعلب الألباني أنه لا أمل له في البقاء على عرش مصر طالما بقي المماليك يذارعونه السلطان، ويدبرون له المؤامرات.. وهو من عجيبة فطرت على الاستبداد والطغيان وعدم قبول أى شريك له في الحكم، ووجد أن المواجهة المسلحة معهم سوف تستنزف قواه وتشغله عن هدفه الأكبر، وأن عليه أن يلجأ إلى سلاحه العتيق: سلاح الغدر والمكر والمكيده.. ومع أن المماليك كانوا أساتذة في فن الغدر، إلا أنهم - في هذا المجال - كانوا بالنسبة لمحمد علي مجرد تلاميذ (١١) .

خطوات محكمة وسرية تامة

● أعرب محمد علي عن رغبته في الصلح مع المماليك والسماح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا في سلام ووثام، وأكل المماليك الطعم،

وقبلوا العرض وأخذوا يتوافدون على القاهرة بعد أن ألقوا السلاح، وخلعوا رداء الحرب، وارتضوا العيش الرغيد والحياة الناعمة في أحضان حريمهم وجواريهم، وأصدر محمد علي إعلانا بالأمان العام والصفح عن الأمراء المماليك، وكل من يلوذ بهم، حتى كان ذلك اليوم الدامي الذي استدرجوا فيه إلى القلعة ولم يغادروها إلا جثثا مضرجة في دمانها (!!) ..

دبر محمد علي خطة اغتيال المماليك في سرية تامة، وخطرات محكمة، ولم يعلم بها إلا أربعة نفر من خلائه وأقرب المقربين إليه:

- حسن باشا: قائد الفرقة الألبانية ..

- الكتخدا محمد لاظوغلي: الممثل الشخصي لمحمد علي وصاحب التمثال الشهير في الميدان المسمى باسمه بحي المنيرة ..

- صالح قرش: قائد فرقة الأرناؤود التي عهد إليها بتصفية المماليك ..

- إبراهيم أغا: الحارس المسئول عن باب العزب والمكلف بإغلاقه في وجه المماليك .. ولو شئت الدقة فهو (سمسم) الذي تغلق البوابة بمجرد سماعه كلمة السر .. وكانت كلمة السر: رصاصة يطلقها صالح قرش في الهواء (!!) ..

روضعت ترتيبات المذبحة بحيث يتحرك المركب وفي طليعته فرقة الفرسان الدلاة، ثم وإلى الشرطة، ثم الأغا (محافظ القاهرة) ثم المحتسب ثم فرقة الوجافلية وهي إحدى فرق جيش الاحتلال العثماني،

ثم كوكبة من الجنود الأرنأورد يقودهم صالح قوش.. ثم جماعة الأمراء المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب.. ومن بعدهم بقية الجنود الأرنأورد فرسانا ومشاة..

اللحظة الحاسمة

● وعندما حانت اللحظة الحاسمة، دوى التفير إيذاناً ببدء الرحيل، فدفقت الطبول، وصدحت الموسيقى، ونهض محمد على فهب المماليك وقروفا وبادلوه عبارات الود والتحية واستأذنوه فأذن لهم، فامتطوا خيولهم وأخذوا مكانهم فى الموكب حسب الترتيب الموضوع، واتخذ الركاب طريقه منحدرًا فى الطريق الوعر الضيق المنحوت فى صخور القلعة ويفضى إلى باب العزب المطل على ميدان الرميّة حتى إذا اقتربت الصفوف الأولى من المماليك من باب العزب ارتج الباب وأغلق من الخارج إغلاقًا محكمًا، ولم يفتن المماليك إلى إغلاق الباب، وأخذت خيولهم تتزاحم بفعل الانحدار الطبيعى حتى وجدوا أنفسهم محصورين فى الخندق الضيق، وفى حركة سريعة كان الجنود الأرنأورد يتسلقون الصخور المطلّة على جانبي الخندق ويشهرون بنادقهم نحو المماليك، وفجأة.. دوت طلقة فى الهواء.. وبعدها أنهمر الرصاص على المماليك من فوقهم وعن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم.. وسدت منافذ النجاة أمامهم.. وصار من المحال عليهم أن يتحركوا وهم على ظهور الجياد فى هذا الزحام العصيب، وأزداد هياج الخيول مع صخب أصوات الرصاص، فأخذت تلقى بالمماليك إلى الأرض وتدوسهم بأقدامها وكأنها تقوم بدور مرسوم لها فى المذبحة.. وحاول بعض الأمراء

الزحف على ركبهم والدماء تتزف منهم حتى وصلوا إلى طوسون ممتطياً جواده . وأخذوا يستعطفونه ولكنه أصم أذنيه عن صرخاتهم . وأجهز عليهم الجند ذبحاً ، واستطاع سليمان بك البواب أن يزحف حتى وصل إلى سراى الحريم وأخذ يستغيث لائذا بالنساء ولكن الجند قطعوا رأسه غير عابئين بالتقاليد التي تعطي الأمان لمن يستغيث بالنساء .. وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض حتى بلغ عددها ٤٧٠ قتيلاً هم كل من صعد إلى القلعة في هذا اليوم الدامي ، ولم يفلت منهم سوى (أمين بك) الذى وصل إلى الموكب متأخراً فلما سمع أصوات الرصاص هرع إلى سور القلعة ، ولكز جواده بضربة عنيفة فهوى به من هذا الارتفاع الشاهق ، وقبل أن يلمس الحصان الأرض ، قفز أمين من فوق ظهر الحصان فلجا من الموت وظل يركض فى الصحراء - عبر سيناء - حتى بلغ أرض لبنان ، وعاش لاجئاً فى كنف أميرها بشير الشهابى ، ويقال أنه عاد إلى مصر بصحبة الأمير الشهابى وعفا عنه محمد على وأعاد إليه زوجته وأولاده .. وقد صاغ قصته جورجي زيدان فى رواية شيقة اسمها (المملوك الشارد) وقدمتها الإذاعة فى مسلسل عام ١٩٥٤ لا يزال عالماً بذاكرة الجمهور .

وفى الوقت الذى جرت فيه مذبحه القلعة ، كان الجنود الأرنؤورد ينقضون على قصور المماليك فى القاهرة ، يذبحون الأمراء ويستبيحون نساءهم وينهبون أموالهم ، وكان الألبان كالوحوش الكاسرة التى تتلمظ شوقاً إلى السلب والنهب والاعتصاب .. ورغم أن أهل القاهرة سارعوا بإغلاق محلاتهم ولجأوا إلى بيوتهم هرباً من فظائع الأرنؤورد ، إلا أن الوحوش لم تفرق بين بيوت المماليك وبيوت المصريين ، فأستباحوا كل

ما تصل إليه أيديهم، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد علي إلى شوارع المدينة وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة النعيسة، وبذلك انطوت صفحة المماليك من تاريخ مصر (١١) ..

حكم التاريخ على المذبحة

ما هو حكم التاريخ على مذبحة القلعة؟ وهل تجاوز محمد علي حدود العقل والحكمة والإنسانية حين قضى على المماليك بهذه الطريقة البشعة، إن المؤرخ عبدالرحمن الرافعي بعد أن شرح تفاصيل المذبحة بكل دقة قال: نحن لا نريد أن ندافع عن المماليك، وقد سجلنا المساوئ التي ارتكبوها، والمضار التي جلبوها على البلاد، ولكن .. مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تباها الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال، لكان ذلك خيراً له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر، وأن هذه المؤامرة هي صورة مكبرة لمذبحة أخرى دبرها الباب العالي للفتك بالمماليك سنة ١٨٠٤ بنفس الطريقة، فإن تكرار السيئات لا يبررها .. والجملة - يقول الرافعي - فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ محمد علي ..

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم أنه اضطر إليها دفاعاً عن نفسه، وأن المماليك كانوا يكيدون له حين ذهب إلى السويس لتفقد السفن المعدة لنقل الحملة الوهابية، ولكنه غادر السويس ليلاً وعاد إلى القاهرة قبل إنفاذ المؤامرة، وأنه كان لا يأمن المماليك بعد سفر الحملة وخلو البلاد من القوة العسكرية، فكان عليه أن يقطع دابرهم قبل أن

يتكالبوا عليه، ولكن الرافعى يرفض هذه التبريرات التى تفتقر إلى السند، ويرى أن مذبحة القلعة لم تكن بسبب أحداث آنية، ولكنها ثمرة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على مشروع الحملة الوهابية ..

ولم تلق المذبحة تأييداً حتى من اصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمة، ومنهم صديقة الفرنسي مسيو «مانجان» الذى يقول: إننى أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك، على أننى أعده من بعض النواحي خيراً لمصر، فإن بقاءهم يقضى إلى حرب هى أضر على البلاد من الإيقاع بهم كما أن إرادة الباب العالى كانت تؤدى إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التى ضربها محمد على تنفيذاً لأوامر الباب العالى السرية، قد قضت على نظام المماليك وكانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجياً، ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضى أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطاً بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطراً إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب، فكان عليه أن يفكر فى إضعاف خصومه الذين يزدادون قوة ونفوذاً، فقد بلغه كل ما قيل أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس، ولما علم أن السياح الإفرنج يلومونه على اغتيال المماليك واعدونه عملاً منافياً للإنسانية، صرح بأنه يبغي أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك بجانب المذبحة التى ارتكبها نابليون ضد الدوق، «دانجان» حيث اتهمه ظالماً بالتآمر عليه وأمر بقتله فى محاكمة صورية ..

ويقول مسيو جومار، الذى اختاره محمد على مشرفاً على البعثات المصرية فى باريس: لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر، لما صار محمد على هدفاً لأحكام التاريخ القاسية..

المظالم المماليك

ورداً على قدرة المماليك على إقصاء محمد على يقول الرافعى إن البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم، وتقلعت أظافرهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم؟ وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا إخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش؟ وما نظن مطلقاً أن ثمة خطراً كان يتهدد محمد على من هذه الناحية، وما نظنه كان فى حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر..

وحول آثار المذبحة على الروح المعنوية للشعب المصرى. يقول الرافعى: إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة، كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسى، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس، واستولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً - إلى زمن طويل - أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهى قوام الأخلاق

والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وصلت الرهبة مكانها، كان ذلك نذيراً بانحلال الحياة القومية وفسادها، فالرهبة التي استولت على النفوس بعد مذبح القلعة كان لها أثرها في إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية، وتلك خسارة كبرى، فإنما الأمم أخلاق وفضائل، أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولادة الأمور ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية، وتعددت مظاهر هذه الروح بما حدث من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم، فنحسب أن مذبح القلعة قد قصت على هذه الروح وأحلت مكانها روح الرهبة من الحكام، الأمر الذي جعل محمد على أكثر أطمئناناً على انفراده بالحكم، فلم يظهر من الشعب طوال السبع وثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد..

ويستخدم الراجعي تحليله لآثار مذبح القلعة بهذه العبارة القوية: «مع الاعتراف بما أسداه محمد على من الخير للبلاد، فإنه لم يعوض الشعب ما فقد من تلك الناحية الخلقية: ناحية الشجاعة الأدبية، والروح الديمقراطية، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية..»

دور أتباع سان سيمون فى مشروع محمد على

حين شرع محمد على فى تأسيس مصر الحديثة حرص على أن تكون بمنأى عن أطماع الدول الأوروبية حتى يحفظ عليها استقلالها الوطنى ولذا كف يده عن الاقتراض من البنوك الأجنبية رغم حاجته إلى المال لتنفيذ مشروعه الكبير كما اعرض عن مشروع حفر قناة السويس حتى لا تتحول إلى «بوسفور» آخر يضع مصر تحت رحمة الدول البحرية كما حدث للدولة العثمانية وأدرك بفطنته أن مصر هدف لأطماع الرأسمالية الأوروبية المتحفرة للسيطرة والاستعمار وكانت أحداث الحملة الفرنسية لا تزال تتردد فى أنحاء مصر وبعثت انجلترا حملة «فريزر» لاحتلال مصر بعد عامين فقط من جلوسه على عرش مصر ولكن هذه الاحتياطات الوقائية لم تمنع محمد على من أن يمد ذراعه إلى أوروبا الثقافية يستمد منها الخبرة فأوفد البعث إلى العواصم الأوروبية واستقدام الخبراء والفنيين من كل صنف ليساعده على بناء مشروعه الحضارى وصار هؤلاء يتسابقون على الرحيل إلى مصر بعد أن تحولت إلى ورشة عمل هائلة.

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تموج فى حالة من الفوضى العقلية والخلقية والشعور بخيبة الأمل أمام فشل الثورة الفرنسية فى تحقيق شعارات العدالة والحرية التى نادى بها فلاسفة الثورة ولكنها تحولت على أيدي الطغمة الإرهابية إلى مصدر للتعاسة والشقاء وفى خضم هذا الحشد الفكرى برزت فلسفة «سان سيمون» الذى بدأ حياته باحثاً فى علوم الاجتماع وانتهى إلى كونه أحد فلاسفة هذه العلوم حتى اعتبره بعض الباحثين المنشئ الحقيقي لعلم الاجتماع الحديث .. وكفى لتقويم مكانته أن العالم المرموق «أوجست كانت» كان سكرتيراً له ومشاركاً له فى أبحاثه العلمية . ونشأ «سان سيمون» منذ طفولته متعمداً على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائراً على الظلم الاجتماعى الذى تغشى بعد سقوط الثورة فى أحابيل الدكتاتورية فعكف على دراسة العلوم البحتة كالرياضة والهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء وتوقف مبهوراً أمام إنجازات العلامة الانجليزى «نيوتن» فاتخذ منه نبياً لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلى نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلى قيام مجتمع جديد تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة، والصناعة عنده لا تعنى الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعنى العمل المنتج فى كافة صورة فالعمل اليدوى صناعة والعمل الإدارى والتنفيذى صناعة والعمل التجارى والزراعى صناعة سواء بسواء، ومالك الأراضى أو العقار وصاحب رأس المال يعد صانعاً إذا قام بإدارة أعماله ودعا إلى استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى وطلب من الشاعر «روجيه دى ليل» مؤلف نشيد «المارسيلىز» أن يؤلف «لحن الصناع» ليتغنى به العمال

أثناء العمل ورأى أنه من الضروري إعداد جيل من العلماء الذين سوف يتولون مقاليد الأمور في المجتمع وأخذ يشجع الشباب المثقف لارتداد بيته فتكونت منهم الجماعة الأولى لرواد الحركة الفكرية في القرن التاسع عشر. وبعضهم حمل لواء «السان سيمونية» إلى مصر.. وظل «سان سيمون» مبتعدا عن الانغماس في السياسة العامة وكانت ثقته كبيرة في مقدرة وكفاءة «نابليون بونابرت» وكان يتوقع منه إنهاء الفوضى التي خلفتها الثورة ولكنه انقلب على بونابرت بعد أن كشف عن وجهه الدكتاتوري وانحرف عن مبادئ الحرية وصار من ألد خصومه وتعرض «سان سيمون» إلى مطاردة أجهزة الأمن حتى فقد مصادر الرزق وهبط إلى حافة الجوع وغلب عليه اليأس فأطلق على رأسه رصاصة قاصدا الانتحار ولكن الرصاصة انحرفت وذهبت بعيدة اليسرى وعاد «سان سيمون» إلى أبحاثه ودراساته الفلسفية طوال السنوات الخمس الأخيرة من حياته وانتهى إلى البحث عن وسيلة للنهوض بالإنسانية إلى اسمى درجات الكمال عن طريق وحدة المعرفة الإنسانية وقيام حكومة موحدة لإدارة شئون الإنسانية تسند إلى هيئة من العلماء والفنانين المنتجين الذين يؤجرون عن طريق الاقتتاب العالمي ويطلق عليها اسم «مجلس نيوتن» وفي زعمه «أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة شئون البرية».. واستغرق في تأملاته وشطحاته حتى خيل إليه أن الله يحدثه ويوصي إليه بفكرة الديانة الجديدة فيقول له: أن مجلس نيوتن سوف يمثلني على الأرض فيقسم الإنسانية إلى أربعة أقسام يطلق عليها إنجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وسيكون لكل قسم من هذه الأقسام أربعة مجلس يتكون على

غرار المجلس الرئيسى وسوف يرتبط كل فرد فى العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الأقسام وبالمجلس الرئيسى وبمجلس القسم الذى يتبعه ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة هى البذرة الأولى لإنشاء منظمة دولية تمثلت بعد ذلك فى عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وهىئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .

ومن فكرة الحكومة العالمية انطلق «سان سيمون» إلى المجتمع العالمى المثالى الذى يقوم على التعاون والأخاء والاستقرار بدلا من السيطرة والتسلط وإن ترتبط قارات العالم عن طريق القنوات المائية ومنها قناة السويس وإذا كان «سان سيمون» لم يشهد تحقيق هذا الحام إلا أن أتباعه جعلوا من مشروع قناة السويس الهدف الاسمى لتشاطيعهم وشدوا الرحال إلى مصر لتنفيذ الفكرة التى اعتنقوها عن إيمان يثير الدهشة وكان الأب «بارتلمى بروسبر انفانتان» أكبر هؤلاء المريدين وهو الذى قاد الحركة الفكرية «السان سيمونية» بعد وفاة مؤسسها عام ١٨٢٥ وتعرض لمحن قاسية نتيجة إخلاصه وتحمسه فى تنفيذ مبادئ استاذة أو رسول الإنسانية . كما كان يسميه . وسيطرت على عقله فكرة الذهاب إلى مصر باعتبارها أرض المستقبل مثلما كانت مهد الحضارة فى الزمان الغابر. وخلال الفترة التى قضها «انفانتان» فى سجن «سان بلاجى» فى باريس تولدت فى ذهنه فكرة الرحيل إلى مصر وكان يستيقظ من نومه هاتفاً: الشرق .. تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض .. الشرق الغامض غموض الصحراء .. الشرق معناه مصر .. مصر الساحرة أرض فرعون وموسى .. أرض النيل .. وما أدراك ما هى مصر

وفى اليوم الذى غادر فيه «انفانتان» السجن كتب مخاطباً مصر:
غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسى فى خدمتك والتف حولك خلق
كثير من الذين آمنوا بأفكار «سان سيمون» الذين يتميزون بارتداء
السراويل البيضاء والقمصان الأحمر ويطوفون الشوارع لدعوة زملائهم
للسفر إلى مصر ليضعوا قلوبهم وخبرتهم تحت إمرة حاكمها محمد على
مدفوعين بحافز إنسانى هو وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر
ويجعلون من هذا الاتصال وسيلة للتقارب الثقافى والأخلاقي
والاقتصادي بين الشعوب وتحويل مصر من بلد زراعى إلى بلد يعتمد
على الصناعة ومنتجاتها لتحقيق فكرتهم عن التصنيع واستغلال
الإنسان للطبيعة بدلاً من استغلاله لأخيه الإنسان كما كانوا يحملون فى
عقولهم أفكاراً اجتماعية تسعى إلى تغيير نظرة الشرق المحافظ إلى
المرأة بآتاحة الفرصة أمام الفتاة للتعليم والتثقيف وإقامة دعائم التربية
الاجتماعية التى تعمل على توافر العدالة والمساواة إلى أبعد حد .

معاونة محمد على

وصلت الدفعة الأولى من أتباع سان سيمون إلى الإسكندرية فى
شهر سبتمبر ١٨٣٣ وعلى رأسها الأب «انفانتان» على ظهر سفينة
ترفع على ساريتها علم مدرسة «سان سيمون» وتضم عدداً من الخبراء
والمختصين فى كافة العلوم ولدى وصول السفينة إلى ميناء
الإسكندرية أعلن «انفانتان» نعم اننى جئت إلى مصر لأقوم بتوصيل
البحريين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر - محمد على -
الدكتاتورى فى إلغاء الملكية الوراثية فى الأرض الزراعية .. ونأمل أن

يتم هذه الاتجاه عن طريق الاستغلال المثمر لموارد البلاد عن طريق كشف المناجم وإنشاء مدرسة للهندسة وإقامة زراعات جديدة وتحسين وسائل الري والصرف في مصر وعلى الفور أسند «انفانتان» إلى المهندس «فورنل» بإعداد مشروع حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر. ثم رحل إلى القاهرة حيث حل ضيفاً على صديقه القديم الكولونيل «سيف» الذي صار سليمان باشا الفرنساوي وبدأ في البحث عن وسيلة لمقابلة محمد علي باشا عن طريق «فردنان ديلسبس» نائب قنصل فرنسا العام في مصر. وتمت المقابلة وفي أثناء عرض مشروع القناة لم يحز القبول من محمد علي الذي كان مشغولاً في تلك الأيام بفكرة إقامة القناطر الخيرية على النيل.. ولأن مشروع القناة يتطلب الحصول على قروض من البنوك الأجنبية وهو المبدأ الذي كان يأباه محمد علي بشدة.. ولكن تحت الحاح «انفانتان» و «فورنل» طلب محمد علي عرض المشروع على المجلس الأعلى - وهو بمثابة الوزارة - ولكن المجلس رفض المشروع وفضل المضي في إقامة القناطر الخيرية وظهر كان أحلام اتباع «سان سيمون» قد تبدت ولكنهم لم ييأسوا واستمروا في البقاء في مصر لتنفيذ أفكارهم الإصلاحية في مجال الزراعة والصناعة والحرف والمجال الاجتماعي.

وهنا تبدأ حلقة مجهولة في تاريخ المشروع الحضاري الذي تبناه محمد علي وأعلى به الدور الذي قام به اتباع «سان سيمون» خلال إقامتهم في مصر ووجدوا فيها تربة صالحة لنبث أفكارهم الإصلاحية ولم تحظ هذه الصفحة بعناية المؤرخين الذين أرخوا لمحمد علي

والمؤثرات الأوربية فى حركة النهضة التى قادها ولم أجد فيما كتبه «الرافعى» عن عصر محمد على أية إشارة إلى أتباع «سان سيمون» رغم أنه أشار إلى أسماء بعضهم عرضاً عند حديثه عن المدارس الحربية والمشروعات الهندسية التى ساهموا فى إقامتها دون أن يذكر انتماءاتهم الفكرية الى أن عثرت على كتاب عالم الاجتماع المصرى الدكتور محمد طلعت عيسى الذى يحمل عنوان «أتباع سان سيمون» وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر» وهو فى الأصل رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ واستخلص فيها السمات الجوهرية لفلسفة سان سيمون الاجتماعية وأسباب الفشل فى تطبيق مذهبهم فى فرنسا والدوافع التى جعلت أتباعه ينطلقون نحو مصر لتنفيذ احلامهم المثالية وفى مقدمتها حفر قناة السويس.

ولقد تضمنت رسالة الدكتور طلعت عيسى معلومات فى غاية الاهمية استغناها من الوثائق السرية التى ظلت مطوية فى ارشيف وزارة الحربية الفرنسية زهاء قرن وربع القرن وهى وثائق تلقى الضوء على حلقة مفقودة فى تاريخ المدرسة سان سيمونية والدور الذى قاموا به لتطبيق فلسفتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما انه يكشف النقاب عن أصل المشروع الذى تقدم به «ديلسيس» إلى محمد على أولاً ثم إلى سعيد باشا ثانياً لحفر قناة السويس وعلاقة هذا المشروع بالتقرير الذى أعده أتباع سان سيمون أثناء إقامتهم فى مصر وبالمقارنة بين المعلومات التى ذكرها الرافعى والمعلومات التى توصل اليها طلعت عيسى يتبين أن ديلسيس حصل على نص المشروع الأول ولكنه نسبه

إلى نفسه وتكرر لأصحابه الاصليين في عملية من عمليات النصب
التي اشتهر بها «ديلسيس».

مراحل مشروع شق القناة

في سرده للمراحل التي مرت بها فكرة شق القناة يقول الرافعي أن
بونابرت فكر في وصل البحرين وعهد بدراسة المشروع إلى مسيو
الويبر، كبير المهندسين فقضى عامين في دراسة المشروع وفحصه
وعاونه بعض مهندسي الحملة الفرنسية وقدم تقريره إلى بونابرت بعد
مغادرته مصر في ٣٠٠ صفحة واعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن
البحر الأبيض بنحو تسعة أمطار وبعد مرور نحو ثلاثين عاماً على هذا
التقرير يذكر الرافعي أن ديلسيس جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٣١
في منصب نائب القنصل الفرنسي ووجد العطف من ناحية محمد علي
نظراً لما كان بينه وبين والد ديلسيس من مودة قديمة حين كان قنصلاً
في مصر عام ١٨٠٣ وفجأة يقفز الرافعي، على الأحداث فيقول أن
تقرير الويبر، وقع في يد ديلسيس في الاسكندرية فاكب على دراسته
دراسة عميقة ولم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع وصل
البحرين بقناة بحرية ثم انتقل بحكم منصبه إلى بلاد أخرى ولكنه لم
ينس المشروع وفي سنة ١٨٤٦ تألقت لجنة فنية من بعض المهندسين
من مختلف الأمم لدراسة المشروع وجاء أعضاؤها إلى مصر في أواخر
عصر محمد علي واستمروا إلى عهد عباس الأول وعاونتهم الحكومة
في اجراء تلك الابحاث وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار
المهندسين مثل مسيو ليتان، باشا (وهو فرنسي) فضلاً عن ثلاثة من

المصريين وانتهت اللجنة إلى أن فرق المستوى بين البحرين ليس خطيرا واقتُرحت شق ترعة بين البحرين تجتاز الدلتا ولكن محمد علي كان منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوربيين فكان يردهم بلطف ويمنعهم ولكنه كان يضمن رفض المشروع حتى الباحث في رواية الرافعي، يكشف العديد من الثغرات:

أولاً: كيف وقع تقرير لوبيير، الذي سلمه إلى بونابرت في باريس في يد ديلسبس في الاسكندرية بعد ثلاثين عاماً من رحيل الحملة الفرنسية؟

ثانياً: من هم المهندسون الدوايون الذين تشكلت منهم لجنة فنية عام ١٨٤٦ - أى في عهد محمد علي - ومن الذي كلفهم بهذه الدراسة وما هو دور ديلسبس في هذه اللجنة؟

ثالثاً: ما هي الصفقة التي ساهم بها «لينان» باشا في إعدادات المشروع وهل كان ديلسبس على صلة بهذه اللجنة رغم ابتعاده عن مصر؟

كل هذه الثغرات تشكل علامات استفهام كبيرة حول مشروع حفر قناة السويس والدور الذي قام به أتباع سان سيمون في إعداد المشروع قبل أن «يلهفه» منهم ديلسبس ويتقدم به إلى صديقه الوالي سعيد باشا والدراسة التي قام بها الدكتور طلعت عيسى تكشف هذه الحلقة المفقودة عن رسالة أتباع سان سيمون في مصر، لقد رفض محمد علي المشروع الذي عرضوه عليه فكانت صدمة شديدة الرقع عليهم وانهارت آمال

فورنل فى تحقيق فكرة الانسانية العالمية التى كان ينشدها من وراء رحلته إلى مصر فصمم على الرحيل إلى بلاده وظل انفانتان فى مصر يصارع من أجل مشروعه وكتب إلى زميليه «هوار» و«يريتو» بحثهما على الإسراع بالحضور إلى مصر وأن لا يأخذا من عودة فورنل دليلاً على فشل مهمتهم وطلب منهما أن يصحبا معهما نفراً من المهندسين والعمال المهرة والإخصائيين فى الأعمال المائية وكتب إلى زملائه «هولستين» و«أوليغيه» و«أوروبان» الذين استقروا فى مدينة السويس ينبئهم بقرار رحيل «فورنل» ويطمئنهم على وحدة صفوفهم وبذل «انفانتان» الكثير من الجهد والصبر فى سبيل تحقيق وحدة الصف وتشجيع الأتباع على مواصلة العمل من أجل إقامة مشروع القناطر الخيرية وأخذ يضيف على المشروع كل مظاهر الجمال والتضحية وعمل جاهداً على إقناع الأتباع بأنه السبيل الوحيد إلى تحقيق فلسفتهم الاجتماعية بعد أن تبخر مشروع حفر القناة ويقول أنه لأية أمة يمكنها أن تنشئ اليوم عملاً سلمياً يمثل هذه العظمة ولنعرف أن قيام هذه القناطر هو تثبيت لدعائم العلم ونصر أكيد للاتجاه الصناعى وإذا كان هذا العمل يتصف بطابع الانانية القومية إلا أنه يجب أن نغبط لنجاحنا فيه فبعد فيضان النيل سوف يكون تحت أمرتى جيش قوامه أربعون ألف رجل ويلاحظ الدكتور طلعت عيسى أن «انفانتان» كان يبذل كثيراً فى تقديراته فهو لم يكن المدير الفعلى لمشروع القناطر ولكن «لينان» باشا الذى كان ضابطاً سابقاً فى البحرية الفرنسية هو الذى يتولى تنفيذ المشروع. والجدير بالذكر أن «لينان» هذا يتصدر قائمة أتباع سان سيمون الذين جاءوا إلى مصر وعددهم خمسة وخمسون رجلاً.

وفي أثناء ذلك عاد «بارو» إلى مصر ولحق برفاقه في العمل في مشروع القناطر وأتجه كل فرد من الاتباع إلى العمل الذي يناسب استعداداته فانهماك «آلريك» في تحت تمثال لمحمد علي وآخر لابنه إبراهيم الذي اختار «آلريك» فيما بعد ليكون مدرسا للرسم في مدرسة الجيزة والتحق «أوريان» و«جرانال» بمدرسة الفنون الجميلة التي انشئت في مصر لأول مرة وصار «فيرينو» قائدا في حرس محمد علي باشا و«لامبير» مديرا لمدرسة المدفعية بطرة و«ليدان» كبيرا لمهندسي مصلحة الطرق والكباري أما «أوريان» فقد اعتنق الاسلام وتسمى باسم إسماعيل وعمل مدرسا للمهندسة في مدرسة بولاق العسكرية وتولى «برون» إدارة مدرسة الطب كما لحق بالأتباع فريق من النساء ومنهن «سوزان فولكان» التي سجلت ذكرياتها في مصر تحت عنوان (يوميات سيدة سان سيمونية في مصر) ويعتبر كتابها مرجعا حقيقيا للنشاط اتباع سان سيمون.

بهذا بعثت الحياة من جديد في الجماعة بعد التفكك والإخفاق واهتموا بمشروعات حضارية منها إنشاء مدرسة للمهندسين بالقناطر ومدرسة للبيادة في دمياط ومدرسة للفرسان بالجيزة رغم معارضة محمد علي في أول الأمر وإقامة مزرعة نموذجية في شبرا ومدرسة البنات بالجيزة ولكن مع تعثر مشروع القناطر لأسباب فنية دب اليأس من جديد في أفراد المدرسة سان سيمونية وزاد في تعقيد الأمور انتشار رياء الطاعون في الاسكندرية وتصاعدت متاعب رئيس الفريق «انفانتان» بسبب احتجاج أسرته على تركه لهم فكتب يقول لصديق:

انهم لم يفهموا على الاطلاق لقد أعمتهم آلامهم الذاتية عن الام
الانسانية عامة . انهم لم يفهموا أن الله قد أرسلني لانقاذ البشرية كما
فعل من قبل عيسى ومحمد وسائر الانبياء وفي وسط هذه الدوامة نزل
نبأ جديد كان له وقع الصاعقة على انفانتان ورفاقه هو تأجيل تنفيذ
مشروع القناطر الخيرية فكان الصدمة الثانية بعد رفض مشروع قناة
السويس وكتب لامبير . لقد ماتت الأسرة وتساقط الرجل والتحقيق فوق
رأس الاب «انفانتان» وتخلي عنه الكثير من الاتباع . وعاد معظم الاتباع
إلى فرنسا بينما ظل نفر منهم يواصلون رسالة المدرسة في مصر فضلوا
الحرمان المادي والمعنوي على العودة إلى وطنهم خافضى الرؤوس
وصمموا على حمل الرسالة التى جاءوا من أجلها مهما كانت
التضحيات .

مشروع عالمى للقناة

وفى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ عاد «انفانتان» إلى باريس وقد تملكه
شعور عميق بالألم لعدم تمكن المدرسة السان سيمونية من تحقيق
اهدافها السياسية والدينية ومع ذلك ظلت فكرة الانسانية العالمية تملك
عليه شغاف قلبه ولم يفقد ايمانه بضرورة شق قناة السويس وتلقى من
فشله الأول درساً فى ضرورة تعديل وسائله لتحقيق هدفه وتبين له
خطأ أن يعمل الاتباع منفردين ولا بد لهم من الاستعانة بقوى عالمية
وممولين ودبلوماسيين وفى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ تكونت جمعية مهمتها
دراسة مشروع قناة السويس وهددت الجمعية خبراء من الالمان
والانجليز والنمساويين وكان يمثل فرنسا فى هذه الجمعية «انفانتان»

وجعل من بيته مقراً للجمعية على أن تنعقد في يوم الاثنين الأول من كل شهر.

وفي الاجتماع الأول للجمعية خطب انفانتان فقال: أننا نشعر بأهمية إعدادنا لهذا المشروع الذي يعتبر أكبر عمل صناعي قامت به الإنسانية ومن واجبنا أن ننفذه بعيداً عن أى صراع قومي بالمعاونة القلبية لثلاثة شعوب كبيرة كانت السياسة تفرق دائماً بين أهدافها. يجب أن نسجل أمام العالم حبنا للسلام ورغبتنا في تحقيق همزة الوصل بين طرفي العالم القديم: الشرق والغرب وكتب «انفانتان» إلى زميله «تالابو» في مصر لكي يرسل إليه خطة عملية للمشروع يمكن على أساسها تحويل الجمعية الخاصة إلى مشروع سياسي يوضع موضع التنفيذ. ودخل المشروع مرحلته الحاسمة عندما التقى «انفانتان» بدبلوماسي فرنسي شاب تعرف عليه في مصر هو: فرديناند ديلسبس، الذي بذل من معونته الرسمية والشخصية ما يسر لاتباع سان سيمون مهمتهم في مصر وخاصة الاتصال بمحمد علي

يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وجد انفانتان في ديلسبس الوسيلة العملية لتحقيق آمانيته لما بينه وبين سعيد باشا من صداقة وطيدة فقام انفانتان بتسليم ديلسبس في صيف ١٨٤٥ كافة المستندات الضرورية اللازمة لاقتناعه بأهمية المشروع وفي إحدى مذكرات انفانتان المحفوظة بمخطوطات مكتبة الترسانة ببغداد نجد هذه العبارة بخط الأب «انفانتان»:

«لقد تسلم السيد ديلسيس من السادة «أرليه وإنفانتان كافة المعلومات والمستندات التي يملكانها عن هذه المسألة فقد جاء إلى ليون ليتفق معهم قبل رحيله وأعطى خطاباً للتعارف بالسيد «تالابو» الذي قام بزيارته أيضاً في مارسيليا قبل إبحاره» .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٥ كتب «ديلسيس» من مصر إلى «تالابو» قائلاً: كل ما يمكن عمله هنا يسير في طريقه المطلوب مهمتكم هي أن تهيئوا الرأي العام في إنجلترا وفي نفس الوقت كتب إلى «أرليه» يبدو لي أنك سوف تصبح الرئيس الطبيعي للمجلس التنظيمي المنتظر لشركتنا .

وتعبر تسع سنوات يموت خلالها محمد علي ووريثه عباس الأول ويتصدر أريكة مصر سعيد باشا وينجح ديلسيس بأساليبه الشيطانية في أن ينتزع من والي مصر في ٥ نوفمبر ١٨٥٤ فرماناً يخوله شق قناة «السويس» فكيف حدث هذا التحول المفاجئ وكيف صار المشروع لقمة سائغة في فم «ديلسيس» الذي تنصل نهائياً من رفاق الأوس الذين أعدوا المشروع؟

في ذلك يقول الدكتور محمد طلعت عيسى وإن كان التاريخ يطوى ركنا هاماً من أركان هذه المرحلة معتمداً على تأكيد أن «ديلسيس» بعدم اتصاله بأتباع سان سيمون وبأن المشروع إنما جاء من وحي المصادفة عند زيارته مع سعيد باشا لمنطقة صحراء السويس وقبول سعيد فوراً للمشروع فإن المستندات والرسائل المتبادلة بين «ديلسيس» وأتباع سان سيمون ومذكرات «إنفانتان» الشخصية تؤكد وجود هذا الارتباط لتبين من مذكرات الأب إنفانتان أن (جمعية دراسة مشروع

السويس) رحبت ترحيباً كبيراً بدجاح دنسيس وعقدت الجمعية اجتماعاً عاجلاً لاعداد مشروع تحويلها إلى (شركة عالمية) ووقع الاختيار على «ديلسيس» ليكون مديراً عاماً للشركة وكتب إليه لأخذ موافقته ولكن حدث التحول الفجائي في مسلك الدبلوماسي الشاب وتكرر لاتباع سان سيمون وبلغ به التحدى انه رفض اشراك أى أحد من اتباع سان سيمون في العقد التأسيسي للمشروع وحاول الاتباع عبثاً أن يلجأوا إلى الباب العالى فى القسطنطينية لأن «ديلسيس» كان يعتمد على سند أقوى منهم وهو بلاط الامبراطور نابليون الثالث.

عزاء وسلوان

وفى ختام حياته كتب الأب «أفانتان» ينمى جهاده طوال عشر سنوات من أجل شق قناة السويس ويقول: فى عام ١٨٣٣ مات اثنا عشر من أبنائى بالطاعون فى بطن الحجر ورفاتهم التى غطتهم القناطر التى كانوا يقومون بأنشائها حملتها مياه النيل نحو هذا البحر الذى نريد أن نستخدمه كوسيلة لربط الانسانية العظيمة عبر القارات لقد كنت أمل أن أن تكون قناة السويس عملاً من أعمال مدرسة سان سيمون وأن يتوج باسمنا واحسب ان كل اتباعنا الأحياء سوف يجدون فيه العزاء الوحيد للتضحيات التى بذلوها فى سبيل ايمانهم برسالتهم كما يعز على أن يتحول دورنا إلى مجرد متفرجين..

ويختتم الدكتور طلعت عيسى بحثه القيم بهذه العبارات المؤثرة: مهما كانت النتائج السياسية لشق قناة السويس ومهما حاول ديلسيس أن

يستقل ببطولة هذا العمل فإن إغفال أتباع سان سيمون في المشاركة في تنفيذ هذا المشروع أفقده ركناً أساسياً من الأركان الاجتماعية للفلسفة السان سيمونية وهو، إن الأخلاق يجب أن تقوم على العمل، وإن الإنسان يجب ألا يستغل أخاه الإنسان بل يجب أن تتوحد الجهود لاستغلال الطبيعة نفسها لصالح الإنسان لقد جاء مشروع ديلبسب صورة سوداء في تاريخ الإنسانية وتاريخ فرنسا بصفة خاصة فإن أعمال السخرة والتعذيب التي لازمت شق القناة بعرق ودماء آلاف المصريين لا تتفق بحال مع فكرة الإنسانية العالمية ولا مع مبادئ سان سيمون ولا يمكننا أن نعتبر أتباع سان سيمون مسئولين عن التطور المفاجئ الذي لحق بمشروعهم أو عن التيارات السياسية الاستعمارية التي احاطت به وجعلت منه مسرحاً للكسب الاستعماري واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان دون أي اعتبار لفكرة الإنسانية العالمية التي جاهد أتباع سان سيمون حوالى ربع قرن من الزمان في سبيل تحقيقها ومن العدل أن نشير إلى الدور الذى لعبه «انفانتان» والأفكار النبيلة التي أوحى إليه به ووجهة نظره السامية وفوق كل ذلك تلك الروح التي أظهرها بعد أن أغفل تماماً هو وأبناء المدرسة السان سيمونية من أي إشارة إلى جهودهم في المشروع.

تأسيس الجيش المصرى

فقدت مصر قوتها الحربية منذ سقوطها امام جحافل الفرس بقيادة قمبيز.، قبل خمسة قرون وربع قرن من ميلاد المسيح،

ومنذ تلك الهجمة البربرية انحل الجيش المصرى الوطنى وانتقلت مسئولية الدفاع عن البلاد إلى المرتزقة الاجانب، وفى بعض الفترات كان يسمح للمصريين بخدمة الجيش دون أن تتاح لهم فرصة الترقى الى صفوف الضباط، وحرص حكام مصر الذين اعتلوا عرشها كابرًا عن كابر، على ابعاد المصريين عن الجيش حتى لا تثبت لهم اظافر يستخلصون بها بلادهم من أيدي الأعراب هكذا كان حال مصر تحت حكم اليونان والبطالمة والقيصرية الرومان، والولاة العرب وخلفاء الفاطمية وسلاطين الايوبية والمملوكية والعثمانية .

إذا كان من الحقائق التى لا تنكر إن هذه الدول حققت لمصر مكانًا مرموقًا ومركزًا استراتيجيًا ونفوذًا وسيادة على المنطقة العربية، فإن الجانب الآخر من الحقيقة يشهد بأن هذه المكانة لم تتحقق على أيدي الجند المصريين. وإنما على أيدي المرتزقة والمماليك الذين يباعون

اطفالا فى سوق الرقيق. ويتنافس المملوك على شرايتهم وتدريبهم عسكريا وإلحاقهم بالجيش، وعلى اكتاف هؤلاء ارتفعت الراية المصرية فى معارك حطين والمنصورة وعين جالوت. أما المصريون فكانوا بمعزل عن هذه المعامع، لأن الحكام لم يفكروا فى تجديدهم، أو بالأحرى خافوا من تجديدهم، وتوالت العصور والمصريون فى غيبة عن الحياة العسكرية والمعارك القتالية، مما أدى إلى تدهور الروح المعنوية لديهم، وانتشار السلبية واللامبالاة وتعميق الإحساس بالغربة، وفقدان الحس القومى، وضعف الشعور بالانتماء إلى وطن يتعين عليهم الدفاع عنه، والتضحية فى سبيله بالمهج والأرواح، ذلك أن جيش الوطن هو الرحم الذى يتولد فيه الإحساس بالانتماء والمدرسة التى يتدرب فيها الشعب على النظام والانضباط، وتلمو فى النفوس مبادئ التضحية والفداء من أجل الاستقلال والحرية.

ظل هكذا حال مصر والمصريين إلى أن لمع فى سماءها نجم محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر. وكان محمد على طرازاً فريداً من الحكام الذين تنطوى قلوبهم على نزعة تقدمية عميقة، وكانت لديه رغبة لصوح فى جعل مصر دولة عصرية حديثة تضارع الدول الأوروبية فى قوتها ونهضتها ومكانتها وإدراك أن نهضة مصر لن تتحقق إلا بتأسيس جيش نظامى مدرب على أحدث فنون القتال، وكان من الطبعى أن يتجه بمصر محمد على - أول ما يتجه - إلى اتباعه ومماليكه رغم علمه بفساد أخلاقهم، إنما أراد الرجل إبراء ذمته عملاً بحكمة الأقربون أولى بالمعروف ولكن هؤلاء الأقربين كانوا من الدناءة والخسة بحيث يصعب إصلاحهم أو تطويعهم لتقبل مقتضيات الحداثة.

همجية :

كانت الشراذم العسكرية الموجودة إلى جانب محمد علي من أخطر العناصر الهمجية التي لم ن تعود النظام أو الطاعة، وكان كل همها الشغب والتسابق على النهب والسلب والسطو على الأموال والأعراض وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكانت قدراتهم العقلية والنفسية أضيق من أن تستوعب فنون القتال الحديث التي فوجئ بها المصريون أثناء حملة بوناپرت وكان أقصى ما يتقنه الارتناووط والألبان والترك والدلاة. الكر والفر على صهوات الجياد؛ واستخدام السيوف والسهام والحراپ. وهي أدوات عفا عليها الزمن ولم تعد صالحة للوقوف في أوجه الأسلحة الحديثة التي تستخدمها الجيوش الأوروبية، ومع ذلك فقد حاول محمد علي في ١٨١٥ أن يخوض المغامرة بكل احتمالاتها، فجمع فرقة من جنوده العائدين من حرب الوهابيين. وأعد لهم معسكرا في بولاق، وصارحهم بعزمه على إدخال النظام الجديد في صفوفهم. وقبل أن يعود إلى قصره في شبرا هددهم بعقوبة كل من يحاول التمرد، وما أن أدار عزيز مصر ظهره حتى حشد الجنود جموعهم وهاجوا وماجوا.. وأعلنوا رفضهم الیات لأوامر العزيز بل مضوا إلى ما هو أبعد.. وقرروا خلع محمد علي (١١) وماذا في ذلك من غرابة ألم يخلعوا من قبل الباشوات الاتراك الذين بعث بهم السلطان لإقرار النظام في مصر بعد رحيل الفرنسيين؟ وهل محمد علي أقوى من خسرو و طاهر و خورشيد و قبطان؟ ونسى هؤلاء الأراذل أنهم أمام ثعلب يستعمل كل الحيل لإحباط خطط خصومه، وقبل أن ينفذ اجتماعهم كان أحد رؤسائهم. عابدين بك. يتسأل إلى قصر شبرا ليطلع العزيز على نوايا جنوده المشاغبين الذين

اعتزموا الانقضاء عليه فى قصره بالازيكية، وفى لمح البصر كان محمد على قد انتقل إلى القلعة فوصلها عند منتصف الليل، وبعث بقواته الخاصة إلى الأزيكية فلما جاءها المتمردون جوبهوا ببواب من الرصاص، وانطلقت قلوبهم إلى ميدان الرميطة - أسفل القلعة - وانقضوا على الاسواق نهبا وسلبا، ونجح محمد على فى إخماد الفتنة، وخرج منها بدرس كان ينبغى عليه أن يستوعبه من البداية، وهو استحالة الاعتماد على هؤلاء الهمج فى تأسيس الجيش النظامى الذى يحلم به، وبدأت افكاره تتجه إلى البحث عن عناصر أخرى، ولكن كان عليه قبل معاودة المغامرة إخلاء القاهرة من العناصر الهمجية، وهذاه تفكيره إلى تشتيتهم وتوزيعهم على معسكرات اقامها فى رشيد ودمياط وبعض مدن الوجه البحرى، وزيادة فى تطمينهم بعث معهم ببعض أبنائه حتى يستل من نفوسهم لزعة الشك.

رأى محمد على أن عملية إنشاء جيش عصرى حديث لابد أن تتم فى سرية تامة، وفى كتمان شديد، بعيدا عن أعين الأتراك والشركس والأرناؤوط الذين يقفون له بالمرصاد، ويدبرون له الدسائس والمؤمرات، وحيثا لو كان المكان بعيدا عن صخب القاهرة وضجيجها، وهى مركز الثورات والتعمرد فى كافة العهود، ورأى أن «أسوان» هى أنسب مكان لتنفيذ مشروعه الكبير، وأمر ببناء الكتكات والمدارس التى تصلح للتدريب، وبعث إليها بألف جندى من خاصة مماليكية ومماليك أعوانه ليكونوا النواة الأولى لضباط الجيش المصرى المدرب على النظام الحديث، وبقي البحث عن الخبير الذى سيقوم بهذه المهمة التاريخية، وألقت إليه الاقدار بالرجل المطلوب، والذى يزدان به تاريخ العسكرية

المصرية باعتباره الرجل الذي أخلص في تنفيذ رسالته أشد الإخلاص، وهو الضابط الفرنسي الكولونيل (سيف) الذي اعتنق الإسلام، وأصبح اسمه سليمان باشا الفرنساوى.

تجنيد المصريين:

لقد نجحت فكرة محمد على خلال ثلاث سنوات، وظهرت إلى الوجود أول كتيبة من الضباط الذين تدربوا على فنون القتال الحديث على يد الخبير سليمان باشا الفرنساوى، وبقي التفكير فى جسم الجيش .. أى الجنود .. وخاضف محمد على من تكرار فكرة تجنيد الأتراك والأرناؤوط، فاتجه تفكيره إلى السودان، وطلب من ابنه إسماعيل - فاتح السودان - أن يبحث إليه بعشرين ألفاً من أبناء كردفان وسنار، وأقام لهم معسكرات خاصة فى قرية «بنى عدى» فى الصعيد على أن يتولى تدريبهم الضباط الذين تخرجوا من مدرسة أسوان، ولكن التجربة فشلت بسبب اختلاف المناخ مما أدى إلى تفشى الموت بين الجنود السودانيين، عللئذ اتخذ محمد على قراره الجرى بتجنيد الفلاحين المصريين، وأقدم على الخطوة التى أبى أن يقدم عليها حكام مصر على مدى ٢٣ قرناً. وهى السماح للمصريين بممارسة المهن العسكرية، وتحمل عبء الدفاع عن وطنهم، وإذا كنا - نحن المصريون - نحمد لمحمد على هذه الخطوة التى كان لها ما لها فى ترسيخ الحس القومى، إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد على قسوته فى تجنيد الفلاحين المصريين، وانتهاجه طرقاً غير إنسانية فى جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم فى الحبال وسوقهم كالدواب إلى معسكرات التجنيد. يقول

المؤرخ العسكرى محمد فيصل عبد المنعم فى كتابه (مصر تحت السلاح) إن المتتبع للطريقة التى اتبعها محمد على لتجديد المصريين، يلاحظ بجلاء مدى احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين - وامتهانه لأدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذى اختاره وانتخبه لحكمه، فلقد كانت الأساليب المتبعة لجمع المجندين منفردة إلى أبعد الحدود، الأمر الذى جعل المصريين يكرهون الجندية وهو الشعب الذى طالما عرف عنه الميل إلى النظام والطاعة وحب الوطن.

وهو ينقل عن د. محمد محمود السروجى ما جاء فى كتابه (الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر) عن الطريقة البربرية فى جمع المجندين، فكان محمد على يكلف مدير كل مديرية بجمع العدد المطلوب، وهذا بدوره يوزع العدد على القرى الكائنة فى اختصاصه، فيقوم العمدة والمشايخ - بمعاونة الجنود - بالانقضاض على القرى فجأة، فلا يلبث أهلها أن يروا أبناء تلك القرى وقد سيقوا - وهم مصفدون بالاغلال كالمجرمين تماما - إلى عاصمة المديرية، دون تمييز بين العجائز أو الأصحاء أو المرضى أو ذوى العاهات أو الصبية، وكانت تلك الجموع اليايسة تجمع وتوضع فى أيديهم الاغلال يتبعهم أقاربهم من النساء والأطفال إلى مكان الفرز، وهكذا لم يكن التجديد يسير على نظام معين أو ترتيب للاسماء، بل إن القوة الغاشمة التى هى أشد عمى من الحظوظ والمصادفات هى وحدها التى تلقى بالجنود فى أحضان الجيش وهى فى وضع من أشد ما عرف عسفا ووحشية، وفى بعض الأحيان كانوا يقبضون على المارة أو الزوار لإدخالهم فى زمرة المجندين إلى غير ذلك من أعمال الغش والاحتياىل والرشوة والانتقام من الخصوم.

ولكن المؤرخ عبدالرحمن الرافعي لجأ إلى تبرير الأعمال التعسفية التي استخدمها محمد علي في تجديد الفلاحين المصريين، ويعزو لها إلى المصاعب التي واجهت محمد علي أثناء تجديد الأهالي لأنهم لم يألفوا الخدمة العسكرية منذ آمال بعيدة - وهذا نقص كبير في أخلاق الشعب الحربية فإنه ما من أمة تلزع إلى الاستقلال وتقدر الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضاً حتماً على ابنائها، فلما شرع محمد علي في تجديد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم ينظموا في صفوف الجندية إلا مكرهين فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسراً إلى المعسكرات .

تلك هي أبعاد الصفحة العكسرية في تاريخ مصر الحديث، فيها الجانب المضيء المشرق الذي يتمثل في تأسيس أول جيش مصري نظامي ومشاركة المصريين في الأعمال الحربية وقد أثبتوا جدارتهم القتالية في كافة المعارك التي خاضوها وفيها الجانب المعتم الذي يتمثل في طريقه التجديد التي اتبعها محمد علي، والأساليب الوحشية التي سلكها والمعاناة التي عاناها أجدادنا وهم يساقون إلى معسكرات الاعتقال .. ولعل ما حدث لا يزال صدها يتردد في التراث الشعبي الذي يئن بالتوجع والفجعة ويتغنى بالحنين إلى الوطن في الملحمة البكائية: يا عزيز عيني أنا بدي أروح بادي .. والسلطة اخذت وادي (١١) ..

رجل من عصر محمد علي سليمان باشا الفرنساوى دينامو الجيش المصرى

إذا كان فضل التفكير فى تأسيس جيش مصرى حديث يعود إلى ساكن الجنان محمد علي باشا، فإن فضل التنفيذ يرجع إلى هذا الضابط الفرنسى الذى جمع بين عمق الخبرة، وسمو الخلق، وروح العلم، ودخل مصر واسمه الكولونيل «سيف» قعاش بين ربوعها، وشرب من رضائها، واندمج فى نسيجها الاجتماعى فأسلم، وتزوج وكون أسرة كان من سلالتها الملكة نازلى زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق: واستطاع بعزمته وصبره وحلمه أن يقوم خير قيام بالمهمة الجليلة التى عهد إليه بها عزيز مصر، مهمة بناء اللبانات الأولى لجيش مصر الحديث.

وأثمرت جهود محمد علي وولده البطل إبراهيم وساعدهما الأيمن سليمان باشا الفرنساوى، وصار لمصر جيش وطنى على أحدث الأساليب العصرية. وما هى إلا بضعة سنين حتى كان هذا الجيش يثبت جدارته وتفوقه فى الشام والمورة وتركيا.. وظل سليمان باشا يقود جنوده فى معارك الشرف والبطولة حتى طواه ثرى مصر، ودفن فى ضريحه بمصر القديمة، وكان له تمثال فى الميدان المعروف باسمه فى قلب القاهرة منذ عهد الخديوى إسماعيل ثم شأوت إرادة حكومة مصر

ذات الصيغة العسكرية ، أن ترد له الجميل على طريقتهما، فأطاحت بالتمثال وألقت به في غرفة الكراكيب التابعة لمصلحة الآثار (11) .

ولد «سيف» في ١٧ مايو ١٧٨٨ م على ظهر سفينة والده أحد رجال الملاحة وأصحاب السفن في مدينة «ليون» ولما ترعرع دخل في مهنة الملاحة بإحدى السفن الحربية في طولون . وهو في الثانية عشرة من عمره ، وتقلب في مختلف الأسلحة فكان هذا من أسباب تفوقه ، وعمق تجاربه ، ورسوخ قدمه في صناعة الحرب ، وساعده على ذلك قوة بنيانه الجسماني ، وسمو أخلاقه ، وظهر نبوغه في معركة «الطرف الأغر» وأصيب فيها بجرح كان علامة الشرف الأولى له ، وكان من أبرز صفاته الشهامة وعزة النفس والإباء ، فلما اعتدى عليه رئيسه بالضرب قابل الإهانة بمثلها فحوكم أمام مجلس عسكري وحكم عليه بالإعدام ، ولكن العناية أدركته بفضل مساعي الكونت «دي سيجورا» فاكتمل بطرده من الجندية البحرية .

وفي سنة ١٨٠٧ م التحق بخدمة الجيش الفرنسي الذي احتل إيطاليا وارتقى بجده واجتهاده من رتبة «نفر» إلى سلك الضباط برتبة ملازم ثان ، ووصلت إلى مسامع نابليون شجاعته العسكرية إلى جانب حدته وخطرسه ، فدعاه ليقلده وساماً وفي نفس الوقت أراد تعديفه ، فلما مثل بين يديه بإدبه نابليون بقوله : هل أنت «سيف» الذي طالما حدثوني عن شراسته ؟ فأجابه بكل اعتداد : إذا لم يكن موجب لدعوتي إلا لأسمع هذا الكلام من جلالكم ، فإني أعود إلى غرفتي ! ثم أعطى ظهره للإمبراطور ، وامتنع جواده ورجع إلى مكانه من صفوف الجيش ، ولكن هذا الحادث أعقبه ترقيته إلى رتبة ملازم بسلاح الفرسان . ثم وقع

أسيرا في أيدي القمسا . فلما خرج من الأسر انضم إلى جيش نابليون مرة أخرى ، واشترك في الهجوم على روسيا ، وناله من متاعبها الهائلة نصيب كبير ، فرقى بعدها إلى رتبة كولونيل ، ولما أفل نجم نابليون بعد سنة ١٨١٥ م خرج «سيف» من الجندية واشتغل بالتجارة ولكنه لم يحقق فيها نجاحاً ، وأدرك أنه لا يستطيع الحياة بعيداً عن حياة الجندية ، وفي ذلك الوقت سمع أن عزيز مصر (محمد علي) يعتزم تأسيس جيش مصرى على النسق الحديث ، فشد الرحال إلى مصر معزراً بتوصية من صديقه الكونت «دى سيجور» الذى سبق أن أنقذه من حكم الإعدام .

وجد محمد علي فى الضابط الفرنسى العنصر المتشود لتنفيذ الفكرة التى كانت تختمر فى ذهنه - وهى تأسيس جيش مصرى حديث - ولم يبح لها لأحد حتى الكولونيل سيف نفسه ، وإنما طلب منه السفر إلى السودان للبحث عن مناجم الفحم وامتثل سيف للأمر ، ولكنه أخفق فى مهمته . فلما عاد إلى مصر كاشفه العزيز بما فى نفسه فأصابته من نفس سيف قبولا ، وكانت تلك لحظة تاريخية التقت فيها عزيمة محمد على مع خبرة سيف العسكرية . واتفق الاثنان على أن تكتم الخطة فى سرية تامة ويعيدا عن أسماع العناصر الهمجية التى تقاوم بكل عنف أية محاولة للخروج على التقاليد العسكرية السائدة ، وإنشاء جيش عصرى يستوعب الأساليب الحديثة التى انتهجتها الدول الأوروبية .

حجرة الزاوية :

لم تكن فكرة تأسيس الجيش وليدة اللحظة ولكنها كانت تراود محمد على منذ تولى حكم مصر فى عام ١٨٠٥ م كان يرى أن الجيش هو

حجر الزاوية فى مشروعه الكبير بالنهوض بمصر من أكتاف القرون الخالية، وجعلها دولة مرهوبة الجانب قادرة على صد الأطماع الأوروبية، وتدعيم استقلالها عن السلطنة العثمانية، لقد سمع . وهو لم يزل فى مسقط رأسه قوله . عن الهزيمة الفادحة التى منى بها المماليك المصريون أمام جحافل نابليون، وأدرك بحسه وذكائه القطرى أن هذه الهزيمة لم تكن إلا بسبب تفوق العسكرية الفرنسية تدريباً وتنظيماً وتسليحاً بينما كانت الشرائث المملوكية فى غيبوبة عن التطورات العسكرية الأوروبية، وظلت حبيسة القيم والعادات والنظم التى تجاوزها العصر فحققت عليها الهزيمة، فلما طوحت به الرياح إلى مصر جندياً فى الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين، رأى بأمر عينيه انكسار الجيوش التركية بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا فى واقعة أبو قير البرية أمام جيش نابليون . وحين دفعت به الإرادة الشعبية إلى حكم مصر، وضع نصب عينيه أن يقفز بها إلى مشارف العصر الحديث، ويختصر مسافة التخلف ليلحق بالأمم المتقدمة، ثم أدرك بسليقته أن الدول العظمى . ومعها تركيا . لن تسمح لمصر بأن تتبوأ مكانتها المشدودة إلا إذا أصبح لها جيش قوى يحمى مركزها الدولى، ويمد نفوذها خارج حدودها، ويصون استقلالها من الغارات الأجنبية، ويحكم معرفته بطبيعة العناصر الهمجية التى بين يديه أدرك أنها لن تنصاع طواعية للمقتضيات العسكرية الحديثة . وهو ما حدث بالفعل .

الباشبوزق :

كان الجيش المصرى فى مطلع حكم محمد على يتكون من أخلاط من الترك والدلاة والألبان والأرناؤوط والدروز التى تعودت على

الفوضى والتحلل من الطاعة والنظام . فإذا تأخرت رواتبهم انقضوا كالوغل الضارية على الأسواق يذهبون ويسلبون كل ما يقع تحت أيديهم ، فيسارع التجار بغلق دكاكينهم والهرب إلى بيوتهم يتحصنون بها إلى أن ينجلي الموقف وتزول السحابة السوداء التي تصيب الناس في أعراضهم وأموالهم . وكان هؤلاء الهمج يطلق عليهم اسم (باشبوزق) أي الجنود غير النظامين . فلما علموا بعزم الباشا محمد على تكوين جيش يخضع للضبط والربط ، شقوا عصا الطاعة ، وأعلنوا العصيان والتمرد عليه ، بل دبروا مؤامرة لاغتياله .

حدث ذلك سنة ١٨١٥ بعد أن حاول محمد على لأول مرة تنفيذ مشروعه بعد عودته من حرب الوهابيين ، ولكن المحاولة فشلت وكانت تؤدي بمركزه مما اضطره إلى العدول عنها ، وإرجائها إلى وقت آخر .

وفي عام ١٨٢٠ - أي بعد خمس سنوات من التدبير الهادئ الحكيم - عاد محمد على إلى تنفيذ مشروعه ، وقد نجح في تشتيت الجنود الهمج وإخراجهم من القاهرة ، وتوزيعهم على الثغور مثل رشيد ودمياط وبعض البلاد الواقعة على قرعى النيل ، ولكي ينزع من نفوسهم أي شك في نواياه ، بعث معهم بعض أولاده : طوسون باشا وإسماعيل باشا للإقامة معهم في معسكراتهم الجديدة . وفي تلك الأثناء دفع إليه القدر بهذا الضابط الفرنسي (كولونيل سيف) ليضعأ معا فواة تأسيس أول جيش مصري على نسق حديث وكانت الخطوة الأولى إنشاء مدرسة لتخريج أول دفعة من الضابط لتتحمل بعد ذلك مسئولية تدريب الجنود . واختار محمد على مدينة (أسوان) لتكون مقراً لهذه المدرسة . وكان اختياره لهذه المدينة النائية بقصد أن تكون بمنأى عن أماكن

اللهو التي تشغل الشباب عن رسالتهم ويقصد أن تجرى التجربة في سرية وبعبدا عن شماعة الأعداء إذا أخفقت.

واختار عزيز مصر خمسمائة مملوك من خاصة ممالكه ليكونوا نواة المدرسة الجديدة، وشجع عدداً من أعوانه على أن يبعثوا عدداً ممالكهم. فاكتمل عددهم ألف مملوك بنى لهم أربع ثكنات كبيرة لتكون مأوى لهم، ومدرسة يتلقون فيها مبادئ العسكرية الجديدة، وعهد بهذه المهمة الجليلة إلى (سيف) ولم يكن الطريق أمامه مفروشا بالورود. إذ لم يكن من السهل تعليم أولئك الشباب علم الحرب الحديث وتعريضهم الخضوع للنظام. فضلاً عن شراستهم ونفورهم من الانقياد لضابط غير مسلم.

عراقيل :

يعرض كلوت بك في كتابه (نظرة عامة حول مصر) العراقيل التي صادفت الكولونيل «سيف» طوال السنوات الثلاث التي مكثها في أسوان؛ فمن هذه العراقيل شموخ هؤلاء المسلمين شموخاً يجعلهم لا يستطيعون الخضوع للنصارى إلا بشق الأنفس ومنها أن هذه الفئة المغرمة بالجلبة والضوضاء في أثناء تلهيها بالألعاب الرياضية لم يكن يروق لها ضبط النفس والجوارح عند الأتيان بالحركات العسكرية الدقيقة ولا في مكنتها أن تلازم الصمت الإجباري التام أثناء المناورات فانتقد في قلوبهم الحقد وحملهم الجهل والاستكبار على تدبير عدة مؤامرات لاغتيال حياة المسير «سيف» وقد حدث أنه بينما كان يمرنهم على ضرب النار مرت رصاصة على مقربة من أذنه سمع حفيفها وكانت هذه الرصاصة مصوبة إليه. فلم يعبأ بذلك وبقي في مكانه كأن لم يحدث له شيء

وأمرهم أن يطلقوا النار مرة أخرى . وفي ذات يوم وجد ناز الثورة محيطة به فجأة ولما رأوا منه عدم الميلاة صارحوه بقصدهم وأظهروا له أنهم يريدون التنكيل به، فما كان منه حيال ذلك إلا أن طلب منهم مبارزته بالسيف واحدا تلو الآخر وقال لهم إنى إنما أريد بذلك أن أمحو عنكم عار القتل عن طريق الخيانة فلم يلبثوا إزاء هذه الشجاعة النادرة أن تابوا إلى رشدهم وكسروا من حدتهم وأعجبوا به إعجابا حملهم فيما بعد على الإخلاص له وحبه من أعماق قلوبهم، فأنقلبوا أولياء له بعد أن كانوا أعداء واستخدم هو هذه المحبة المقرونة بالاحترام فجعلها وسيلة لحملهم على التنافس في إدراك أوفر نصيب من الفنون الحربية في مدى ثلاث السنوات . ولما تكونت هذه الدواة الأولى للجيش النظامي بتخريج هؤلاء الضباط ظهرت الحاجة إلى جمع الجنود ولم يكن محمد على يريد جمعهم من الأتراك والأرناؤوط لأنهم أظهروا من قبل عداوتهم الشديدة لهذا النظام العسكري الحديث وثارت ثائرتهم عليه ورفضوا منده لراء العصيان .

وكذلك لم يكن في استطاعته أن يخاطر بجمعهم من بين صفوف الشعب المصري فلم تبق له وسيلة سوى تجنيد السودانيين فجند من أهالي كردفان وسنار ثلاثين ألفا وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من منفوط الواقعة على الضفة اليسرى للنيل بالوجه القبلى وفي الوقت الذى وصلوا فيه نزل ضباط المماليك الجدد من أسوان وذهبوا إلى بنى عدى لتدريب هؤلاء الجنود وتعليمهم وتولى الرئاسة عليهم .

وما جاء شهر يناير من سنة ١٨٢٣ م . حتى تألفت الست الآليات الأولى وعليها أولئك الضباط النظاميون من المماليك وانقضت سنة

١٨٢٣ م وانقضى من سنة ١٨٢٤ م إلى شهر يناير في إتمام تعليمهم وتدريبهم. وفي هذا الوقت أرسل محمد علي باشا أحد هذه الآليات إلى شبه جزيرة العرب والثاني إلى سنار والأربعة الأخر أرسلت إلى مورة تحت قيادة إبراهيم باشا ومع هذا فلم تكال هذه الجهود بالنجاح بل باءت بالفشل إذا أنشب الموت أظفاره في هؤلاء السودانيين وأهلكهم ألوفاً ألوفاً فظهر من ذلك أن أجسامهم لا يلائمها غير مناخ بلادهم وأنهم فوق ذلك لا يحتملون مشاق الخدمة العسكرية.

وكان محمد علي يزداد شعوراً كلما مرت الأيام بضرورة إيجاد جيش منظم فجال بخاطره ثانياً أن يجمع جنوده من بين المصريين وهذه فكرة فيها ما فيها من الجرأة والأقدام والاستهداف للمخاطر. فقد هاج المصريون في عدة نواح عندما طلبوا لهذه الخدمة وقامت الثورات في جهات متعددة إلا أنها قمعته. وتوصل محمد علي إلى تحقيق ما جال بخاطره وانتهى الأمر بالفلاح المصري أن يرضى بحالته الجديدة ويتعودها بعد أن رأى أنه يتناول غذاء جيداً ويرتدى كساء جميلاً في ظل العلم لم يكن له في سابق حياته.

في حومة المعارك:

لم يقتصر دور سليمان باشا الفرنسي على التعليم والتدريب وتخريج الدفعات الأولى من الضباط والجنود وإنما اشترك في إدارة المعارك الكبرى التي قام بها الجيش المصري وأرسله عزيز مصر محمد علي مع ابنه إبراهيم في حرب المورة فأظهر في هذه الحرب بسالة وإخلاصاً جعلانه أرفع مكان في نفس إبراهيم باشا.

وفي الصفحات التي كتبها عمر باشا طومسون عن الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي، معلومات هامة عن سليمان باشا الفرنسي، منها أنه بعد انقضاء حرب المورة، عاد ومعه فتاة يونانية اختارها من السبايا اليونانيات اللاتي وقعن في قبضة الجيش المصري ثم اقترن بها ورزق منها بأولاده وهم اسكندر بك الذي لم يعمر طويلاً. وبناتان اقترن بإحدهما شريف بك الذي أصبح فيما بعد المشير. وشريف باشا الفرنسي ورزق منها بذريته الذين كان من بينهم حرم عبد الرحيم باشا صبري والد ملكة مصر نازلي فؤاد واقترنت الأخرى بمراد حلمي بك الذي أصبح فيما بعد مراد حلمي باشا أحد الوزراء المصريين ورئيس المحكمة المختلطة.

ولما عاد سليمان باشا إلى مصر من حرب المورة تفرغ لإعادة تنظيم الجيش المصري من صميم المصريين ووثق به محمد علي وإبراهيم باشا فأمداه بمعاونتهما وركنا إليه في هذه المهمة العظيمة حتى تمكن من جعل مصر ذات جيش قوى مدرب على أحدث الأساليب العصرية فكافأه محمد علي - على ذلك برتبة اللواء. ثم جاءت الحوادث التي أفضت إلى حرب الشام سنة ١٨٣١ م. فجردت مصر عليها الجيوش البرية والبحرية وأسندت القيادة العليا فيها إلى إبراهيم باشا فكان سليمان باشا فيها قائداً للمدفعية وفتح الجيش المصري مدينة عكا الحصينة وأسر حاكمها عبدالله باشا الجزار وأرسله إلى الإسكندرية.

ثم توغل إبراهيم في داخلية البلاد السورية وافتتحها وتطورت هذه الحرب تطوراً عظيماً وكان النصر فيها معقوداً بلواء المصريين ومديت

الجيش العثمانية فيها بالهزيمة تلو الهزيمة حتى أصبح الجيش المصرى على أبواب الآستانة وكان لسليمان باشا فى هذا التصبر المبين الحظ الأوفر خصوصا بعد أن رقى إلى رئيس أركان حرب الجيش المصرى . ثم تدخلت الدول فى هذه الحرب وضربت أساطيلها سواحل الشام وأنزلت إنجليترا جنودها بها وتوجه جزء من الأسطول الإنجليزى إلى الأسكندرية وتهدد محمد على فأوقف الجيش المصرى عن الزحف إلى الآستانة وقضت السياسة الأوروبية بعد ذلك بانسحابه من سوريا بعد أن أقام فيها تسع سنوات وشبت الفتن والثورات حوله قبل انسحابه من هذه البلاد فأخمدتها ووضع سليمان خطة الانسحاب للجيش المصرى فعاد الثوار إلى مناوشته وهو منسحب، ومع ذلك فقد تمكن من الجلاء عن سوريا ودخل القاهرة دون أن يفقد مدفعا واحداً فكافأه محمد على .. على .. ذلك برتبة ميرميران أى (المشير) .

وظل بعد ذلك فى رئاسة أركان حرب الجيش المصرى متمتعاً بثقة محمد على ورعايته وثقة ولده سر عسكر الجيوش المصرية فارتفعت منزلته وعظمت ثروته .

وفى سنة ١٨٤٦ م . كان فى معية إبراهيم باشا فى زيارته لفرنسا فشاهد الحفارة العظيمة التى أعدها له (لويس فيليب) ملك فرنسا وحضر مناورات الجيش الفرنسى الكبرى وقابل عظماء القواد ورجال الحرب وأنعم عليه الملك بوسام جوقة الشرف ثم انتهز هذه الفرصة وزار مدينة ليون مسقط رأسه وزار فيها شقيقته وأقاربه وأصدقاءه الأقدمين ثم عاد إلى مصر وقدم إلى محمد على تقريراً ضمنه مشاهدته وما استجد فى نظام الجندية الفرنسية .

ولم يزل متمتعاً بثقة محمد علي وثقة ولده السر عسكر البطل
إبراهيم باشا حتى توفياً وتولى الأمر عباس الأول فعهد إليه سر عسكرية
الجيش وقيادته العامة وكان لديه كما كان لدى سلفيه ثم كان لدى سعيد
توليه الأريكة المصرية كذلك إلى أن توفى سليمان باشا في عهده في
١١ مارس سنة ١٨٦٠م.

إبراهيم باشا النبراوى بائع البطيخ الذى أصبح نابغة الطب المصرى

هذا نموذج للعبقريّة المصريّة التي كشفت عن نفسها عندما أتاحت لها فرصة العلم والتّرقى. إنه من جيل الرّواد الذين خرجوا من تراب مصر وانطلقوا الى مراكز العلم في أوروبا فيبلغ أعلى مراتب التّبرّغ. أنه إبراهيم باشا النبراوى الذي وصفه على باشا مبارك في الخطط التوفيقية بأنّه أنجب من اشتهر في الجراحة وأنّه ذر إقدام على ما لم يقدم عليه غيره، وأنّه يجرى العمليات الجراحية المنتجة للصحة ولم يسبقه في ذلك غيره، وذاع صيته وبلغت أخباره عزيز مصر محمد على فاختره طبيباً خاصاً له، واصطحبه في رحلته إلى أوروبا عام ١٩٤٨ وكثرت عليه الإغداقات وانتشر ذكره وطلّبه (الفاميليات) أي العائلات الكبيرة والأمرء، وبعد عودته من البعثة عين مدرّساً بمدرسة الطب المصريّة التي أنشأها العلامة الفرنسي كلوت بك، وترقى في المناصب العلميّة الى جانب اهتمامه بترجمة المؤلفات الطبيّة، فترجم لاسّاذه كلوت بك عن الفرنسيّة ثلاثة كتب، وبعد استقالة كلوت بك عين إبراهيم باشا النبراوى وكيلاً لكلية الطب بعد أن ثبتت جدارة المصريّين، وإحلالهم

محل الأجانب، وظلت مكانته ترتفع عند الأسرة العلوية فاختره الوالى عباس الأول طبيباً خاصاً له، ونال لديه الحظوة العظمى، ولما سافرت أم عباس الأول لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرّف على صحتها وصحة من معها من الحجيج، وظل إبراهيم باشا البراوى مقرباً على عرش الطب الى أن لاقى وجه ربه فى عام ١٨٦٢ .

ولهذا الرائد العظيم قصة أقرب إلى الخيال . فقد بدأ حياته فى قرية نبروه صيباً يعمل فى فلاحه الأرض إلى جانب أبويه الفقيرين، وكان كل حظهما من حطام الدنيا بضع قراريط من الأرض يشقيان فى زراعتها بالخصروات أو الفواكه، ثم يقوم الأب ببيع محصوله فى عاصمة المديرية (طنطا) عسى أن يعود بريح أوفر مما يحصل عليه فى القرية، وفى هذا المناخ المتزع بالشقاء والشغل والحرمان عاش الصبى «إبراهيم» كما يعيش ملايين الصبية من أقرانه فى ريف مصر. وعرف طريقه الى الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم لاح له أن يساعد أبويه فى كفاحهما، ويوفر على أبيه مشقة تسويق بضاعته فى المدينة، وجنح به طمرحه أن يقتحم العاصمة - فهى أكبر المدن وأعظمها - ومن ثم تصور أن يكون العائد متناسلاً تناسياً طردياً مع حجم المدن . ولا بد أن يكون أهل القاهرة أقدر من غيرهم على دفع أثمان تفوق ما يدفعه سكان المدن الصغرى فيعود إلى أهله ومعه المال الوفير الذى يخفف عنهم مشقة البؤس .

كان الأب قد زرع قراريطه بالبطيخ، فلما نضج، حمل إبراهيم محصوله على ظهر جمل أستأجره ومضى يشق مسالك الدلتا نحو

القاهرة، واتخذ طريقه الى حي الجمالية حيث الكثافة السكانية، فلما عرض بضاعته للبيع لم يجد الثمن الذي كان يبتغيه، ثم رأى أن يتمهل ولا يتسرع في البيع حتى تصل الأسعار الى المستوى المنشود.. ومضى يوم اثنان دون أن تتزحزح الأسعار إلى الأعلى.. وعندئذ وجد أن الوقت ليس في صالحه، وعوامل الطبيعة تعمل على إفساد البطيخ وبناره.. حتى إذا انتهى العرض والطلب وجد أن خسارته فادحة، وأنه قد خرج من المولد بدون حمص، كما يقول المثل، وعز عليه أن يعود إلى أبيه خالي الوفاض. بعد أن وعدهم بالخير العميم، فدفع بما تجمع لديه من مال قليل إلى صاحب الجمل الذي استأجره من نبروه، وطلب منه العودة إلى القرية ويبلغ والديه عن أسفه لعدم قدرته على الوفاء بما وعد، وأنه سيبقى في العاصمة ليشق طريقه عسى أن تعرضه الأيام عن الخسائر التي منى بها.

في رحاب الأزهر:

عند هذه المرحلة الجديدة من حياة إبراهيم النبراوي يذكر المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال أن إبراهيم ساقته قدماه إلى إحدى الحواري المجاورة للجامع الأزهر، وقد أنهكه التجوال بحثاً عن عمل، وبينما هو جالس راح ينظر إلى المارة من أهالي الحي، وهو يلعنهم ويلعن بلدهم في نفسه، وجذب انتباهه منظر غريب طريف، لقد نظر فرأى شيخاً كبيراً ذا لحية طويلة بيضاء بيده كتاب، وبيده الأخرى مصبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير في توده ووقار، والفتيان

يتبعونه في أدب جم واحترام بالغ، وتتبع إبراهيم هذا الموكب، واستعداد في ذهنه صورة شيخ القرية وكتابها وأقرانه من الصبية الصغار.

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه، ومال إبراهيم إلى جاره وسأله عن يكون الشيخ، وعما يكون المسجد، فذكر له أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه، وأن هؤلاء تلاميذه الذين يتلقون عنه العلم، فبهرتة الصورة، واستهواه وقار الشيخ، وزى الفدية وهم يرفلون في جيبهم وعمائهم، ولمعت الفكرة في خياله لمعان البرق فانتفض واقفاً، واتخذ سبيله إلى المسجد ودخل مع الداخلين وراعه كثرة حلقات الدرس، كل شيخ يجلس بجوار عمود ومن حوله التلاميذ به في شكل حلقة، وهم يستمعون إلى أستاذهم في اهتمام، وجلس إبراهيم إلى أقرب حلقة واستمع ثم استمع، ثم انتقل إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة.. ولم يكد ينتهي اليوم حتى قر عزمه أن يصبح أزهرياً يطلب العلم كما يطلبه مدات غيره من المنكبين على الكتب ينهلون من صفحاتها ما يعمق ثقافتهم، فعل ذلك وفي ذهنه أن يعود يوماً إلى قريته نبروه وقد صار عالماً مرموقاً فيصبح شيخاً للقرية ينحني الجميع لتقبل يده، ويسعون إلى رضائه، وتقبل عليه الدنيا فيعوض الخسائر والتي لحقت به من صفقة البطيخ

إلى مدرسة الطب:

ومضت الشهور وإبراهيم يكشف عن نبرغ فطري، واستعداد طيب لتلقى المزيد من العلوم، حتى لفت نظر شيوخه وأساتذته، وكان يلقي

من تشجيعهم ما يحفزهم على التعمق. إلى أن كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه، فهرول مجيباً، ولكنه لم يكذب قبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس، فيهم من يرتدى زي أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزي الشيوخ، وتقدم إبراهيم فقبل يد أستاذه، فتلقاء الشيخ بالترحيب، وتوجه بالحديث إلى الضيوف وهو يقدمه اليهم بعبارات كلها إطراء وثناء، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة هم أعضاء لجنة جاءت إلى الأزهر لتختار نخبة من نوابغ الطلبة ليكونوا نواة مدرسة الطب الذي يزمع محمد علي إنشائها، وعهد إلى كلوت بك بتأسيسها.

وهكذا انتقل إبراهيم النبراوي من طالب بالأزهر يتمنى أن يكون شيخاً صاحب كتاب في نبروه، إلى تلميذ في مدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوماً جديدة لم يسمع فيها من قبل مثل الكيمياء والطبيعة والتشريح ودراسة الأمراض والأدوية، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه فهو لا يعرف لغتهم، ولا يعرفون لغته - وكلهم قادمون من فرنسا لأعداد أول فرقة من الطلبة لدراسة الطب، ثم إفاد المتقدمين منهم إلى باريس لتلقي الدراسات العليا المتخصصة.

وكما نبغ إبراهيم النبراوي في حلقات الأزهر، نبغ كذلك في مدرسة الطب، وقضى سنوات الدراسة جميعاً بنجاح وتفوق. فكان ضمن أفراد أول بعثة ذهبت إلى فرنسا لإتمام علومهم، وكان اختياره بترشيح من ناظر المدرسة كلوت بك الذي توسم فيه النبوغ. وسافر

إبراهيم النبراوى إلى باريس عام ١٨٣٢ فوجد نفسه أمام عالم يختلف تماماً عن عالم نبروه وطنطا والقاهرة .. الرجال غير الرجال .. والنساء غير النساء .. والأخلاق والعادات وطرق التعليم تختلف عن المحيط الذى عاش فيه .

وفى عاصمة التور خفق قلب إبراهيم بحب فتاة فرنسية فتزوجها، ولم يشغله الزواج عن المهمة التى أوفد من أجلها، ولا بد أن تكون زوجته الفرنسية قد ساعدته على إتقان اللغة الفرنسية، وسرعة هضم العلوم التى كانت تلقى بالفرنسية . حتى إذا أتم دراسته عاد إلى وطنه عام ١٨٣٦ وبصحبه زوجته الفرنسية، فعين مدرسا بمدرسة الطب المصرية، فكان من أوائل المصريين الذين شغلوا مراكز التدريس، ونجح مدرسا وطبيباً مثلما نجح طالباً فى الأزهر . وأظهر مهارة فائقة حتى قصده الناس كل فج، وبلغت شهرته مسامع محمد على فقربه إليه وجعله طبيبة الخاص .

زوج مخلص :

وظل إبراهيم النبراوى وفياً لزوجته الفرنسية مخلصاً لها، ولم يتزوج غيرها الى أن أدركتها المنية فحزن عليها حزناً شديداً، وعندما أنعمت عليه (الوالدة باشا) أم الوالى عباس الأول بفتاة من حريمها اسمها إشراقة فتزوجها وكان قد رزق من زوجته الفرنسية ولدان، أحدهما يوسف باشا النبراوى، وقد تلقى علومه الأولى بمصر، ثم أرسل فى بعثه الى فرنسا سنة ١٨٥٥ ، فى عهد سعيد باشا للتخصص فى الفنون والعلوم

الحربية وعاد إلى مصر عام ١٨٦١ فعين ضابطاً في الجيش المصري، غير أنه لم يمكث به إلا قليلاً، ثم عاد إلى فرنسا فأقام بها طويلاً، وتزوج هناك من سيدة فرنسية، وكانت له جهود حميدة في إقناع المسؤولين الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيساً لواحدة منها.

أما الابن الثاني خليل فقد تلقى علومه بمصر، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية وبعد إتمام الدراسة بها أرسل في بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا، وعاد إلى الوطن في عهد الخديو إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية.

ومن نسل هذا الرجل العظيم رائدة الصحافة والنشاط النسائي السيدة «سيزا نيراوي» التي يذكرها تاريخ الأدب والصحافة المصرية في الأربعينات من القرن العشرين. وكانت سكرتيرة للاتحاد النسائي، وأصدرت العديد من المجلات التي كانت تدعو إلى حقوق المرأة.

هذه قصة فتى من قلب الريف المصري، كما رواها المؤرخ الدكتور جمال الشيبال، وقد تنقل القدر بهذا الرجل من بائع بطيخ فاشل إلى طالب بالأزهر، ثم انتقلت به عناية محمد علي إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لكلية الطب، وطبيباً خاصاً لحكام مصر، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب في وطنه وهو رتبة الباشوية. ولعل في هذه القصة ما يحفز شبابنا على الجد والجد والمثابرة وقوة العزم.

أما الجانب الانساني في شخصية إبراهيم باشا الدبراوى فقد أشار اليه العلامة على مبارك فقد وصفه بأنه كان إنساناً كريم الشيم رفيع الهممة، يغلب عليه الفرح والانبساط ، فكانت تراه دائماً مستصحباً للمغانى وآلات الطرب. ولم تمنعه العلوم الطبيه والعمليات الجراحية من أن يشبع هوايته وحبّه للفنون والطرب.

عباس الأول أسوأ حكام الأسرة العلوية

خذها منى نصيحة :

لاتصدر حكما عاما على حاكم تاريخي بأنه «طيب» أو «شرير» ..
فذلك تبسيط يأباه المنهج الموضوعي في تقويم المشاهير، ولا يعرف
التاريخ منذ نشأة المجتمعات الانسانية حاكما يمكن أن تصفه بأنه
ملاك .. كما لم يوجد حاكم يمكن أن تضعه في زمرة الشياطين .. وكل
حاكم مهما بلغ شططه لا يخلو من أعمال طيبة .. ومهما بلغ حاكم من
الصلاح والرشد فإن سجل أعماله لا يخلو من أخطاء .. لماذا؟ لأن الحاكم
هو في الأصل بشر .. ليس من هؤلاء ولا من أولئك .. ولو نسقت في
تاريخ الحكام العظام الذين اشتهروا بالعدل والصلاح فستعثر لهم على
هناك وأخطاء ..

● ● عندك - على سبيل المثال - السلطان العظيم صلاح الدين
الأيوبي ، الذي دمر الصليبيين في حطين . وطهر القدس من أرجاسهم ،
والذي وحد البلاد العربية في جبهة صلبة ضد الغزو الأوروبي ، ومع
ذلك عندما شعر بدنو أجله ، قام بتقسيم البلاد العربية التي وحدها ، إلى

كيانات صغيرة وجعل على رأس كل منها واحدا من أشقائه وأولاده ..
فكانت النتيجة أن تفسخت الوحدة العربية، وأشتعلت حرب الأشقاء
والأعمام بدلا من حرب الفرنجة، وكانت النهاية سقوط الدولة الأيوبية
فلم تعمر أكثر من ثمانين سنة، ووقعت لقمة طرية في أيدي المماليك
الذين جلبوهم من أسواق الرقيق فصاروا حكاما .. وأطاحوا بأسيادهم
الذين لم يرتفعوا إلى مستوى المحنة: محنة الصليبيين والمغول معا ..

وعلى سبيل المثال في الناحية الأخرى .. لو بحثت عن أسوأ حكام
الأسرة العلوية التي أسسها محمد على قلن تجد أسوأ من عباس الأول
الذي خلف جده طبقا لتسوية لندن ١٨٤١ التي جعلت الحكم في أكبر
أمراء الأسرة فكان عباس ابن طوسون ابن محمد على لأن سعيد - أكبر
أولاد محمد على بعد وفاة إبراهيم كان أصغر من عباس وشاء حظ
مصر العاثر أن يؤول حكمها إلى هذا الرجل غريب الأطوار والذي كانت
أبرز صفاته القسوة والغلظة والنفور من الناس وكراهية العلم والنور
والتحصن، والتأمر على أقرب الناس إليه حتى هرب معظم أفراد الأسرة
الحاكمة إلى استانبول فرارا بحياتهم بعد أن استولى عباس على
أراضيهم ومجوهراتهم. وكان الخلق، وسيلته إلى التخلص ممن يتوجس
منهم حتى كان الناس يختفون - فجأة - دون أن يعرف أحد مصائرهم (١١) .

في جوف الصحراء:

● ● ولأن هذا الحاكم الغريب كان يفضل الجهل والظلام والرعب،
فقد قام بتبديد الميراث الحضاري الذي تركه جده، فأغلق المدارس
والمصانع وحل الجيش، واستدعى البعثات التي كانت تتلقى العلم في

أوروبا، ودفعه نفوره من البشر إلى بناء مجموعة من القصور في جوف الصحراء يأوى إليها كما تؤوى الخفافيش وهو قصره في «الخرنث» ربات يتنقل بين هذه القصور تحيط به كوكبة من الغلمان.. فقد بنى قصرا هائلا في العباسية وكانت يومئذ صحراء جرداء - بلغت نوافذه ألفين، كما بنى قصرا في القطامية، وآخر في العطف عند ملتقى النيل مع ترعة المحمودية، ورابعا في بنها وهو القصر الذي قتل فيه.. واستخدم عباس في بناء هذه القصور.. السخرة وأرغم الفلاحين المصريين على العمل دون أجر.. حتى قال عنه أحد المكارية (طائفة مؤجري الحمير): «انه يكلف الفلاحين بأعمال شاقة في الصحاري ولا يدفع لهم من الأجر إلا القليل، ومعظمهم يموتون يوميا في قصور الباشا، وقد كان من واجب سموه أن ينفق هذه الأموال في تحسين أحوال مصر بدلا من بناء القصور في الصحراء ولو أنه ألغى السخرة لأغضينا الطرف عن سيئاته العديدة.. انه يأخذ أقوى شبابنا ليعملوا في مشروعاته ويهملوا الزراعة»..

وبينما كان عباس يقسو على الفلاحين ويرهقهم عسرا كان عطوفا على الأعراب البدو، ويتغاضى عن نشاطهم في السطو والنهب والتخريب، ويغدق عليهم الأموال، ويشجعهم على فرض الإتاوات على الفلاحين ويستخدمهم في إذلال المصريين وفي عهده انتشرت الجاسوسية بشكل مخيف، فصار الانسان لا يأمن على حياته من الخنق أو الالتقاء في النيل.. أما أبسط العسكرات فهي النفي إلى أقاصى السودان، كما فعل مع رفاعة الطهطاوى ومعاونيه..

وعمد عباس إلى إهمال الجيش الذى قامت عليه النهضة فى عصر محمد على، والذى كان مضرب المثل فى النظام والكفاية، وأدمج فيه شزيمة من الأرناؤود بلغ عددهم حوالى ستة آلاف مسلحين بالمسدسات، فتحولوا إلى عصابات لاغتصاب الناس والسطو على أموالهم وأعراضهم فى الوقت الذى جرد فيه المصريين من السلاح ومنعهم من حمله، وكأنما أراد أن يسهل لهؤلاء السفاحين فرصة الاعتداء على المواطنين (١١) .

والمؤرخون المعاصرون لهذا الأمير الغامض، يعزون كل ذلك إلى جهله وعدم حصوله على أى قسط من التعليم كما لم تتح له الظروف للسفر إلى أوروبا والأطلاع على الحياة الحضارية فيها..

ومع كل هذه السيئات فقد وجد عباس الأول من يذكر له بعض الحسنيات، منها قيامه بإصلاح وتمهيد الطريق البرى بين القاهرة والسويس، ومنها تنفيذ مشروع السكة الحديد بين الإسكندرية والقاهرة والسويس. ورغم أن هذين المشروعين يخدمان المصالح الانجليزية التى كان عباس يميل إليها، ورغم أن ذلك بمثابة (قناة السويس برية) بديلاً عن مشروع القناة البحرية التى كانت فرنسا تتبناها.. إلا أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى يضع ذلك فى ميزان حسنات عباس، إذ يرى أن مشروع السكة الحديد أنفع للبلاد وأبعد عن الضرر من مشروع القناة، لأن مصر - فى رأى الرافعى - لم تستفد شيئاً من فتح قناة السويس، بل كانت القناة - فى رأيه - شوما على مصر، أما السكة الحديد فقد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها، بخلاف القناة، وأنها من المشاريع الجلية

التي تذكر لعباس .. ويضيف الراقعي إلى مآثر عباس: استتباب الأمن .. وقضاءه على الأشقياء وقطاع الطرق ومطاردتهم بكل قسوة حتى انقطع دابرهم ..

كذلك وجد عباس الأول في شخص الوزير الداهية «نوبار باشا» مدافعا حصيفا .. ولاننسى أن نوبار كان بوقا للمصالح الانجليزية في مصر، ولعب الدور الأكبر في تحصيل ولاء عباس من فرنسا إلى إنجلترا .. فهو يصف عباس بالكرم برغم ما عرف عنه من شح، وينفي عنه تهمة القسوة والظلم ويقول أن المصريين لم يعانون في عهده من الضغوط المالية والاقتصادية مثلما كان الحال في عهد جده، ويرى أن «عباس» أغلق المصانع لمصلحة المستهلك المصري، لأن المنتجات الأوروبية أرخص وأحسن نوعية من المنتج المحلي، وفي رأى نوبار أن «عباس» كان تجسيدا للسيد العظيم أو الأمير الشرفي الحقيقي: فقد كان يعيش منعزلا متفردا ويصدر أوامره لتنفيذ بالسمع والطاعة العمياء، وينقل عن عباس قوله: إذا كان لي أن أحمي التجار فلست ملزما بتقليدهم ويرى في عصر عباس مرحلة من مراحل تطور مصر، ويفند وجهات نظر من هاجموه، وأنه كان موضعاً للتجني والأحكام الخاطلة ويمتدح تخفيضه لنفقات الدولة وشدة حرصه على مصالح البلاد، وإقرار الأمن بالشكل الذي لم تعرفه مصر من قبل.

وبرغم هذا الدفاع الحماسي إلا أن سنوات حكم عباس الأول التي بلغت خمس سنوات ونصفاً، كانت فترة جمود في مسيرة النهضة التي بدأها محمد علي، وكانت نهايته - مثل حياته - غامضة، فقد علم الناس

بدياً وفاته فجأة - ويدون مقدمات - يوم ١٤ يوليو ١٨٥٤ مما أثار الشكوك حول ظروف الوفاة، وقال القنصل الانجليزى أن طبييين ايطاليين قاما بفحص جثته وأنه مات فى نوبة صرع، وأن الأطباء كانوا يتوقعون ذلك فى أى وقت أو أن يصاب بالجنون، واستدلوا على ذلك بشدة فسوته فى أيامه الأخيرة .

أما الرافعى فقد ذكر روايتين عن الطريقة التى قتل بها، والرواية الأولى ذكرها «اسماعيل باشا سرهنگ» فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) والثانية ذكرتها «مدام أولمب إدوار» كما سمعتها فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر) ..

روايتان :

● ● ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنگ أن «عباس» كانت له حاشية من المماليك يصطفيهـم ولهم عنده منزلة كبيرة مما جعله يفدق عليهم الرتب العسكرية العالية بدون كفاة يستحقونها، وكان لهم كبير من خاصة غلمانه يسمى خليل درويش بك وقد أساء معاملة هؤلاء المماليك فاستطالوا عليه بالغمز واللمز، وخاصة لأنه كان صغير السن فاتخذوا من حدائته مغمز الأقاريل فسخط عليهم وشكاهم إلى سيده فأمر بجلدهم وتجريدهم من ملابسهم العسكرية وتسخيرهم للعمل فى اسطبلات الخيول، وتدخل بعض الباشوات للعفو عنهم لدى الوالى فعفا عنهم وأعادهم إلى مناصبهم، فاستأذنوا فى الذهاب إلى الوالى فى قصره بينها للاعراب عن شكراتهم وهم يضمرون قتله، وانفقوا مع غلامين كانا يقومان على حراسة فراشة، وفى الليلة المتفق عليها دخلوا

عليه وهو نائم فلما شعر بهم استيقظ وحاول النجاة ولكنهم تكالبوا عليه حتى اخمدوا أنفاسه ..

أما رواية «مدام أولمب» فخلاصتها أن الأميرة «نازلى هانم» ابنة محمد على هى التى دبرت مؤامرة اغتياله بعد أن لجأت إلى استانبول واشترت مملوكين يتمتعان بقسط وافر من الجمال والسيوغة، وانفقت معهما على الذهاب إلى مصر، ويعرضان نفسيهما فى سوق العبيد وهى واثقة بأن وكلاء عباس لن يتركوهما. وتم لها مارسمت ودخل الغلامان فى خدمة الأمير بعد أن أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلا كعادته، فلما كانت الليلة الموعودة استجمعا شجاعتهما، ولم يكذ عباس يستغرق فى النوم حتى انقضا عليه وخنقاه، ولم يدعأ له الوقت ليصبح أو يستغيث ثم نزلا من فورهما إلى الاسطبل وطلبا من الساييس تجهيز حصانين بزعم أن الباشا يطلب حاجة عاجلة من قصره فى العباسية، ولكنهما اتجاها إلى الإسكندرية حيث ركبا على ظهر سفينة إلى الآستانة، وهناك منحتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انقاذ المؤامرة.

تقول مدام أولمب إن إلهامى باشا - ابن عباس - تعقب الغلامين القاتلين ليثأر لأبيه، فالتقى بأحدهما فى استانبول فقتله رميا بالرصاص من مسدسه، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على أثر وقيل أنه أوى إلى بلاد الأرناؤود فرارا من القتل.

أما مصير الحكم بعد مقتل عباس، فقد أراد بعض أنصاره إخفاء خبر وفاته إلى حين حضور ابنه «إلهامى» من أوربا وإقصاء «سعيد» الذى كان عليه الدور، وكان سعيد مقيما فى الإسكندرية وبعث أنصار عباس

إلى محافظ الإسكندرية ليشارك معهم فى المؤامرة وتولى الأمور فى
الثغر، إلا أن المحافظ إسماعيل سليم باشا - رفض العرض وذهب من
توه إلى سعيد فى قصره بالقبارى وأبلغه بنبأ مقتل عباس فركب فوراً
إلى القاهرة وصعد إلى القلعة وأعلن جلوسه على أريكة مصر..



من مآثر عباس الأول التى يذكرها الاستاذ الرافعى : أنه لم يفتح على
مصر أبواب التدخل الأجنبى ، ولم يمد يده إلى الاستدانة منهم ، بل ترك
خزانة مصر حرة من ائقال الديون الأجنبية إلخ .. ويبدو أن الرافعى لم
يطلع على أوراق ووثائق ذلك العصر التى تؤكد أن عباس حين مات
ترك مالية الدولة مديئة بما يقارب مائة مليون فرنك فى الوقت الذى
كانت فيه خزانة الدولة خاوية تماماً (١١) .

سعيد باشا

أول من وضع بذور الثورة العربية

أنت تعلم أن الثورة العربية كانت أول انتفاضة مصرية خالصة لتحرير مصر من النفوذ الأجنبي الذي تفاقم في عصر إسماعيل، واكتسى وجهها أوربيا بعد أن كان تركيا شركسيا.. وتعلم أيضا أن الروح الوطنية الناهضة تجسدت في شخص «أحمد عرابي» الضابط الذي قاد - أولا - حركة التمرد داخل الجيش ضد الشرازم الشركسية المهيمنة على الجيش.. ثم.. قاد - ثانيا - ثورة الشعب والجيش ضد استبداد الخديو توفيق والطبقة الحاكمة التي كانت تحققر المصريين وتعمل على بقائهم في قعر السلة الاجتماعية.. وماكان عرابي ليصل إلى مركز القيادة العسكرية والشعبية، لولا الاجراء الخطير الذي اتخذته الوالي «سعيد باشا» بالسماح بترقية الجنود المصريين من رتبة «النفر» إلى سلك الضباط.. وشاء القدر أن يكون من هؤلاء المحظوظين «أحمد عرابي» الذي كان أشبه بدواة مصرية في محيط شركسي، فالتفت حولها كل العناصر المهضومة داخل الجيش. وتجسدت في هذه العصبة المصرية الروح الوطنية المنطلعة إلى العدالة والمساواة حتى حدث الصدام التاريخي في

وقائع الثورة العرابية .

والسؤال الذى يشغل بال الباحث التاريخى هو: لماذا أقدم سعيد باشا على هذه الخطوة المصيرية التى كان لها أثر بعيد فى حركة التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر، وفتح الباب أمام الطبقات المصرية المطحونة لتمسك زمام القيادة بعد قرون من الاستعباد والقهر عاشتها مصر تحت حكم الموجات المتتالية من العناصر المملوكية والعثمانية؟ وهل كان نضوج فكرة الوطنية المصرية فى عهد سعيد يعود إلى ميوله العاطفية نحو مصر والمصريين؟ أم كانت نموا طبيعيا لمشروع التمسير الذى بدأه أبوه محمد على ببناء دولة عصرية على ضفاف النيل، ولا تكون مجرد ولاية عثمانية تتلقى التعليمات والأوامر من استانبول!!

سعيد بيث روح الوطنية :

بالنسبة للافتراض الأولك فالماثور عن سعيد باشا أنه كان محبا للمصريين كارها للترك . لدرجة أنه كان يحنى أن يعثر على الشريان الذى ينقل الدم التركى إلى جسمه لكى يستأصله . وكان يجاهر بهذه المشاعر الصريحة غير عابئ بغضب الطبقة التركية المتمكنة من الجيش، والمحكرة للمناصب العليا . وكان يعمل على تقريب «عربى» وصحبه ويدفع فيهم روح الوطنية المصرية حتى أنه أهدى إلى عربى كتابا عن الحملة الفرنسية على مصر وقال له : «أنظر كيف ترك آباء وطنك .. يقصد المصريين - الفرنسيين يضربونهم، ويعترف عربى بأن هذا الكتاب أقنعة بأن تنظيم الجيش على النسق الحديث مرتبط بقيام

حكم نيابى ودستورى فى البلاد. وكان سعيد باشا يجاهر بعزمه على استقلال مصر عن العثمانية وغير العثمانية. وأن يقوم فيها حكم مصرى صميم. وفى خطبة له ألقاها فى مأدبة عامة قال أن يريد كمصرى أن يرى هذا الشعب ويجعله كفواً للأستغناء عن مساعدة الأجانب. وكان من شأن هذا الكلام أن يغضب الأمراء والحكام من الأتراك، ولكنه لم يأبه لهم ومضى إلى تصفية العناصر التركية فى وظائف الإدارة الصغرى وإحلال زعماء البدو ومشايخ القرى المصريين مكانهم وأمر بأن يكون ثلث الموظفين الذين يتولون عمل نظار الأقسام (المأمير) من المصريين وفى عهد سعيد باشا تم تعيين أول مصرى فى منصب محافظ الجيزة وبلغت به الحماسة فى تمصير الوظائف أنه كان يجمع الموظفين المصريين ليحدثهم على المثابرة والجلد، ويهددهم بعقوبات شديدة إذا لم يحققوا النجاح المنشود. ولانسى أن سعيد باشا هو الذى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية بدلا من التركية. وهو الذى زرع بيده أول طبقة من الضباط المصريين داخل الجيش. وبدأ بتجنيد أبناء مشايخ القرى الذين كانوا يتمتعون بالأعفاء من الخدمة العسكرية ثم ترقيتهم إلى سلك الضباط وفى ذلك يقول عرابى فى مذكراته:

«وكان والدى شيخا على قرية هرية رزنة وكان عالما فاضلا تقيا أقام بالجامع الأزهر عشرين سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير، فلما بلغت سنى أربع سنوات أرسلنى إلى مكتب تحفيظ القرآن حتى ختمت القرآن الكريم وعمرى آنذاك ثمانى سنوات وبضعة شهور، ثم بدت لى المجاورة فى الأزهر حتى بلغت إثنى عشر عاما، وبعد سنتين رجعت

إلى بلدى، وكان سعيد باشا قد أمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم فى العسكرية فدخلت ضمنهم.

وترقى عرابى من تحت السلاح إلى رتبة ملازم ثان ثم ملازم أول ثم يوزباشى ثم صاغ ثم بكباشى ثم قائمقام إلى أن جرفته أحداث الثورة.

بذور التمسير فى عهد محمد على:

ولكن بعض المؤرخين يرى أن الأهواء والأمزجة الشخصية لا تكفى لتفسير الأحداث التاريخية الهامة. ومن ثم لم تكن حماسة سعيد باشا للوطنية المصرية ترجع إلى أسباب عاطفية، وإنما هى نمو طبيعى لمشروع التمسير الذى أرسى بذرته محمد على. فبدأه بالقضاء على تشييت السلطة وتركزت مقاليدها فى يد الدولة المتجسدة فى الباشا ذاته، ورغم الصعاب التى تعرض لها المصريون من جراء نظامه الاقتصادى المعروف باسم الاحتكار، فإن هذا الاحتكار زوده بالأموال اللازمة لشتى مشروعاته التى ارتبطت فى مجموعها بإنشاء الجيش الجديد، فقد أهتم محمد على بالتعليم الذى هدف إلى إعداد الكوادر اللازمة للجيش: من مهندسين وأطباء وضباط، كما جند المصريين للمرة الأولى منذ قرون، وأصبحوا يشكلون معظم الجنود العاملين بعد أن درج حكام البلاد، منذ تدهور الامبراطورية الفرعونية على تجديد الأجانب بحجة أن المصرى غير صالح للجندية، كما عرفت مصر فى عهد محمد على نوعاً جديداً من التعليم كان مرتبطاً بالجيش فى المحل الأول، وأرسلت البعثات إلى أوروبا، واستقدم الفنديون الأوروبيون إلى مصر، وترجمت الكتب فى الوقت الذى أمكن فيه فك طلاسم اللغة الهيروغليفية، ونشأ

فيه علم المصريات القديمة الذى كشف للمصريين وللعالم أجمع حقيقة الحضارة التى قامت واستمرت على ضفاف النيل آلاف السنين، وأدى كل ذلك إلى شعور المصريين بالانتماء إلى وطن له كيانه الخاص وتاريخه الخاص، وبدأ إزدهار الثقافة، واستقر الأمن والنظام فى عهد محمد على بسبب صرامته، وقوة الحكومة، وترتب على هذا كله: نمو الشعور بالوطنية المصرية الذى ما لبث أن عبر عنه أشخاص مبرزون فى مجال الأدب والمعمار والفنون العسكرية والهندسة والفلك والطب وغير ذلك وهذا النشاط الذى شهدته عصر محمد على هو الذى أوجد الطبقة الوسطى المصرية فى مجال التعليم والإدارة وليس الاقتصاد الذى احتكرته الدولة - حقيقة أن محمد على اعتبر المصريين غير أكفاء لتولى المناصب الإدارية الكبرى، إلا أنه استعان بهم فى وظائف الإدارة الصغرى، وبقيت المناصب العسكرية والإدارية الكبرى فى أيدي الأتراك والشراكسة فى المحل الأول ثم فى أيدي الأرمن والأوروبيين، ورغم أن كل موظفى الدولة الذين كانوا يشغلون الرتب الأعلى من رتبة شيخ البلد خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانوا من الارستقراطية - التركية الشركسية، فإن محمد على حاول إحلال مشايخ القرى والبدو المصريين محل الأتراك وإن لم تصب التجربة نجاحاً كبيراً.

●● أما فى مجال التعليم فقد خشى محمد على أن يصطدم بمشايخ الأزهر، ومن ورائهم الشعور الدينى الذى كان باستطاعة المشايخ تحريكه، لهذا أوجد التعليم الحديث المنفصل عن الأزهر، مما أوجد ازدواجية فى المجال الثقافى، وبمرور الوقت ازدادت أهمية المثقفين الجدد الذين أفادوا من علمنة أجهزة الدولة، وبخاصة إثر ازدياد

المؤثرات الأوروبية. إما تمشيا مع رغبات الولاة من أبناء أسرة محمد على، أو بفعل تدفق الجاليات الأوروبية وزحف القوانين والمؤسسات الاقتصادية الأوروبية، والمثقفون الجدد المتصلون بالثقافة الأوروبية هم الذين بشروا بالوطنية ونقلوا ألوانا من الفكر الأوروبي الذي كان يموج بشتى التيارات خلال القرن التاسع عشر، فى الوقت الذى كان لا يزال للفكر الإسلامى وزنه، وبخاصة فى دوائر رجال الدين والطرق الصوفية، وإن كانت أهمية هذه الفئات كانت تسير فى طريق الاضمحلال التدريجى بفعل إزدياد سلطة الحكومة من جهة، والتغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى منذ عصر محمد على.

وهكذا أنشأ محمد على الجيش الذى ثار على الشراكسة فى أوائل الثمانينات، وشن حروب الشام التى بعثت النعرة المصرية خاصة ابنه إبراهيم غذى بتداعته وتصريحاته الاتجاه إلى التمرد السافر على الامبراطورية العثمانية التى كانت لا تزال لها هيبتها باعتبارها أقوى الدول الإسلامية، وكان البعض لا يزالون يعتبرونها دولة الخلافة. ثم جاء سعيد لينفخ فى المصريين الروح الوطنية التى كان لها أثرها لدى عربى.

(من دراسة للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ضمن كتاب مصر للمصريين).

مخاوف الترك من تجنيد المصريين:

●● وأنت ترى من هذا أن فكرة الوطنية المصرية التى تعلى الاستقلال السياسى والعسكرية، إنما غرست بذورها فى التراب

المصري على يد محمد على، ثم والاهما ابنه سعيد بالرعاية حتى أتت أكلها في عهد اسماعيل، ثم تفجرت بالثورة في عصر توفيق. وكانت أداة محمد على لتحقيق هذا الحلم الكبير: إنشاء الجيش المصري القادر على إخراج مشروعه من عالم الأحلام إلى دنيا الحقيقة. وقد أقدم محمد على على هذه الخطوة الجريئة - تجنيد المصريين - على خلاف كافة الحكام الذين سبقوه منذ سقوط آخر دولة فرعونية قبل مقدم الاسكندر الأكبر إلى مصر بسنوات معدودة، فكانت الوصية السحرية التي يترارنها هؤلاء الحكام هي: إبعاد المصريين عن الجيش حتى لا يستخدموا السلاح في تحرير بلادهم من الأجانب، وكانت هذه الهواجس تنتاب القادة الترك المحيطين بمحمد على عندما علموا بعزمه على تجنيد المصريين، وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام على هذه الخطوة التي لا تحمد عقباه، ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين سيقصر على مستوى (الأنفار) أي الجنود فقط، أما رتب الضباط والقادة فستبقى حكرا على الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك.

لم يأبه محمد على بتحذيرات هذه الفئات الممتازة، لأنه كان يدرك مراميهم الحقيقية وهي إبقاء الامتيازات لهم مثلما كان الحال في العصر العثماني وقبلة العصر المملوكي. وكان يرى في وجودهم عقبة في طريق مشروعه الكبير، وهو بناء مصر الحديثة، وكان محمد على على استعداد للإطاحة بأي عقبة تقف في سبيل هذا المشروع، بدليل أنه ذبح المماليك في القلعة، واستأصل جذورهم من التربة المصرية، ولم يكن من المعقول أن يفعل نفس الشيء مع هؤلاء المحيطين به والذين

ساعدوه على الانفراد بالسلطة، ولكنه لجأ إلى أسلوب آخر وهو خلق نواة لطبقة مصرية تأخذ مكانها الطبيعي عن طريقين:

- إتاحة الفرصة أمام المصريين لتملك الأراضي الزراعية.
- إتاحة الفرصة أمام المصريين للدخول في الجيش.

بالنسبة للموضوع الأول اصطنع محمد علي طبقة أرستقراطية زراعية لها حق التصويت في الأبعديات والشفالك التي أنعم بها عليهم كمكافأة عن الحروب التي خاضوها ثم مضى إلى خطوة أبعد فأعطاهم حق الملكية المطلقة وكافة التصرفات الشرعية، فكان ذلك ميلاد الطبقة البورجوازية المصرية الجديدة التي قدر لها أن تقود الحركة الوطنية في مصر لمدة قرن حتى قيام ثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢.

وبالنسبة للجيش: استبعد محمد علي تجديد العناصر الهمجية التي كانت موجودة في مصر، وكانت أقرب إلى قطاع الطرق منها إلى العسكرية المنتظمة وأدرك أنها غير صالحة للخضوع لأساليب التربية العسكرية الحديثة، كما فشل مشروع تجديد السودانيين، وكانت خطوته التالية بتجديد المصريين.. وبهاتين الخطوتين وضع محمد علي اللبنة الأولى في مشروع التمسير.. فلما جاء ابنه سعيد مضى في هذين السبيلين إلى ما هو أبعد. وهو إعطاء المصريين حق تملك الأراضي الزراعية والاستمتاع بنفس الحقوق التي كانت تتمتع بها الأرستقراطية التركية في عهد أبيه. مما أدى إلى بزوغ طبقة كبار الملاك الذين سوف يشهد ساعدتهم في عهد إسماعيل ويتحملون عبء المواجهة ضد الأوروبيين عند اشتداد الأزمة المالية، وهم الذين سوف تتكون منهم

المجالس الديابية التي عرفتها مصر بدءاً من سنة ١٨٦٦ . أما عن الجيش فقد قفز سعيد إلى خطوة أبعد من خطوة أبيه وهي السماح بترقية الجنود المصريين إلى سلك الضباط . وكأنما فتح بيده الباب لتدخل منه الثورة العربية .

من أجل جمال عيون فرنسا

من الجائز أن تجامل صديقك في أقراحه فترسل إليه «بوكيه» ورد أو بطاقة تهنئة، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تدم عن المشاركة الوجدانية، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث، عندما بعث الوالي سعيد باشا، بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لامبراطور فرنسا «نابليون الثالث»، وفاء لروابط الصداقة بينهما (١١) ثم رأينا تبعات هذه الصداقة تمتد إلى الخديو اسماعيل فجعلته يحتكم إلى هذا الامبراطور في النزاع الذي نشب بين الحكومة المصرية، وشركة قناة السويس حول الامتيازات المجحفة التي تضمنها عقد تأسيس الشركة، وغاب عن العاهل المصري أن الخصم لا يكون حكماً عادلاً، وأن مصالح الدول الاستعمارية لا تعترف بالصداقات الشخصية، فجاء حكم الامبراطور وبالا على الحقوق المصرية، وانحيازاً إلى المصالح الفرنسية (١٢) .

كان سعيد - ومن بعده اسماعيل - يثقان ثقة عمياء فى نزاهة ملوك أوروبا، وفرنسا بالذات، على عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد على الذى كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية، ولم يكن يحسن الظن بهم، ولا يسمح لهم بالتغلغل فى شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة وعمل على حماية الاستقلال الوطنى من الوقوع فى براثن النفوذ الأوروبى، فرفض بشدة مشروع شق قناة السويس حين عرضته عليه «فرديناند داليسيس» وأتباع الفيلسوف الفرنسى «سان سيمون» الذين سيطرت عليهم، الى حد الهوس، فكرة ربط القارات بالقنوات الملاحية، واستبدل بمشروع القناة ببناء القناطر الخيرية لتنظيم الري الدائم وزيادة الثروة الزراعية، وإن كان الموقف الرافض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد على من اقتباس أساليب النهضة الأوروبية فى تأسيس مشروعه الكبير، فبعث البعثات الى هناك، واستقدم العلماء والخبراء الى مصر، ليعملوا تحت عينه الثاقبة، ورقابته الصارمة، ومضى وزيفه عباس الأول على هديه فى مقاومة النفوذ الأوروبى، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية، إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطنى هو الحسنة الوحيدة التى تذكر له، فسلم البلاد، بعد أربع سنوات شداد الى من جاء بعده، وهى خالية من النفوذ الأجنبى.

بلاهة الوالى سعيد :

قلما كان عصر سعيد. نجح «داليسيس» فيما فشل فيه أيام أبيه، واستغل ضعف شخصية الوالى الجديد وأنهاره الشديد بالحصانة الفرنسية،

وصداقته الحميمة مع الامبراطور نابليون الثالث، في الحصول على امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة، ولم يتريث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية، ثم بلغت به البلاهة - وليس النخوة - أن استجاب لمطلب صديقه الامبراطور نابليون الثالث بإرسال كتيبة من الجيش المصري لتحارب الى جانب القوات الفرنسية في المكسيك (11) .

كان نابليون الثالث يحلم بإقامة امبراطورية فرنسية في العالم الجديد، فانتهاز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل على إذكاء نارها، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا للتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين، فلم تأبه الدولتان لتحريضه، فتحمل وحده مسئولية التدخل، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية، فلما تخرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوى صديقه الحميم سعيد باشا، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداوة من بعيد أو من قريب، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد، وأبحرت الكتيبة الى المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتى أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنودا، وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم

أفرادها بمن فيهم قائدها، ولم يبق منهم سوى ٣٠٠ جندي عادوا الى باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم، فاستعرضها الامبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة، وبعد وصولهم الى الاسكندرية استعرضهم الخديو اسماعيل - بعد وفاة سعيد - في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافا بشجاعتهم.

ولم تكن حملة المكسيك هي الوصمة الوحيدة التي دمغت عهد سعيد بالخصوع للنفوذ الأوروبى، فهو أول من مد يده بالاستدانة من البنوك الأوروبية، ومهد الطريق للوعر أمام خليفته اسماعيل فمضى فيه الى النهاية التي أطاحت به، وهوت بمصر الى مستقبل الاحتلال. وفى ذلك يقول مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) وهو خبير أوروبى: وإلى سعيد باشا يرجع الفضل النعس فى عقده أول قرض اقترضته مصر من أوروبا، وخرج على سياسة أبيه محمد على وأخيه إبراهيم باشا اللذين استطاعا أن ينهضا بالبلاد، ويجاهد فى سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذى كُتِل بالنصر دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك. وقد أورد المؤرخ إلياس الأيوبي معلومة لم أعتز عليها عند غيره، وهى أن سعيد باشا قدم الى صديقه دليسيبس - عند بدء المشروع - كل المتوافر عنده من المال، وقدره خمسمائة ألف ريال، وتحمل على نفقته الخاصة تكاليف حفر ترعة المياه العذبة التى قامت الشركة بإنشائها بأيدي المصريين، حتى إذا فشلت الشركة فى تسويق الأسهم الباقية المعروضة للبيع، أخذت الشهامة سعيد باشا فاشتري الأسهم وأنقذ الشركة من إخفاق محتم، وأنه ولولا وقوف سعيد

باشا، بجهدده وماله وسلطانه - الى جانب صديقه الحميم، لما رأى المشروع الفور، وتكشفت خبايا المشروع وما فيه من افتئات على الحقوق المصرية، وبعد أن انهالت أصوات النقد والعلام على سعيد باشا لتفريطه فى مصالح البلاد، لم يسع سعيد إلا أن يعترف بخطئه وتسرعه فى توقيع عقد الامتياز، بلا ثرو لصديق، وهو فرنساوى، فخاطبوه .. أو خاطبوا حكومته .. أما أنا فلست أستطيع سحب امتياز أعطيته (١١) .

ويعزو الورخ عبد الرحمن الراقعى خضوع سعيد باشا للنفوذ الأوربى إلى ضعف شخصيته، وانهياره بالأوربيين وشدة ركونة إليهم، وميوله الفرنسية التى جعلته يتصاع لتأثيرات «داليسيس» وأضرابه، حتى أخذ الأجانب يسيطون أيديهم على مرافق البلاد، ويستطيون على الحكومة وسيادتها، ويشمخون بأنوفهم، وصار للتواصل والجاليات الأوربية نفوذ لم يكن لهم من قبل فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس الأول .

وإذا كان القرض الذى استداناه سعيد (وهو أحد عشر مليون جنيه) يتواضع بالقياس إلى القروض الفادحة التى اقترضها اسماعيل، فإن درجة خضوع سعيد للنفوذ الأوربى تهون بالمقارنة إلى ما ارتكبه اسماعيل . اسماعيل . فقد فتح البلاد على مصاريحها أمام المرابين والأفاقيين والمغامرين من حفالات الدول الأوربية، وجعل منهم بطانته وخاصته وأصحاب رأى والمشورة .. وانتهت سياسته الخرقاء إلى تطويق البلاد بسلاسل النفوذ الأوربى، وانهيار صرح الاستقلال السياسى والاقتصادى الذى كسبته مصر فى عهد محمد على .

الخصم والحكم :

كان إسماعيل أوربي الفرعة، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها، ويعتقد فيهم حسن النية، ولم يظن إلى مطالعهم الاستعمارية، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلى صديقه الامبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا، وقد شعر إسماعيل - في بداية حكمة - بغطاغة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة، فأزيع إلغاؤها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملكا لمصر، لا أن تكون مصر ملكا للقناة، فاعترض على البند التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرين ألف عامل لحفر القناة بالسخرة، وتقرض على مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد، واعترض على إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة على ضفتي القناة واعفائها من الضرائب.. إلخ. ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات، وحرصت الصحف الفرنسية على شن حملة ضد حكومة مصر، وتعضيد حق الشركة في هذه المكتسيات، وكان من الطبيعي أن يندحار الرأي العام الفرنسي إلى جانب مصالح الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة.. فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري؟؟ لجأ إلى صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده، وتجاهل إسماعيل الحقيقة البديهية بأن

الخصم لا يمكن أن يكون حكماً عادلاً.. وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية، وأن امبراطور فرنسا لا يستطيع إلا أن يحاكي سياسة بلاده مهما كانت درجة المحبة مع خديو مصر، واستخدم «دليسيبس» كل أسلحته لاحتباط مسعى إسماعيل بما فيها سلاح المرأة، وهي في هذه الحالة الامبراطورة «أوجيني» التي كانت تربطها بدليسيبس قرابة عائلية، فلجأ إليها للتأثير على زوجها الذي ارتضاه الخديو حكماً.

الحكم الجائر:

وفي عام ١٨٦٤ أصدر الامبراطور حكمه ويقضى بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلى الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك (ثلاثة ملايين و٣٦٠ ألف جنيه مصري). وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الامبراطور، وأنها تقارب نصف رأس مال الشركة. ويصف الراقعي هذا الحكم بأنه من الأحكام الجائرة في التاريخ، لأنه أدى على أسباب لا يسيغها عدل أو منطق، وإنما هو حكم قضت به «عدالة» نابليون الثالث، وخرجت مصر من هذا التحكيم بصفقة المغبون، واعتبرت الشركة حكم الامبراطور فوزاً مبيهاً كفل لها إتمام المشروع على حساب مصر، ولو أن إسماعيل استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيماً، لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة في العمل إذ كان كل شيء معلقاً على الأيدي العاملة المصرية، ولولاها لوقف المشروع وقضى عليه بالفشل دون أن تحرك

مصر ساكنا، ولكن شاء حظ مصر العاثر أن يركن إسماعيل إلى «العدالة الأوروبية» فوقع عليها الظلم والاعتصاف.

رية السحر والجمال :

أما مؤرخ عصر إسماعيل - إلياس الأيوبي - فيرى في هذا الحكم نصرا للخديو على الشركة، بزعم أن إسماعيل حقق به تحرير البلاد من قيد كانت مغولة به، وله في ذلك حجج وتبريرات طويلة، إلا أن هذا الحكم الجائر - من وجهة النظر الوطنية - لم يوهن علاقة المودة بين الخديو والامبراطور، وإنما زادت قوة ورسوخا، حتى أن إسماعيل عندما أقام الاحتفالات الأسطورية، بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ذهب بنفسه إلى فرنسا لدعوة الامبراطور وزوجته أو جينى، وأتاب نابليون زوجته لحضور الاحتفالات، فلما جاءت اهتز لها عرش الخديو ووضعها على رأس الجمع الحاشد من ملوك وأمراء أوربا، وبدأت في نظر مؤرخى ذلك العصر كأنها إلهة الجمال والسحر والجلال، أو كأنها بين وصيفاتها في هذا الجو المظلم، أشبه بكليوباترا وهى تصعد مياه نهر السندس لتقابل مارك أنطونيو. وبلغ من انبهار الناس بها أن قال الأيوبي: من يدرينى أن تلك الامبراطورة الجميلة الأندلسية المولد والنشأة، قد تكون سليمة بيت عربى رفيع العماد، أو فرع دوحة ملكية أظلتها سماء «الحمراء» الشعرية فى غرناطة، مسقط رأس تلك الامبراطورة الجميلة، ومدينت صباها (١) .

لقد أنفق الخديو إسماعيل القناطر المقنطرة من الذهب والفضة على هذه الاحتفالات، كى يبدو أمام ملوك أوروبا بمظهر الثراء الباذخ،

وكانوا جميعا يعرفون ان إسماعيل ابتز هذه الأموال من عرق الشعب الكادح ليقدّم أطايب الطعام، وأثمن ألوان الشراب، حتى أن فرنسا شرها قال بعد أن أتى على كل مستويات مائدت: لقد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين (١١) .

والأكثر دهشة أن عدالة السماء انتقمت من كل هؤلاء الذين أكلوا ثروة الفلاحين المصريين وحشوا بها بطونهم، وأصابتهم اللعنة بعد عودتهم إلى ديارهم، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت ألمانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا (حرب السبعين) وهزمتها هزيمة متكرة.. هوت بسمعتها إلى الحضيض، وإذا بالأمير الألماني الذي كان يراقص أوجيني في قصر الجزيرة ويبادلها عبارات المجاملة الكاذبة، يطيح بعرش زوجها الامبراطور نابليون الثالث، أما «أوجيني» التي بدت كأميرة الأحلام في مصر، فقد هوت من عالق العز، وزال عنها جمالها، وذبلت فتلتها التي سحرت عاهل مصر، وإذا بها تنجو بحياتها على سطح قطار حملها إلى إنجلترا، وهبطت إلى محطة لندن وهي معفرة الثياب والوجه وليس معها إلا القليل من المال والمتاع، وذابت في زحام العاصمة اللدود أن يشعر بها أحد، وعاشت في عزلتها الباردة وهي تعاني آلام الشيخوخة حتى هزمها الموت.

تطور الحياة البرلمانية فى مصر

مجلس شورى النواب

عرفت مصر الحياة النيابية لأول مرة فى تاريخها الحديث فى شكل «مجلس شورى النواب» الذى أقيم عام ١٨٦٦ بإيعاز أو بإيحاء من الخديو إسماعيل. ولم يكن لهذا المجلس سلطات برلمانية كما هو الحال فى النظم الديمقراطية العريقة مثل: تقديم الأسئلة والاستجابات وسحب الثقة من الحكومة، ولم تكن له صلاحيات دستورية لأنه لم يكن فى مصر دستور يفصل بين السلطات، ويحدد صلة كل منها بالآخر، ومع ذلك يبقى لهذا المجلس شرف البداية، ولا يعيبه أن هذه البداية كانت متواضعة، فكل الكائنات الحية كانت فى نشأتها مجرد نقطة أو جنين ضعيف ثم لا يلبث الوليد أن يستوى خلقا شديداً المراس. وقد جرت على هذا المجلس سنة التطور الطبيعى، وتوفرت له عناصر الاكتمال والنضوج من خلال المحن والكوارث التى تعرضت لها مصر فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وكانت أشدها محنة الاحتلال البريطانى الذى دأب على إجهاض أى محاولة القيام حياة نيابية كاملة، والحيلولة دون أن يملك الشعب المصرى زمام أمره، وقد

يبدو غريباً أن يحدث ذلك على يد بريطانيا العظمى - أم الديمقراطية ولكن تزول الغرابة إذا تذكرنا أن الدول الاستعمارية ترى في الديمقراطية صناعة أوروبية خالصة مقصورة على الشعوب البيضاء، ولا يجوز تصديرها إلى دول المستعمرات (١١) .

لماذا فكر إسماعيل في إنشاء هذه المؤسسة النيابية التي يفترض أن تنتقص من سلطانه المطلق ؟ وتحد من هيمنته على كل مقدرات البلاد ؟ لاشك أن إسماعيل، وهو يوقع فرمان إنشاء مجلس شورى النواب، فعل ذلك ضمن مشروعه الكبير لتحديث مصر، واقتباس مظاهر الحضارة الأوروبية، لقد أقام مدارس البنات، ونشر التعليم، وشاد القصور والأوبرا ودار الكتب .. فلماذا لا يستكمل معروضات «الفريدة» الحضارية بهذا المجلس الذي صنعه على عينه، وخلقه بيده، وحدد له الاختصاصات الضئيلة التي لا تتجاوز مناقشة الموضوعات التي تحيلها إليه الحكومة، أو الاقتراحات التي يتقدم بها النواب .. ثم .. لا شيء بعد ذلك .. فليس للمجلس أن يمارس أبسط حقوق المجالس النيابية منذ نشأتها وهو: مناقشة الميزانية العامة للبلاد ومعرفة مصير الأموال التي يقدمها دافعوا الضرائب (١١) .

ليس لنا أن نلوم إسماعيل على بخله في منح المجلس سلطات فعلية، فالمجلس جاء «منحة» من ولي النعم، وليس استجابة لمطلب الشعب، وفي مثل هذه المنح والأعطيات لا يليق بالمتلقى أن يحدد شكل الأعطية ونوعها وحجمها، وإنما عليه أن يظهر مشاعر الامتنان والتشكرات لكل ما جادت به الإرادة السنية (١١) وهو ما فعله أعضاء المجلس حيث

أسرفوا في تمجيد وتقديس الذات الخديوية إلى حد العبودية أثناء ردهم على خطب العرش (!!) ولا بد أن نلتصم لهم العذر، لأن النظام السياسى كان استمرارا للحكم المطلق الذى فرضه محمد على منذ تنكر للإرادة الشعبية التى أختارته وأجلسته على الأريكة المصرية رغم أنف السلطان العثمانى، فإذا جاء حفيد محمد على ليفتح هذه النافذة الصغيرة لينفذ منها شعاع ضئيل من نور الديمقراطية، فلا بد أن يقابل عمله بالامتنان درنما إسفاف أو إسراف فى العبودية (!!) .

ديكور للتجميل :

لم يكن إسماعيل يتعمى أن يصنع مجلسا يشاركه الحكم أو يشكل قيذا على حريته المطلقة، وإنما كان أقصى ما يبتغيه أن يقيم بناء شكليا أو «ديكورا» يجعل صورته أمام ملوك أوروبا، فيظهر لهم فى شكل العاهل المتحضر الذى لا يقل عنهم فى الأبهة والمدنية، ولكن .. لم تمض بضعة سنين حتى تطورت الأمور على غير ماكان يقصد إسماعيل، وإذا بالأعضاء الذين أريد لهم القيام بتمثيل دور النواب، قد اندمجوا فى أدراهم، ونزعوا ألقبة «التمثيل»، وأمتلكوا زمام المبادرة، وفرضوا أنفسهم على الحياة السياسية، وصاروا شركاء فى تقرير مصير البلاد بعد أن تدهورت الحالة المالية، وبعد أن غرق إسماعيل فى مستنقع الديون، وأوشكت مصر أن تغرق معه فى هاوية ليس لها قرار، وبات استقلالها مهددا، والدول الأوربية تتربص بها وتتلمظ، عندئذ تحمل هؤلاء النواب المسئولية، وتقدموا الصفوف ليدرأوا عن مصر شبح الاحتلال. ولكن باءت جهودهم بالفشل بسبب وطأة النفوذ الأجنبى، وسلبية السلطان

العثماني، وتخاذل الأريكة الخديوية . وسوف يذكر التاريخ للحياة الليبية الوليدة أنها شابت عن الطوق، ومسرت بأطوار النمو والارتقاء، واستخلصت حقوقها البرلمانية بأظافرها، وانتزعت سلطاتها من برائن أحفاد محمد على الذين جبلوا على الاستبداد والطغيان .

شريك مخالف:

هل كان إسماعيل ، وهو يصنع لبنيات مجلس شورى النواب، يتوقع أن ينقلب «الهزار» إلى «جدة» ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلى شريك مخالف شرس ؟ وأن يصبح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية: أننا هنا سلطة الأمة .. وإن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (١١) قالها عبدالسلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩م عندما توجه رياض باشا - وزير الداخلية ورمز الاستبداد - وهو منتفخ الصدر إلى قاعة مجلس النواب بالقلعة ليثلو قرار فض الدورة، حتى تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية، وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء، فأعدوا مشروعاً مضاداً، يقضي بأن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشؤون المالية، وإصلاح مفاصل الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجبيين، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية، فبيتت النية على إجهاض المشروع الوطني، والتمهيد لإعلان إفلاس مصر، واستصدرت مرسوماً خديوياً بفض المجلس قبل مواعده، وما كاد

رياض باشا يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة حتى انبرى له النائب الجرىء عبدالسلام المويلحى (وتذكر هذا الاسم جيدا فسوف نلتقى به كثيرا فى تلك الأحداث الجسام) وقال للباشا رياض: كيف ينفض المجلس وهو ينظر بعد فى القانون الخاص بالشئون المالية؟ إن الأهالى قد أنابوا عن أنفسهم نوابا للمحاماة - يقصد الدفاع - عن حقوقهم، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه ومن المستحيل أن ينفض المجلس (II) .

رهبت رياض باشا لهذه اللهجة التى لم يتعود سماعها من مصرى ينتمى أبوه إلى فئة التجار، فقال مستنكرا: ماذا تقول حظرتكم؟ مستحيل فض المجلس؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديويتنا المعظم .. هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ما تقول؟ واتجه رياض إلى بقية الأعضاء لتخويفهم حتى لا ينضموا إلى النائب الجرىء، وقال لهم: ما أظن حظرات إخوانك يوافقون على ما تقول ..! وكانت المفاجأة أن اندفع الأعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وأعلنوا تضامنهم معه فى كل ما يقول .. وهم رياض باشا بالدهوض إيدانا بإنهاء الجلسة، عندئذ صاح عبدالسلام المويلحى فى وجهه: إننا هنا سلطة الأمة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (II) عندئذ وجم رياض لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التى أعادت إلى الأذهان أحداث الثورة الفرنسية، لقد قالها «ميرابو» فى وجه مندوبى الملك لويس السادس عشر حين اقتحصروا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب قبل مناقشة القضايا التى كانت بين أيديهم، وصارت هذه العبارة الفتيل الذى أشعل الثورة .. وتداغت الذكريات فى رأس رياض وهو يسمع نفس العبارة بلسان مصرى

مبين، فعاد إلى مقعده صائحاً: يعنى حضرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين
ثاروا على حكومتهم؟ يعنى حضرتكم الآن.. بعمائمكم وجببكم مثل
نواب أوروبا وأمريكا؟؟ ورد النواب الإهانة بعشرة أمثالها، وصاح أحمد
العويسى: يا باشا أنت الآن تشتم نواب أملاك التى تعطيك أنت وغيرك
مرقباتكم الشهرية، وقال عبد الشهيد بطرس: إن كلامك هذا وقاحة
والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه، وقال
أحمد الصوفانى: أوافق العضو على رد الإهانة للناظر حتى يعلم أن فى
البلاد أمة حية، ولها نواب يدافعون عن كرامتها، وهذا قال عبدالسلام
المويلحى: أسمعت يا باشا...؟؟ أرايت عاقبة تسرعك فى الكلام...؟
اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب.. بل مسألة نواب لهم عقول
تفهم جيداً رغبات الأمة التى أنابتهم عنها.. أليس من العيب، وأنت
وزير فى وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسى، وهما فى
الحقيقة خفيران عليك وعلى الحكومة، ثم تجمع أمس - أمام الوزيرين
الأجبيين - أصحاب الجرائد وتقول لهم: إن الحكومة عزمت على فض
مجلس شورى النواب غدا.. فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة
واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج.. تقول
عن نواب بلادك.. مصر العزيزة.. ونحن جميعاً درسنا فى الأزهر
الشريف! واختتم الشيخ حسن عبدالرازق هذه الملحمة الوطنية بقوله: إن
ما قاله المويلحى يعبر عن أفكارنا جميعاً.. فصاح النواب: موافقون..
موافقون.. فلم يملك رياض باشا إلا أن غادر قاعة المجلس وهو يهذى:
إذن أنا منسحب.. أنتم عصاة.. أنتم ثوار.. فتوجه المويلحى بمخاطبة
كاتب الجلسة: لاتحذف حرفاً واحداً مما قيل فى جلسة اليوم.. حتى إذا

نقلته الجرائد غدا علمت الأمة جميعها من هم الهمج: النظار أم
النواب (11) .

واستجاب النواب لطلب المولى باعتماد المجلس في حالة انعقاد
دائم .. ونواب الأعضاء على المبيت في القاعة .. حتى اهتزت أعصاب
الحكومة، فاستقالت ثم توالى الأحداث التي أقضت إلى عزل إسماعيل
ثم نشوب الثورة العربية .

سنة التطور:

تذكر أن هذه الواقعة حدثت سنة ١٨٧٩ أي بعد ثلاثة عشر عاما من
قيام المجلس الذي أراد صانعه أن يكون برلمانا سوريا، وشاءت الإرادة
الشعبية أن يكون برلمانا حقيقيا، ولم يرد على خاطر إسماعيل أن سنة
التطور لا بد أن تمضي في طريقها إلى مالا نهاية، وأن الخطورة التي
قطعها لا بد أن تلتوها خطوات حتى يبلغ الكتاب أجله، ويملك الشعب
المصري زمام أمره ويفرز رجالا يعرفون حقوقهم البرلمانية ويتمسكون
بها، إن غالبية النواب الذي واجهوا استبداد رياض باشا بهذه الصورة
القاسية، هم نفس النواب الذين تشكل منهم مجلس شورى النواب عند
ولادته، ولكن الأحداث صهرتهم، والمحن أنضجتهم، فهي خير مدرسة
لتفريخ القيادات الوطنية . وعندما رسم الخديو إسماعيل طريقة انتخاب
أعضاء المجلس، توخى أن يكون الانتخاب محصورا في عمد البلاد
ومشايعها، ولم يترك للشعب حرية الانتخاب حتى لا يقلل التزام من
يده، وحتى لا يتسلل إلى عضوية المجلس بعض العناصر المثقفة التي
لا تخفى مخطتها على الخديو وحكمه الأتوقراطي وتبذيره أموال الشعب .

ونهمه الشديد فى امتلاك الأراضى حتى صار يملك خمس الأطنان المصرية .

إبعاد المثقفين :

جاء تشكيل المجلس - كما لاحظ المؤرخ عبدالرحمن الرافعى - على الصورة التى أرادهم ولى الدعم من العمدة وكبار ملاك الأراضى، وخلوا من العناصر المثقفة أو المعارضة . أما طبقة التجار والصناع فلم يكن لهم ممثلون إلا النزر اليسير الذى لا يؤثر فى طابع المجلس . وكذلك خلا من الطبقات المتعلمة التى تخرجت من المدارس والبعثات العلمية منذ عهد محمد على، فهؤلاء لم يكونوا ممثلين فيه، لأن نظام الانتخاب فى ذاته لم يجعل لهم حظا فى عضوية المجلس، أضف إلى ذلك أن هذه الطبقة كانت إلى ذلك العصر منصرفة إلى مناصب الحكومة، ولم تنجه إلى الحياة الحرة، ولم تألفها بعد، فكانت بحكم هذه الظروف جزءا من الأداة الحكومية، وبذلك حرم المجلس من هذه العناصر الحرة المثقفة التى تبعث فى الهيئات النيابية نورا من الحياة والحرية والاستقلال فى الرأى، وتبث فيها روحا من الشعور بالواجب والشجاعة الأدبية، والتطلع إلى المثل العليا .

ولم تكن فى البلاد - حين تأسس المجلس - صحافة تلبه الأفكار وترشد النواب إلى واجباتهم وتبصرهم بحقائق الأمور، وتلشر مداولاتهم، وتستثير اهتمام الكافة بمباحثهم، ولائمة جمعيات سياسية تبث أفكارهم ومبادئها القوية فى نفوس النواب، ويتألف منها ومن الصحافة رأى عام يراقب المجلس ويواجهه إلى الوجة التى ينشدها .

ومن ناحية أخرى لم تكن في البلاد ضمانات نظامية أو قانونية أو قضائية أو فعلية تحمي حرية الآراء وتكفلها. فكل هذه الظروف كان لها أثرها في تضيق حياة المجلس، وتحديد موافقه وخططه وأعماله.

سلطان المجلس:

رسم إسماعيل نظام مجلس شورى النواب في لائحتين:

* اللائحة الأساسية: وتشتمل على بيان سلطة المجلس وطريقة انتخابه وموعد اجتماعه.

* اللائحة النظامية: وهي أشبه باللائحة الداخلية التي تنظم مداولاته.

وقد أوجز الرافعي ما جاء في اللائحتين مستخلصا نظام المجلس وسلطاته على النحو التالي:

أولاً: إن المجلس لم تكن له سلطة قطعية في أي أمر من الأمور، وهو إن كان يصدر قرارات فيما يعرض عليه من الشئون إلا أن هذه القرارات لا تعدو أن تكون «رغبات» ترفع إلى الخديو، وله فيها القول الفصل، ولم تحدد اللائحة الأساسية ولا اللائحة النظامية المسائل التي يبدي رأيه فيها، بل عبر عنها بأنها المسائل «التي تراها الحكومة من خصائصه»، وأشار في بعض المواد إلى أنها المسائل المتعلقة «بالمنافع الداخلية» ويبدي رأيه أيضا في المقترحات التي يتقدم بها الأعضاء.

ثانياً: يتألف المجلس من عدد لا يزيد على ٧٥ عضواً، ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها في المديريات،

وجماعة الأعيان في القاهرة، والاسكندرية، ودمياط، وكان عدد نواب كل مديرية بحسب التعداد فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره، وينتخب ثلاثة نواب عن القاهرة، واثنان عن الاسكندرية، وواحد عن دمياط.

ثالثا: يشترط فيمن ينتخب عضوا أن يكون مصرياً، ومن المتصفين «بالرشد والكمال، ولا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة، وأن لا يكون ممن صدرت ضدهم أحكام جنائية بالليمان أو من المحكوم عليهم بالإفلاس، أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم، واشترط في العضو العلم بالقراءة والكتابة في الانتخاب السابع، أي بعد مضي ثمانى عشرة سنة على تأسيس هذا النظام، لأن مدة كل مجلس ثلاث سنوات، ومعنى ذلك أن النواب كانوا يعفون من هذا الشرط في الانتخابات الستة الأولى.

ولوحظ في هذا التمييز أن هذه المدة تكفى لانتشار التعليم في البلاد، حيث يشترط في الأعضاء بعد انقضائها أن تكون لهم دراية بالقراءة والكتابة، واشترط في الناخبين أن يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة في الانتخاب الحادى عشر، أي بعد انقضاء ثلاثين سنة على الانتخاب الأول.

رابعا: يحصل انتخاب نواب كل مديرية في عاصمتها، وكل ناخب ينتخب العضو النائب عن قسمة، ويناط فرز أوراق الانتخاب بلجنة مؤلفة من المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضى المديرية.

خامساً: يجتمع المجلس شهرين في كل سنة، من ١٥ كيهك لغاية ١٥ أمشير (أى من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير)، أما المجلس الأول فيجتمع من ١٠ هاتور إلى ١٠ طوبة «نوفمبر، يناير»، ويكون اجتماعه فى القاهرة، وجلساته سرية، وللخديو جمع المجلس أو تأخيرها أو إطالة مدة اجتماعه أو تبديل أعضائه «حله» وإجراء انتخابات جديدة «مادة ١٦ و ١٧ من اللائحة الأساسية» .

سادساً: تعيين رئيس مجلس النواب ووكيله منوط بالخديو دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعيين «مادة ٣ من اللائحة النظامية» .

سابعاً: يفتتح الخديو المجلس بمقالة «خطبة العرش» ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشىء من الأمور التى يقتضى نظرها المجلس «مادة ٤ و ٥ من اللائحة النظامية» .

ثامناً: ينتخب المجلس من بين أعضائه لجاناً تسمى «أقلاماً»، ومن أعمالها فحص صحة نيابة الأعضاء، وتعرض قراراتها على هيئة المجلس، ومن يقرر المجلس صحة انتخابهم تعرض أسماؤهم على الخديو ليعطى كل واحد منهم «البيرولدى» أى الأمر باعتماد عضويته .

تاسعاً: للمجلس توقيع عقوبات على من يتخلف من الأعضاء بدون عذر عن حضور الجلسات «مادة ١٢ من اللائحة النظامية» .

عاشراً: يتمتع الأعضاء أثناء انعقاد المجلس بشىء من الحصانة الدبلوماسية، فلا ترفع عليهم دعوى «جنائية» فى أثناء الانعقاد إلا إذا ارتكب أحدهم جريمة القتل «مادة ٥٣ من اللائحة النظامية» .

حادى عشر: إدارة نظام الجلسات منوطة برئيس المجلس، ولايجوز للمعضو أن يتكلم إلا إذا طلب الكلام وأذن له الرئيس بذلك ولايتكلم إلا وهو فى موضعه، وتصدر القرارات بطريقة أخذ الآراء علانية وبالأغلبية.

وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والإصغاء لأقوالها وملاحظاتها «مادة ٣٥ من اللائحة النظامية، وهذه القاعدة من أهم أركان النظام النيابى».

ثانى عشر: أعضاء المجلس يحضرون إلى المجلس بملابس الحشمة اللائقة، وجلسهم فيه يكون «بهيئة الأدب» (مادة ٤٠)، ولايجوز لأى عضو نشر مناقشات المجلس أو طبعها إلا بإذن من الرئيس، وإلا كان عرضة للجزاء الذى يوقعه به المجلس (مادة ٥٤).

هذه هى القواعد الجوهرية التى على أساسها أنشئ مجلس شورى النواب، وخلاصتها أنه مجلس استشارى ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات، ويجتمع شهرين فى كل سنة، وجلساته سرية، وأيس له رأى نافذ فيما يعرض عليه من الشئون. ولاريب فى أن المجلس النيابى الذى يقوم على هذه القواعد لايمكن أن يؤثر تأثيرا عمليا فى سياسة الحكومة، مالم يتطور نظامه مع الزمن، ويكتسب حقوقا ومزايا جديدة، ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية فى شئون الحكم، وخاصة فى مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحاً من الحياة والنهضة، ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية

تتولاها هيئة نيابية، ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض
الجسيمة التي تلاحقت في عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبي
في شئون مصر.

نائبان مشاغبان

كان مجلس شورى النواب - الدواة الأولى للحياة النيابية بمصر - أقرب إلى المجالس المحلية منه إلى المجالس البرلمانية التي عرفت بها أوروبا قبل قرون والتي عرفت بها مصر فيما بعد، فلم يكن للمجلس صلاحيات تبيح له مناقشة السياسة الخارجية والداخلية وحتى النظر في الميزانية العامة للبلاد، وهو أبسط حقوق المجالس النيابية بل هو الحق الذي كان سبباً في نشأة البرلمان الإنجليزي، واقتصرت مهمة أعضاء مجلس شورى النواب على التداول في المسائل المحلية البهتة مثل نشر التعليم الابتدائي وردم البرك والمستنقعات وضريبة المواشي والتخفيف من وطأة السخرة على الفلاحين وإلغاء القانون الذي يبيح للحكام ضرب العمد (1) وبقيت مهمة المجلس في الإطار الذي حدده الخديو إسماعيل، والتزم الأعضاء بالصلاحيات التي جادت بها أريحية ولي النعم، ولم يكن لهم أن يخرجوا عليها، ولم يكن من المتصور في ظل الحكم الاستبدادي أن تظهر أجنحة المعارضة داخل المجلس.. وليس صحيحاً ما زعمه بعض كتاب الغرب بأن النواب رفضوا الجلوس في

مقاعد اليسار المخصصة للمعارضة، لأنه لم تكن هناك معارضة أصلاً. ولأن المعارضة مرتبطة بوجود أحزاب، بعضها يؤيد الحكومة، والبعض يعارضها، ولم يكن في مصر أحزاب في تلك الفترة من تاريخها السياسي. بل كان من المستحيل أن يسمح «إسماعيل» بظهور معارضة لحكمه حتى أنه أمر بطرد نائبين ظهرت منهما برادر الشعب داخل المجلس (١١) وقد افتتح الخديو إسماعيل أول جلسة لمجلس شورى النواب بالقلعة يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ واكتشف رئيس المجلس إسماعيل باشا راعب أن اليوم يصادف عيد ميلاد الخديو، فاعتنم الفرصة ليوجه إلى ولي النعم آيات التبريك، ويعلن اعتبار اليوم عيداً سنوياً تعطّل فيه مصالح الدولة، وصار ذلك تقليداً سار عليه ملوك الأسرة العلوية. ثم أُلقيت خطبة العرش فكانت أول خطبة من نوعها تعرفها الحياة السياسية المصرية. ولم يرد في الخطاب أي ذكر لوظيفة المجلس وحدود سلطاته أو المهام الملقاة على عاتق الأعضاء باستثناء «تذاكر المنافع الداخلية وإعلان الآراء السديدة؛ أما مصير هذه الآراء السديدة ومدى التزام الحاكم بها، فهو شيء لم يتطرق إليه خطاب العرش ولو على سبيل التلميح.

يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن هذا الخطاب من الوثائق الهامة في تاريخ الحياة النيابية بمصر. ويصف خطبة العرش بأنها في مجموعها سديدة المعانى، وجيزة العبارة، وأهم ما فيها أنها قررت قاعدة الشورى في نظام الحكم، واستندت في تقريرها إلى القرآن الكريم، مما يجعلها قاعدة لا محيص عنها، ويثبتها في نفوس الشعب، وفيها تعجيد لنظام الشورى وإشادة بمزاياه ومنافعه، وإعلان بأن الغاية

من الحم هي منفعة الجمهور، فورود هذه المبادئ الهامة فى اللطق
الخدوى هو خير دعاية لها وإعلان عنها،

ولأدرى كيف فات على مؤرخنا الكبير أن الشورى تفقد مفعولها إذا
لم تكن ملزمة للحاكم، ولايكفى تمجيد الحاكم لنظام الشورى والإشادة
بمزاياه، إذا لم يقتصر ذلك بإعلان الحاكم احترامه لما تسفر عنه
الشورى. وبذلك يتجنب المزالق التى تنجم عن الانفراد بالرأى. ولو كان
إسماعيل صادقاً فى احترام مبدأ الشورى منذ البداية، لما انزلق إلى
الهاوية التى انتهت بخلعه، ووقوع البلاد فريسة للنفوذ الأجنبى
والاحتلال الإنجليزى.

أما الرد على خطاب العرش فقد تكفلت به لجنة من عشرة أعضاء
صاغوا خطابهم فى قالب تمجيد وتقديس الذات الخديوية، يكاد يقرب
من العبودية - على حد تعبير الرافعى - مما لا يتفق والروح الديمقراطية
الصحيحة، ويتضمن خلاصة لتاريخ مصر، وما كان لها من المجد
والسؤدد فى سالف العصور، ومآلت إليه من الاضمحلال والتفقر إلى
أن تولى زمامها محمد على باشا، فنهض بها وأعاد مجدها القديم، ونوه
بفضل إبراهيم باشا لموازرة أبيه فى أعماله الجليلة، ومأعقب عصرهما
من انكماش نهضة التقدم، إلى أن تولى الخديو إسماعيل الحكم فاستأنف
العمل لنهضتها، وأفاض الجواب فى ذكر مآثر إسماعيل، ثم أظهر
ابتهاج المجلس لما ناله الخديو من تعديل نظام وراثة العرش وحصره
فى أكبر أنجال الوالى بعد أن كان فى أكبر أفراد الأسرة العلوية. أما من
حيث الأسلوب فقد كان خطاب الرد صورة أدبيات العصر التى تهتم
بالسجع المتكلف، والعبارات الركيكة، والتعلق المرذول.

وفي الجلسة التالية تشكلت خمس لجان أو (أقلام) وفقاً للمعرف الحكومي السائد. وجاء تشكيل اللجان على أساس إقليمي.. فهذه لجنة الشرقية وأخرى للبحيرة وهكذا.. وليس على أساس المهام الموكولة إلى المجالس النيابية مثل لجنة الشئون الدستورية ولجنة الأمن القومي ولجنة الميزانية.. إلخ وانتهى الدور الأول لمجلس شورى الدواب في ٢٤ يناير ١٨٦٧ أى أن فترة الانعقاد لم تستغرق سوى شهرين تداول فيها الأعضاء حول المشاكل المحلية.. وفي جلسة الختام ألقى رئيس المجلس خطبة وجيزة أعرب فيها عن التشكرات للخديو على منشأته العظيمة الموجبة لأزدياد العمران،.. وعلى الأخص إنشاء هذا المجلس. وشكر الأعضاء على سديد أفكارهم التي أبدوها أثناء مداولاتهم. أما كيف تمت هذه المداولات.. وماهى القضايا التي تداولوها.. فهو الذى يهمنا ونحن نرصد بدايات الحياة النيابية..

حول طريقة المناقشات وحدودها يقول الراقى: كان للمجلس أن يتداول فيما تعرضه عليه الحكومة من الشئون ويبدى رأيه فيها، كما أن له أن يتداول فى الاقتراحات التي يقدمها أحد الأعضاء، فإذا تقدم عضو بأى اقتراح، يعرضه رئيس المجلس على الهيئة لتتحدث أولاً فى: هل تنظر فيه أم لا.. فإذا استقر رأيها على المداولة فيه ترسل صورته إلى المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) ليحاط به علماً، ثم يطرح على بساط البحث، ويتداول الأعضاء فيه، ويحيلونه فى الغالب على لجنة تنتخبها الأقلام (اللجان) فإذا أتمت اللجنة بحثه قدمت عنه تقريراً يطبع ويوزع على الأعضاء، ثم يتداولون فيه، وإذا استقر رأى المجلس على قرار فى موضوعه، يرسل القرار إلى المعية الستية لعرضه على الخديو ليقرر فيه

مايراه ، وإذا استدعت المناقشة حضور بعض كبار الموظفين لتوضيح وجهة نظر الحكومة يحضر الناظر (الوزير) المختص أو الموظف الفني فيدلى بالإيضاحات المطلوبة ، ويكون حضور الناظر أو كبار الموظفين بناء على طلب المجلس أو برأى الحكومة .

مقترحات الأعضاء :

أما المقترحات التي تقدم بها الأعضاء وشغلت جلسات الدور الأول فتعطينا صورة عن القضايا التي كانت تشغل الرأي العام في ذلك الوقت . وقد استخلصها الرافعي من المضابط الأصلية المحفوظة في مكتبة البرلمان . ويرجع الفضل في جمعها وتبويبها وتنسيقها إلى الأستاذ محمد خليل صبحي رئيس قلم مكتب مجلس النواب . فأدى بهذه الجهود خدمة للتاريخ يستحق من أجلها الشكر والثناء . وقد أوجز الرافعي أهم المقترحات التي بحثها مجلس شوري النواب فيما يلي :

١ - أول المقترحات التي تقدم بها الأعضاء اقتراح من هلال بك أحد نواب الدقهلية في بحث مسألة السخرة ووضع نظام يخفف من وطأتها ، فتداول الأعضاء عدة جلسات في هذه المسألة ، ثم أحيلت على لجنة (قومسيون) سميت لجنة (العمليات) مؤلفة من خمسة أعضاء ، وهم محمد بك سعيد ، وحسن أفندي شعراوي ، ويوسف محمد ، والسيد أحمد الشريف ، والشيخ محمد الصيرفي .

وقد بحثت اللجنة هذه المسألة واشترك معها في البحث إسماعيل باشا صديق وسلامة بك إبراهيم ، وثاقب باشا ، وعلى بك مبارك ، وكان إقاد هؤلاء المهندسين من طرف الحكومة لارتباط مسألة السخرة

بمشروعات الري والهندسة، فقدمت اللجنة تقريراً مطولاً خلاصته
تنظيم السخرة على أساس اعتبارها من المنافع العامة، وأنها مفروضة
على من تتراوح أعمارهم بين ١٥، ٥٠ سنة من أهل البلاد التي تستفيد
من أعمال السخرة، وجعلها مبنية على قاعدة المساواة بين الأهليين
(والمساواة في الظلم عدل)، فوافق المجلس على تقرير اللجنة، وطلب
عمل إحصاء للأنفس تطبيقاً لهذه القاعدة حتى يؤخذ الأنفار للسخرة
بالدور.

واستتبع بحث السخرة إثارة مسألة أخرى أوعزت بها الحكومة،
وكان المجلس في غنى عنها وهي ضريبة على المواشي وحثها في
ذلك أن أعمال المنافع العامة التي تنفذ بواسطة السخرة تقتضى مهمات
وأدوات يجب شراؤها بالثمن، ولما كانت المواشي الموجودة بالأقاليم
مخصصة لأعمال الزراعة، فوجب أن يفرض عليها مقدار معلوم من
الضريبة، بما يوفى ثمن هذه المهمات، وعلى ذلك وافق المجلس على
فرض هذه الضريبة، ومقدارها عشرون قرشاً في السنة على كل رأس
من مواشي الزراعة كالأبقار والجاموس والثيران والخيول والبغال، أما
الجمال ففرض على كل رأس منها ثلاثون قرشاً، وعلى كل رأس من
الحمير عشرة قروش، واستثنيت من هذه الضريبة مواشي المدن
والبنادر.

٢ - اقترح إبراهيم أفندي الشريعي رئيس لجنة المديا، النظر في
مسألة تقسيط الأموال الأميرية، وتحديد مواعيد لدفعها تسهيلاً لسدادها،
فأحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء وهم: محمد
أفندي شعير، ونصر الشواربي، وميخائيل أثناسيوس، ومحمد عفيفي،

ورأى أبو ستيت، ورأت اللجنة وجوب تحديد مواعيد للسداد فى أوقات
جنى المحاصيل توفيراً لراحة الأهالى فى دفع الأموال، وقد حضر
حافظ باشا وزير المالية إلى المجلس بعد أن قدمت اللجنة تقريرها فى
هذا الموضوع، وأوضح وجهة نظر الحكومة، وهى أن رأى المجلس فى
محلّه، ولكن الحكومة لا يمكنها تعديل مواعيد الضرائب لأنها مرتبطة
بدفع فوائد ديونها فى المواعيد المحددة لسداد الأموال، واستحسن تأجيل
النظر فى هذه المسألة إلى السنة المقبلة، إذ ينظر المجلس فى مسألة
الديون ومسألة التقسيط معاً، فأقر المجلس ذلك.

٣. اقترح أتربى بك أبو العز أحد نواب الغربية، تعميم المدارس
(الابتدائية) بإنشاء مدرسة فى كل مديرية، فأقر أعضاء المجلس
الاقتراح وحبذوه، وظهر منهم الميل الشديد إلى تعميم التعليم بين
طبقات الأمة كافة، وأحالوا المشروع على لجنة مؤلفة من عمر أفندى
أبو يحيى، ومحمود حمودة، وعلى سيد أحمد، والسيد محمود العطار،
وأحمد أفندى أباطة، وأنهت اللجنة فى تقريرها إلى وجوب إنشاء
مدرسة فى كل مديرية وكل محافظة، ويكون التعليم فيها مجانياً،
وحضر شريف باشا ووافق باسم الحكومة على تقرير اللجنة، غير أنه
طلب تأجيل إنشاء المدارس فى السويس والقصير والعريش حتى يتم
إنشاء المدارس فى المديرىات والمحاافظات الأخرى، فوافق المجلس على
ذلك، وأقضى شريف باشا فى بيانه بالجهد الذى تبذلها الحكومة فى
سبيل نشر التعليم، وأنهى إلى المجلس أن الخديو وقف على المدارس
جميع الأطنان التى يتألف منها تفتيش الوادى، فقابل المجلس هذا البيان
بالشكر والدعاء للخديو.

٤ - اقترح سليمان أفندي عبدالعال من نواب أسبوط الخطر في وضع نظام لسندات التعامل بين الناس، وأحيلت هذه المسألة على اللجنة المؤلفة لبحث مسألة التقسيط، وحضر إسماعيل صديق باشا حين المناقشة فيها، وأنهى إلى المجلس أن الحكومة مشغولة بسن قانون عن الرهن.

٥ - اقترح ميخائيل أفندي أثناسيوس من نواب المنيا إلغاء نظام العهد (جمع عهده)، وخلاصة هذا النظام أن الحكومة في عهد محمد علي باشا كانت تعهد إلى بعض الأعيان والأمورين ورجال الجهادية جباية ضرائب بلاد بأكملها ممن كان أهلها غير قادرين على زراعة جميع زمرانها أو متأخرين في سداد مالها، فكان المتعهدون يتكفون بسداد الضريبة من مالها الخاص إذا لم يجبوها من الأهليين، وقد أدى هذا النظام إلى إرهاب الفلاحين لأن المتعهدين كانوا يسخرونهم لمصالحهم الخاصة فألغته الحكومة سنة ١٨٥٠ إذ أصدرت أمرها باسترجاع البلاد من المتعهدين ثم عاد العمل به في أوائل عهد إسماعيل، فضج الناس من مساوئه، فلا غرو إن قول اقترح ميخائيل أفندي أثناسيوس بالاستحسان.

وحبذا الأعضاء فك العهدة وإعادة الأطيان إلى أصحابها، ثم قرروا إحالة المسألة على لجنة التخبث لهذا الغرض، مؤلفة من الشيخ العدل أحمد، وأحمد علي، والحاج شذا يوسف وأحمد عبدالصادق، ومحمد الوكيل.

وانتهت المناقشة في الموضوع بأن قرر المجلس فك العهد جميعها ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ ووافقت على هذا القرار ونفذته.

٦ - اقترح محمد أفندى حمادى من نواب جرجاء وضع نظام لضبط عملية تحصيل الأموال فى المديرىات لمنع العبث فى قيد المتحصلات، وذكر أن الأهالى فى الوجه القبلى يدفعون المال ليد (الشاهد) ويقيده ما يدفعونه فى ورق عادة ويبقى المتحصل عند (الشاهد) لآخر الشهر حتى يحضر الصرف، وإنه لطول المدة وعدم القيد بالدفاتر المعتمدة يحصل الخبطة ومغشوشية فى الإيراد.

٧ - اقترح سليمان أفندى الملوانى من نواب الغربية، منع مجازاة العمد بالضرب، وقال الشيخ محمد الشواربى بمنع الضرب عن العمد وغيرهم من الأفراد، وأن يرفع من القانون النص الذى يبيح الضرب للحكام، وتناقش الأعضاء طويلا فى هذه المادة، ثم صرح رئيس المجلس بأن القانون الذى تجرى الحكومة وضعه وتنقيحه منصوص فيه على منع الضرب فاكتفى المجلس بذلك.

٨ - اقترح هلال بك النضر فى الأطنان الناشئة عن زيادة المساحة من صالحة وبور، وإضافتها بالأمال إلى أصحاب الأطنان المتداخلة فيها أو الملحقة بها.

٩ - اقترح الشيخ محرم على من نواب الدقهلية فتح قنطرة البوهية وإزالة ما بها من السدود التى تجرى المياه فى ترعة البوهية ولا تحرم بلاد مركز السنبلاوين من الرى

١٠ - اقترح الشيخ العدل أحمد من نواب الدقهلية. إعادة قنطرة البحر الصغير على النيل بدلا من فمه كان على ترعة المنصورة لسهولة وصول مياه الرى إلى البلاد الواقعة عليه.

١١- واقتراح على بك خفاجي نائب دمياط توصيل مياه ترعة الشرقاوية إلى البلاد الكائنة بشطوط دمياط .

١٢- واقتراح كل من حميد أوسديت ومحمد سحلي من ثواب قنا إصلاح الري بحوض سمهود الواقع على حدود مديرية قنا وعمل مصرف للحوض المذكور .

وفي تعليق الراجعي على مقترحات الأعضاء ومداولاتهم بأنها كان يبدو عليها حسن القصد، والرغبة الصادقة في خدمة المصالح العامة، وإصلاح حالة البلاد من الوجهة الاقتصادية، وتحسين حالة الأهاليين الإجتماعية، كما يبدو عليهم الإئذان في الآراء، وسلامة المنطق، والخبرة بالمسائل المحلية التي تباحثوا فيها، وكان يعوذهم - إلى حد ما - الاستقلال في الرأي، والإصطلاح بالمسائل العلمية والمالية، أما الحكومة فكانت تعني بتتبع مباحثات المجلس . وتوفد رجالها في بعض الجلسات للاتصال بالأعضاء في مباحثهم وإطلاعهم على وجهة نظرهم، وكان حضورهم يحكم صلة التفاهم بين الأعضاء والمجلس، وكان أكثر رجال الحكومة عملاً في هذا الصدد:

إسماعيل باشا صديق مفتش عموم الأقاليم وقتئذ، وصاحب الحظوة الكبرى عند الخديو إسماعيل .

ولم يتناول الأعضاء في مباحثهم بدور الانعقاد الأول إلا الإصلاحات المحلية ، أما المسألة المالية التي كانت تشغل الأفكار في ذلك الحين فإنهم لم يعرضوا لها، كما لم يطلبوا إطلاعهم على ميزانية الحكومة ليتباحثوا فيها، ولم يبدأ تطلعهم إلى البحث في المسألة المالية إلا في دور الانعقاد الثاني .

قصة كاذبة :

وقبل أن نمضى مع مجلس شورى النواب فى دورته الثانية يهمنى الإشارة إلى قصة روج لها بعض الكتاب الأجانب حول موقف المعارضة ومكانها أثناء الجلسة الأولى للمجلس . فقد زعموا أن شريف باشا - وزير الداخلية إذ ذاك - تحدث إلى النواب أثناء دخولهم القاعة ، وأفهمهم أن المجالس النيابية تنقسم دائماً إلى حزبين : أحدهما حزب يؤيد الحكومة ، والآخر يعارضها ، وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم هذين الحزبين . ويختار كل منهم الحزب الذى يتفق مع مصلوه ، فالأعضاء المؤيدون للحكومة يجلسون على اليمين ، ونواب المعارضة يجلسون فى اليسار ، وتمضى الراوية الموضوعة فتزعم أن النواب استذكروا أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة (١١) وجلسوا جميعاً فى مقاعد اليمين إعلاناً عن ولائهم للحكومة والعرش .. فأفهمهم شريف باشا أنه لا بد أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار .. فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعهم إلى مقاعد اليسار (١٢) .

وقد تكفل الرافعى بتفنيد هذه القصة المختلفة التى تهدف إلى التهكم والسخرية من الحياة النيابية المصرية فى مراحلها الأولى . فهى ولا شك من مخترعات بعض الكتاب الأوربيين الذين يطيب لهم اختلاق أساطير هذه الحكاية . يقول : لقد بحثنا كثيراً فلم نجد لها سنداً من أقوال شاهد عيان ولم يرد ذكرها ولو تلميحاً فى مضابط المجلس . على أن الراوية فى ذاتها لا يسيغها المنطق ، فإن نظام المجلس وحدوده واختصاصه ملابساته ، كل ذلك لا يدع مجالاً لتأليف حزب للحكومة وحزب

للمعارضة .. فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق أصلاً، هذا من الجهة .. ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (جليون دنجلار) حوادث مصر في الفترة من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧٥ وله عن مشاهدات فيها مذكرات ورسائل تكام فيها عن مجلس شورى النواب، فلم يذكر هذه الحكاية، ولا أشار إليها، ولو كان لها ظل من الواقع لما فاتته أن يذكرها، وهذا يقطع ببطلانها، وكل ما ذكره المسيو دنجلار، عن موقف المعارضة في المجلس: أنه ظهر من بين أعضائه نائبان معارضان أبديا رأيهما بما يخالف وجهة نظر الحكومة، فكان جزاؤهما الطرد من المجلس بأمر الخديو باعتبار أنهما عضوان مشاغبان وخطر على الأمن العام (١١) .

فهذه الرواية يسيغها العقل ويؤيدها المنطق، فإن نزعة الحكومة الاستبدادية تأبى أن يقف نائب في ذلك العصر موقف المعارضة، فلا غرابة أن تبادر الحكومة إلى طرد النائبين المعارضين من المجلس، وكنا نود إن نعرف من هما هذان النائبان الجريئان اللذان ظهرا بهذا المظهر المشرف في أدوار الانسقاد الأولى لمجلس شورى النواب ولكننا لم نظفر بهذه الأمتية (١١) .

الفلاح الفصيح

لكى نكون منصفين فى الحكم على مجلس شورى النواب يجب أن نعيد قراءة خطبة العرش التى تليت باسم إسماعيل صبيحة افتتاح المجلس بالقلعة فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ م، والتى حدد فيها إسماعيل مهمة المجلس فى التداول فى المناقح العامة وإبداء الآراء السديدة ، وجرى الأعضاء من أوليات حقوق المجالس النيابية، وهى مناقشة الميزانية العامة للبلاد.. ولقد رأيت كيف استهل إسماعيل خطبته بذكر مناقب جده محمد على وأبيه إبراهيم باشا وما لهم على مصر من أفضال جعلتها مليئة عامرة بالخيرات بعد أن كانت خاوية على عروشها. كما عرضت عليك رأى المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ، فى هذه الخطبة وكيف أنها وثيقة هامة فى تاريخ الحياة النيابية بمصر، وأنها فى مجموعها سديدة المعانى، وجيزة العبارة ، وقررت قاعدة الشورى فى نظام الحكم.. إلخ.

أرى من كمال البحث، واتساع الرؤية أن أعرض عليك رأيا آخر ليسأحت معاصر هو الدكتور لويس عوض، ففى رأيه أن أهم المعانى

التي قصد الخديو إسماعيل إيصالها إلى الأعضاء - ليس مجرد التباهي بما أداه جده وأبوه لمصر من خدمات - وإنما إعلانه بأنه يعد عهده امتدادا واستكمالاً لعهد محمد علي إبراهيم باشا، وإدانتته صراحة لعهد عباس الأول وسعيد باشا الذي عده انقطاعاً بل انقلاباً في تاريخ مصر الحديث. وهذا - في رأي لويس عوض - بمثابة إعلان من جانب إسماعيل أن سياسته مبنية على المبادئ التالية: أولاً: بناء الدولة العصرية بكافة مقوماتها المادية والمعنوية على أرض مصر.

ثانياً: اتباع سياسة استقلالية عن الباب العالي على عكس عباس الأول، واستقلالية عن الدول الأوروبية على العكس سعيد.

ثالثاً: تدعيم روابط مصر بأوروبا لبناء الدولة العصرية على غرار ما فعل محمد علي إبراهيم باشا بمنطق تعامل الند من الند.

أما المعنى الثاني الهام الذي أراد الخديو إسماعيل إيصاله لأعضاء برلمانهم الأول فهو أن حدود اختصاصهم تقف عند السياسة الداخلية وليس لهم أن يتدخلوا في السياسة الخارجية.

وأما المعنى الثالث الهام الذي اهتم الخديو إسماعيل بإبرازه، فهو أنه يعتقد فقط بحدود الشورى التي قالت بها الشريعة الإسلامية، فالمجلس إذن مجرد مجلس استشاري، وليس له أن يتصور أنه سلطة شعبية داخل الدولة يمكن أن تملأ إرادتها على العرش أو على السلطة التنفيذية. (راجع كتاب الدكتور لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ المبحث الأول: الخلفية التاريخية - الجزء الثاني - الهيئة العامة للكتاب).

باطن المعانى :

ويمتد الخلاف بين رأى لويس عوض والرافعى إلى خطاب الرد على خطبة العرش الذى أعده عشرة من أعضاء المجلس . فالرافعى تنقد الخطاب ووصفه بأنه ملىء بالزراية، وصيغ فى قالب تمجيد تقديس للذات الخديوية يكاد يقترب من العبودية، وفى اعتقاد لويس عوض أن الرافعى أخطأ الفهم لأنه وقف عند الحروف والعبارات ولم تغفل فى باطن المعانى . بل يرى أن الرد على خطبة العرش نموذج جدد من خطبة الفلاح الفصيح الذى غلف مطالبه فى معصول الكلام، عبر عن مراده بالأدب المصرى التقليدى الذى يحسبه من لا يفهم مصريين نفاقا ورياء .

وهذا نص الرد على خطبة العرش :

«بعد ما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة، الجامعة جوامع الكلم جليلة، نبادر إلى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح وكمال الارتياح . نقول: إن ما قطعناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سواف ديار المصرية، أنها كانت فى الأعصار الخالية راقلة فى حلل المفاخر الحالية، وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر، معترفة أنها مغترفة فى الأصل من نيل عوارفها الزاخر . لكن لتداول أيدي من م يحسن تدبير ملكها من الملوك السالفين ، تناوبتها نواب الزمن، تناوبتها أيدي المحن، حيناً بعد حين، فاندurst معالمها الباهرة انطمست آثار مفاخرها الزاهرة، ولعبت بها أيدي الدهور وتكاثرت فيها حروب والشرور حتى رجعت القهقري واصبح غيرها من الممالك فى

أنواع التمدن متقدما وملكها متأخرا وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة مما صاروا به فى غاية الحقارة والمهانة، إلى أن أراد الله تعالى أن يعيد شبابها بعد الهرم، ويجدد ما كان من بنيان محاسنها قد انهدم ويثقف أهلها من هذه المهالك، وينظمها فى سلك أحاسن الممالك؛ فشرفها بجد العزيز جنتم كان محمد على باشا، فأعاد لها من العمارية ومحاسن الآثار الأصلية ما كان قد تلاشى، وأفرغ وقالبه فى إصلاح حالها، وأعمل سديد رؤية وشديد عزمه فى إعادة جمالها وكمالها. حتى أزاح عنها تلك الروخامة وألبسها حلل الشهامة والفخامة وأحكم معالم الإحكام وأقام بها دعائم العدل بين الأنام، ودون فيها دواوين المعارف المتسقة. وجمع بها أصناف المآثر المفترقة. وجدد فيها القوانين العسكرية وأنشأ دواوين المدارس العلمية والحكومية حتى ظهرت بعد الخفا وازهرت أفنتها بزهور الصفا، وعاد إليها من البهاء والبهجة ما كانت فقدته فى سالف الأيام، وانتظمت مصالحها الإهلية والملكية بحسن تدبيره أحسن نظام، مع ما فازت به من غرائب الصناعات الفائقة، وعجائب الآثار الرائقة، مما شوهد لنا جميعا، وتبوأنا به بيتا من العز رفيعا، فضلا عما أورثها من الغنى الأتم والفخار الأعم من الاستحكامات الملكية وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار وصيرنا بحمد الله متقدمين فى درجات العمار.

وقد كان والد العزيز الأكرم عوننا لوالده، وهو الجد الأمجد من حال حياته ممضيا الطرق الموصلة إلى التقدم والعمار بسديد آرائه وشديد عزماته. ولما آلت إليه الحكومة سلك سبيل أبيه، وبنى على تأسيساته الباهرة مما حسن مساعيه، وأخذ ينشئ ما يكمل به رونق الوطن،

ويجدد من العمارية والآثار الجليلة ما يبقى على ممر الزمن: من إنشاء المجالس الحقانية وتكثير الرجال الحربية والاستحكامات الملكية، وغير ذلك مما عقدته نيته، وأضممرته طويته فحسدتنا الأيام عليه فلم نتمتع بنافع حكومته إلا قليلا حتى نقله الله إليه. ثم تولى على الأقطار المصرية ولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة إلى أن نفحتنا النفحات الإلهية، واسعفتنا العناية الريانية بالحضرة الإسماعيلية، وأعطى القوس باريها، لطف من الله بهذه الديار ومن فيها، وتولاها، العزيز بن العزيز ذلك الجانب الأفخم، والدواري الأكرم فقام في تنظيم أمورها على ساق وقدم وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تجديد ما انهدم وإحياء ما انعدم وأخذ يداوى تلك العلل، ويسد ما تخلل بعد أبيه من الخلل وسعى في مقاصد أبيه وجده باذلا في مواجهات التقدم والتمدن الوطني غاية جهده، شاغلا باله باقصى أنواع العمارية، مديرا فكره فيما يستدعي لهذه الأقطار كمال الرفاهية، فأبدى من ذلك ما لم يكن في الحساب وأراها من البهجة وأسباب الثروة ما لم تره في سالف الأحقاب، ورتب ملكها أحسن ترتيب، ونظم عقده في سلك غريب بأسلوب عجيب. ومن تمام عناية رب العالمين أن ألهم سلطاننا الأعظم، ولا غرو لأن الملوك من الملهمين، حصر وراثته الحكومة على التأبيد في نسل إسماعيل بأن يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد: فيالها من فكرة جليلة رائقة أسست في هذه الديار من دواعي العمار الأسباب الفائقة، واستلزمت تحسينا لأحوالها وتأمينا لحالها واستقبالها أطال الله عمر سلطاننا المهاب، وذلك دعاء إن شاء الله مستجاب. ثم ازدادت الهمهم

الاسماعيلية بصرف أفكاره الخيرية العالية، فيما يعلى قدر الوطن، ويرقى انتظام حاله على أسنى سُنن، ومن كمال همته السنية، وتماز رَأفته ورحمته بالرعية، وشغفه بدوام راحتهم وتماز رفاهيتهم، اقتضت إرادته العلية إنشاء مجلس شورى أهلية وطنية، لما يعلمه من أن جمع الآراء فى أمور العالمين، والمداولة فى مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجهات كمال الالتئام، وتماز راحة الأنام. وفوض أعضاء ذلك المجلس لعموم الأهالى حتى ما يحكمون فيه من الأمور بواقع مألوفهم وعرض جميع ذلك إلى حضرة الوالى تبرؤا من غوائل المغدورية، وتوفيرا لدواعى العدالة العمومية. فكلنا نحن المنتخبين من سائر الجهات، المصادقين بموسم دولة الحضرة الخديوية بأمر الأوقاف.

وإذا كان إنشاء هذا المجلس الأنيق من أجل المساعى الحميدة، وأتم نعمة أسداها وفوض ولى النعم عبده، فمن الواجب الأهم التشكر لتلك الحضرة العلية، والتباهى بتلك المنقبة البهية. ورفع أكفنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات فى أجل الأوقات وسائر الحالات أن يخلد عز قلمنا هذا بدوام سعود أفندينا الأفخم وولى عهده حضرة محمد توفيق باشا الأعز أفكارهم بجاه خاتم الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. (الرافعى: عصر إسماعيل، ج ٢).

الاعتراض الوحيد:

والا اعتراض الوحيد، من جانب لويس عوض، على هذا الرد الذى وضعت له لجنة الرد على خطاب العرش هو أسلوبه السقيم القائم على

الإسراف في الكليشيهات اللغوية والجداس وبقية زخارف المقامات وقد كانت خطبة العرش أرقى أسلوبا وأشد تركيزا من رد النواب. ومع ذلك فلا ينبغي أن يصرفنا ذلك عن تأمل المعانى التى تضمنها هذا الرد.

وأهم ما جاء فيه أنه يبدأ بتصحيح كلام إسماعيل فى أدب شديد. إسماعيل يقول: إن جده محمد على أنتشل الشعب المصرى من العدم والانحطاط فجعل لمصر كيانا ونشر المدنية فيها، فيجيبه النواب بأن مصر لم تكن دائما زرية ولا منحطة وإنما كل من يدرس «الاخبار التاريخية» و«سوالف آثار الديار المصرية» يعرف أن مصر كانت فى تاريخها القديم أم المدنية والعمران وينبوع العلوم والفنون والآداب الذى ارتوت منه كل الحضارات الأخرى باختصار: لا تباها بجدهك العظيم فنحن أيضا لنا وجود أعظم. والمبدأ الثانى الهام الذى أوضحه نواب البلاد هو أن انحطاط الأمة المصرية بعد مجدها القديم لم يكن من انحطاط المصريين أنفسهم ولكن من انحطاط ملوكهم: «لكن لتداول أيدى من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السابقين، تتناوبتها نوائب الزمن». والشاهد على ذلك يا مولاي أن ملكين من أسرتك، عباس وسعيد، خربا كل آيات المدنية والعمران التى أقامها الملكان الآخران محمد على وإبراهيم باشا، على أرض مصر. وإعلان مبدأ أن فساد الأمم من فساد ملوكها، إعلان خطير لأن فيه تحميلا ضمئيا لإسماعيل نفسه للمسئولية عن عمار مصر أو خرابها.

والمبدأ الثالث الهام الذى أعلنه النواب يشبه أن يكون برنامجا للعمل رسمه النواب للخديو إسماعيل فخطبة العرش غامضة ليس فيها تفصيل واحد عما ينتوى الخديو إن يفعله لمصر غير قوله أنه سعيد بأنه

سيستكمل ما بدأه محمد علي وإبراهيم باشا من المدنية والعمران . أما النواب فيحددون له أن محمد علي وإبراهيم باشا لم يجددوا مجد مصر القديم إلا بالعمل على إزالة الفساد والقوضى المملوكية بإزاحة «الوخامة» وعلى إقرار الأحكام وإقامة «دعائم العدل بين الأنام» وعلى نشر التعليم «وإنشاء دوائر المدارس العلمية والحكمية»، أى إنشاء مدارس العلوم والآداب وعلى بناء قوة مصر العسكرية «من الاستحكامات الملكية» وإحكام العطيات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار، وتأنبت على محمد علي وحطمنه .

والمبدأ الرابع الذى أعلنه الرد على خطاب العرش هو إدانته لعهد عباس وسعيد بوصفه عهدا مخزيا للمدنية «ثم تولى على الأقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة، وضعفت حركة تقدمها الفائقة» . أما المبدأ الخامس الذى أعلنه النواب فى الرد على خطاب العرش فهو أن المصريين يعدون نجاح إسماعيل فى تغيير فرمان وراثته العرش فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ عملا حضاريا خطيرا، لأن نظام الوراثة العثمانى الذى كان يحصر وراثته العرش فى أرشد أعضاء البيت الملكى ملأ القصر الملكى بدسائس الأمراء والطامعين ورجال البلاط فخرّب الحياة السياسية المصرية وحال دون استقرار البلاد.

ومن أهم ما ورد فى الرد على خطبة العرش اصرار النواب على تلقيب الخديو إسماعيل أنا «بعزيز مصر» (وتولاها العزيز بن العزيز) وأنا آخر «بسلطان مصر» (أطال الله عمر سلطاننا المهاب) ، رغم علمهم بأن

الباب العالي رفض تغيير لقب إسماعيل إلى «عزيز مصر» حتى لا يصبح السلطان عبدالعزیز عبدالعزیز، كما رفض تغيير لقبه إلى «السلطان إسماعيل» لأن لقب «السلطان» يضع وإلى مصر التابع على قدم المساواة مع سلطان تركيا المتبوع، فتم التراضى على أن يحمل إسماعيل لقب «الخديو» التي يقال أنها تعنى شيئاً قريباً من «الإلهي» باللغة الفارسية واصرار الثواب على التمسك بلقب «العزیز» أو بلقب «السلطان» يحمل معنى التحدى للباب العالي والنزوع إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية .

ديكور.. أم منحة:

والخلاف بين الراقعي ولويس عوض حول تقويم مجلس الشورى لا يقف عند تحليل خطاب العرش والردود عليها، وإنما يمتد إلى فكرة إنشاء المجلس نفسه والأسباب التي دفعت الخديو إسماعيل إلى خوض المعتزك البرلماني، مما ألقى على المجلس شبهة «الديكور» أو «المنحة».. وهو ما يقول به الراقعي، وهو ما يرفضه لويس عوض في فصل من أمتع فصول كتابه المذكور فيقول:

الشائع بين المؤرخين أن الخديو إسماعيل حين استحدث في مصر الحياة النيابية فأنشأ أول برلمان مصري باسم «مجلس شورى النواب» في ١٨٦٦، إنما فعل ذلك تحقيقاً لسياسته العامة وهي أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا. وبهذا تكون الحياة النيابية في مصر «منحة» من الخديو، وليست ثمرة كفاح ديمقراطي أو مطالبات شعبية، مما يفض من أهلية الشعب المصري للحياة الديمقراطية. وهو رأى لم يسأم الاستعمار البريطاني من ترديده ليس فقط في عصر إسماعيل، ولكن

طوال فترة الاحتلال البريطاني من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٦ . وقد شارك الاستعمار الأوربي الاستعمار البريطاني هذا الرأي الذي تبناه الاستعمار الأمريكي أيضا بعد خروج أمريكا من الحرب العالمية الثانية الدولة الأعظم بين الدول العظمى . وقد كان طبيعيا أن يتبنى الاستعمار هذا ليتسنى له حكم مصر بالحديد والناز مباشرة أو من خلال الأوتوقراطية المصرية المستبدة لكي يجمع إرادته ويعرقل تقدمه ويحول دون خروجه من ظلمات العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث، فيضمن بذلك تبعيته وييسر نهبه .

وقد وقع في هذا الفخ مؤرخ كبير مثل عبدالرحمن الرافعي حيث يقول في الجزء الثاني من كتابه «عصر إسماعيل» ثم إن تأسيس هذا المجلس من غير أن تتبعه حركة مطالبية من الأمة جعله يأخذ شكل المتحة، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ونفوذه يكاد يكون شكليا . ومن جهة أخرى فنظام الانتخاب كان له أثر بال في تكوين المجلس، ذلك أن حصر حق الانتخاب في العمدة والمشايخ أسفر عن انتخاب معظم النواب من بين العمدة وأعيان البلاد، حتى صار جديرا بأن يسمى «مجلس الأعيان» . وهو يقول:

«ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية في شئون الحكم، وخاصة في مسألة الضرائب والقروض، لبعث فيه روحاً من الحياة والنهضة ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت في حاجة إلى رقابة فعلية تتولاها هيئة نيابية . ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حدا للقروض الجسيمة التي تلاحقت في عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبي في شئون مصر» .

وفى تقديرى - يقول لويس عوض - إن المثاليين من طلاب الكمال دفعة واحدة ينتظرون من كل شيء أن يكون كالسيد البدوى، يولد بأسنانه كاملة، ويريدون من الطفل أن يمشى دون أن يحدو ويتعجلون أن يروا فى مصر مجلس العموم البريطانى أو البرلمان الفرنسى دون ثورات أو فلسفات ثورية سابقة. ومع ذلك فهم يعلمون أن ٨٠٠ سنة من التاريخ الإنجليزى والتشنجات الشعبية الانجليزية تفصل الماينا كارتا Magna Charta (١٢١٥) أيام الملك جون King John عن البرلمان الانجليزى اليوم، وإن قرونا دموية تفصل مجلس الطبقات Etats G'e'neraux (١٣٠٢) أيام الملك فيليب الرابع Philippev عن البرلمان الفرنسى اليوم. ومع ذلك فهم يعلمون أن البرلمان الانجليزى احتاج إلى حرب أهلية امتدت خمس سنوات من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٥ وإلى اعدام ملك هو شارل الأول ليقرر مبدأ أن التاج الانجليزى لا يحق له فرض الضرائب دون موافقة البرلمان أى بعد أربعة قرون من الماينا كارتا، تاريخ بدء الحياة الدستورية فى إنجلترا.

وهم يعلمون أنه حتى صدور قانون التصويت العام فى إنجلترا عام ١٨٦٠ كان حق انتخاب أعضاء البرلمان الانجليزى محصوراً فىمن يدفعون للدولة ضريبة قدرها ٥٠ جنيه سنوياً، وإن هذا النصاب كان قبل قانون الإصلاح الأعظم فى ١٨٣٢ مائة جنيه سنوياً.

وفى فرنسا تقرر مبدأ التصويت العام فى دستور ثورة ١٨٤٨ فأى عجب أن تبدأ مصر حياتها النيابية عام ١٨٦٦ بمبدأ «حصر حق الانتخاب فى العمد والمشايخ»، وأى عجب فى أن تبدأ مصر حياتها النيابية بإصرار التاج المصرى على الاستئثار بحق فرض الضرائب وعقد القروض بدون موافقة ممثلى الأمة؟

ويستطرد لويس عوض: وليس صحيحاً ما يفترضه الرافعي واللورد كرومر من أن إسماعيل أنشأ «مجلس شورى النواب» ملحة منه ومئة على الأمة المصرية ليزيد من «رونق الحكم وبهائه» بلغة الرافعي أو كمجرد «ديكور» بلغة اللورد كرومر، «من غير أن تسبقه حركة مطالبية من الأمة». فمن يتأمل تحول «مجلس الأحكام» من هيئة عسكرية بحثة في عهد محمد علي وعباس الأول إلى هيئة مدنية تضم أعيان البلاد المصريين وذرائعها الاتراك المتعصرين. ومن يتأمل انتقال الأغلبية في مجلس الأحكام إلى أيدي الأعيان المصريين، ومن يتأمل كثرة صراعات سعيد باشا مع «مجلس الأحكام» إلى حد البطش به مرتين خلال عهده القصير، ومن يتأمل انتقال رئاسة مجلس الأحكام من أحد أمراء البيت المالكي وهو الأمير إسماعيل إلى شريف باشا يستطيع أن يرى بجلاء أن الملوك لا يمنحون وإنما يرصخون صاغرين، ويستطيع أن يرى بجلاء أن سعيد باشا «صديق الفلاح» لم يكن صديق الفلاح لمجرد طيب النوايا وحسن السجايا، وإنما صادق الفلاح تحت ضغط اجتماعي قوى نشأ من استفحال طبقة جديدة تكونت في مصر من أوساط الملاك الزراعيين وغير الزراعيين المصريين هي طبقة المشايخ والعمد، ويستطيع أن يرى بجلاء أن كل حاكم مصري استقلالي النزعة وقع في تناقض أساسي مع الاستعمار العثماني - بل وأي استعمار على إطلاق القول - وقع نتيجة لذلك في مأزق الاختيار بين إرضاء سيده التركي وإرضاء رعاياه المصريين، فأثر إرضاء الرعايا لأنهم في نهاية الأمر رجاله وسلده في تحطيم التبعية على إرضاء سيده الذي لا يكتفى بشيء أقل من التبعية. فلا محمد علي حين أنشأ مجلس المشورة في

١٨٢٩ من ٩٩ من الأعيان المصريين إلى جانب ٥٧ من علماء الدين ورجال الإدارة، ولاسعيد حين أعاد إنشاء «مجلس الأحكام» من ١١ عضوا من الأعيان المصريين إلى جانب أعضائه من الذوات، ولا إسماعيل حين إنشاء «مجلس شورى النواب» بمرسوم ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦ من ٧٥ عضوا ينتخبهم لمدة ثلاث سنوات عمدة البلاد ومشايخها وأعيان القاهرة والإسكندرية ودمياط، لا هذا ولا ذاك ولا الثالث كان يمنح الأمة المصرية «منحة» الحكم النيابي، وإنما كان يتجاوب مع ضغط الطبقات المصرية الجديدة في الريف والحضر التي بدأت تتخلق في مصر درجة درجة منذ أن صفى بونايرت نفوذ المماليك وأملاكهم ومصر الحكم المصري حتى تحولت إلى طبقات قادرة على الحركة الإجتماعية والسياسية وعلى الفكر الإجتماعي والسياسي بعد أن أصبحت قادرة على الحركة الاقتصادية.

وقد سار محمد علي وسعيد وإسماعيل في نفس اتجاه التمهيد والتجاوب مع الضغط المصري للمشاركة في الحكم والإدارة، فواجهوه بهذه المجالس النيابية لا حبا منهم في الديمقراطية، فقد كانوا جميعا أوتوكراطيين، ولكن تحالفا مع المصريين في مواجهة الباب العالي. وقد كان طبيعياً جداً منهم أن يجعلوا من هذه المجالس النيابية مجالس «مشورة» لا مجالس تشريع حتى لا تنتقل السلطة الفعلية من أيديهم إلى أيدي الطبقات الجديدة. وما تاريخ الديمقراطية المصرية إلا تاريخ هذا الصراع على السلطة بين «العرش» و«الأمة» ثم بين «العرش» و«الشعب»، وكان محور هذا الصراع هو أسس الدستور والبرلمان، أما ملوك مصر الذين قبلوا التبعية للباب العالي (عباس الأول وتوفيق وعباس الثاني)

أوقبلوا التبعية لانجلترا (السلطان حسين والملك فؤاد) فقد دخلوا في صراع رهيب مع حركة الديمقراطية المصرية، وحلوا أزمة الاختيار بين السيد الأجنبي ورعاياهم المصريين بالتحالف مع السيد الأجنبي لتجسيد إرادة الأمة المصرية .

فإسماعيل الذي كان يعد لإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية في ١٨٦٩ مع افتتاح السويس أنشأ تمهيدا لذلك «مجلس شورى النواب» منتخبا من أعيان المصريين ليواجه إرادة تركيا بإرادة مصر. وقد أكد هذا معنى خطيرا في التاريخ المصري وهو أن تاريخ الديمقراطية المصرية كان دائما الوجه الآخر من تاريخ القومية المصرية ومن دعوة «مصر للمصريين» في جميع المجالات، ومن تاريخ الكفاح من أجل استقلال مصر. فخريطة مصر السياسية عبر قرنين من الزمان تسجل بصورة رتيبة أن كل عهد بطش بالديمقراطية المصرية كان يقترب دائما بمحاولة نسف القومية المصرية وتذويبها في ولايات وإطارات روحية أو ثقافية أو حضارية أشمل منها ولاسيطرة لمصر عليها تحت شعار وحدة العالم العثماني أو وحدة العالم الإسلامي أو وحدة العالم العربي أو وحدة مصر والغرب أو الشرق .

الأزمة المالية

سواء ولدت الحياة النيابية المصرية فى شكل «منحة» من ولى النعم الخديو إسماعيل، أو جاءت استجابة للأفكار العصرية التى غرس بذرتها رفاعة رافع الطهطاوى فى عهد محمد على ونضجت ثمرتها فى عصر إسماعيل، فمما لا شك فيه أن سنة التطور التى هى أقوى من القوانين والإرادات الخاصة، فرضت على مجلس شورى النواب أن يمشى فى طريق النمو والارتقاء . وجاءت الأزمة المالية التى تفاقمّت بسبب سفه الخديو لتعجل بنضج المجلس الوليد، وتضعه فى موضع المسئولية النيابية، حتى لو تم ذلك على غير رغبة الخديو وهواه، بل نقول أن هذه الأزمة التى استحكمت حول رقبة إسماعيل، فرضت عليه أن يفرغ إلى نواب الأمة، ويستنهض همّهم ليقفروا إلى جانبه فى مواجهة النفوذ الأجنبى الذى استفحل حتى أوشك أن يضع البلاد معها العرش على حافة الهاوية .

ومن هنا نتبين أن الأزمة المالية - وما يتصل بها من فرض الضرائب على الأهالى - كانت سببا من أسباب تطور الحياة النيابية فى

مصر، مثلما حدث في إنجلترا عندما اضطر الملك «جون» إلى التوقيع على وثيقة العهد الأعظم «الماجنا كارتا» في سنة ١٢١٥ ويلتزم بمقتضاها بعدم فرض ضرائب إلا بعد الرجوع إلى البرلمان. الأمر الذي أدى في النهاية إلى تطور النظام البرلماني في إنجلترا، وإعطاء مجلس العموم سلطات كانت حكرًا على الملوك من قبل. وحدث في مصر في أواسط القرن التاسع عشر ما حدث في إنجلترا في القرن الثالث عشر.

سوف نرى في غضون هذا البحث كيف اضطر إسماعيل إلى الاستجداد بمجلس شورى النواب ليسمحوا له بفرض ضرائب جديدة توفر له سيولة نقدية تخفف من القبضة الأوروبية الجديدة التي أخذت بخناقهم. وكان رجوع الخديو - سليل الأتوقراطية والحكم المطلق - كسبا دستوريا هاما، وتحولا خطيرا في مجرى العلاقات الأزلية بين الشعب المصري وحكامه، فلأول مرة يكتسب الشعب هذا الحق الذي افتقده منذ قرون سحيقة حيث كان الحكام والسلاطين والأباطرة ينفردون بفرض الضرائب على الشعب دون استئذان أو استشارة، ويستخدمون في جبايتها وسائل القمع والبطش والإرهاب (١١).

● كيف انتقلت الأزمة المالية من الشرنقة الصماء في قصر إسماعيل إلى دهاليز مجلس شورى النواب؟ وكيف تسالت من أيدي دهاقة المال والبتوك والسماسرة والمرابين إلى أيدي ممثلي الشعب، وقد كان محرما عليهم النظر في هذه الأمور السيادية التي اختص بها الخديو ويطانته؟

لقد مر دور الانعقاد الأول لهذا المجلس (من ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ إلى ٢٤ يناير ١٨٦٧) دون أن تسجل مضايقة المجلس أية مناقشة حول

مسألة الديون أو الضرائب، ورأينا كيف انحصرت مداورات الأعضاء حول مسائل محلية بحتة مثل التعليم وردم البرك ونظام السخرة وإلغاء عقوبة الضرب على العمد وكان أقصى ما وصلت إليه المداورات حول مسألة الضرائب هو اقتراح من إبراهيم أفندي الشريعى (المنيا) بتقسيط الأموال الأميرية (الضرائب على الأقطان الزراعية) وتحديد مواعيد تقسيطها منعاً للفوضى وإلحاق المواطنين، ومع أن الاقتراح كان يتعلق فقط - بتنظيم عملية الدفع، وليس الحديث عن فداحة الضرائب - فإن الحكومة طلبت تأجيل النظر فى هذا الاقتراح إلى السنة التالية نظراً لأن تعديل مواعيد الضرائب مرتبط بدفع الحكومة فوائد ديونها الأجنبية فى المواعيد المحددة لسداد الأموال الأميرية، مع وعد بأن يبحث المجلس مستقبلاً موضوع الديون وموضوع الضرائب وتقسيطها فى وقت واحد، فأقر المجلس وجهة نظر الحكومة.

مسألة عابرة:

كانت هذه هى الإشارة الوحيدة إلى موضوع «الضرائب والديون» التى وردت فى مساجلات دور الانعقاد الأول، وهى - وإن كانت قد جاءت عبر مسألة ثانوية هى تقسيط الأموال الأميرية - إلا أنها إشارة لها دلالة لايجوز أن تفوت على الباحث الذى يرصد التفاعلات التى كانت تجرى فى رحم الحياة السياسية المصرية، وتبشر بميلاد دور جديد للرأى العام المصرى، وأعنى به حق المشاركة فى مناقشة مسألة الضرائب والديون الأجنبية، وارتباط كل منهما بالآخر، وانعكاس كل

منهما على دافع الضرائب الذى أصبح من الآن فصاعداً مسئولاً عن تسديد الديون التى اقترضها إسماعيل .

فى يوم الإثنين ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو اجتماع المجلس فى مكانه المعتاد بالقلعة، وكان يصحبه كبار رجاله وعلى رأسهم شريف باشا رئيس مجلس الأحكام، وعبر الخديو عن أسفه للتأخير فى عقد المجلس عن موعده بسبب وعكة صحية ألمت به وبعد اختيار عبداللله باشا عزت رئيساً للمجلس، قام خيرى باشا بإلقاء خطبة العرش . وهى خطبة طويلة أشار الخديو فيها إلى المسائل التى قررها المجلس فى دورته الأولى، وما أنفذته الحكومة منها، وما لم تنفذه وبيان الأسباب، فذكر مما نفذ: إنشاء مدرستى بنها وأسيوط، والباقي تحت الإجراء، وفك العهد، وإضافة الأطنان الزائدة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة فى المساحة، وضم الأراضى القابلة للزراعة إلى من يرغبها من الأهلىين، وذكر أن ترتيب الأنفار للسخرة بالدور - طبقاً لقرار المجلس - متوقف على إتمام تعداد الأنفس، وأن مسألة سندات المعاملة موقوفة على إصدار قانون الرهون الذى كان موضع البحث .

أما عن مسألة تعديل أفساط الأموال الأميرية فقال عنها خطاب العرش: إن إجراء هذا التعديل لا يخلو من صعوبة، والحكومة لا تقصر عن إجراءاته حسب الإمكان، ووعد بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التى أخرت تنفيذه، وطلب المذاكرة فى هذا الموضوع لتقريره على صورة مستحسنة، وأشار الخطاب إلى مشاريع الإصلاح التى تعترض الحكومة إجراءاتها وعرضها على المجلس للمداولة فيها .

وختم الخطبة بقوله: «والواجب علينا الاجتهاد فى تدارك الأسباب الموصلة إلى عمارة الوطن، والله المرشد إلى أقوم طريق وهذه العناية والتوفيق» .

وأعدت لجنة الرد على خطاب العرش جوابا مشتملا - فى رأى الراقى - على العبارات المألوفة فى تقديم فروض التشكر للذات الخديوية، مع التنويه بمشاريع الإصلاح التى جاءت فى خطبة العرش، وأعرب المجلس عن ابتهاجه لما أذن به الخديو من إطلاع الأعضاء على الأحوال المالية للوقوف على الأسباب التى أخرجت أفساط الأموال الأميرية.

وبالفعل، تشكلت لجنة من ثلاثة أعضاء انتقلت إلى ديوان وزارة المالية والتقت بوزيرها الجديد: إسماعيل باشا صديق المفتش الذى عين فى هذا المنصب مع الاحتفاظ بمنصبه الأصلى مفتشا لعموم الأقاليم، وبهذا القرار الخطير ارتفعت مكانة هذا الرجل الخطير، وتجمعت فى يده خيوط الأمور المالية كلها، ونهيات له الفرصة كى يلعب الدور الأكبر فى إفساد الحياة السياسية بفضل قدراته الفائقة على النصب والاحتيال والكذب والتضليل. وقد وضحت هذه الخصال الذميمة فى أول لقاء له مع لجنة مجلس شورى النواب التى كلفت ببحت مسألة الديون بناء على إشارة من الخديو.

ماذا فعل هذا الأفاق مع اللجنة الثلاثية ؟

لقد أطلعهم على دفاتر مزيفة تحتوى على أرقام وبيانات مضللة، قلبت الرضع المالى من حالة السوء والتدهور، إلى حالة من الانتعاش

والرخاء.. وزعم لهم أن الميزانية تحتوي على فائض في الإيرادات يبلغ مليونين و٥٨٤ ألف جنيه (١١) في الوقت الذي كانت فيه الميزانية تنق من فداحة الديون (١١) ويصف الرافعي هذه الأرقام بأنها مبنية على الكذب والتضليل، وتخالف الواقع من كل الوجوه، فإن مصروفات تلك السنة (٨٦ - ١٨٦٩) زادت على إيراداتها بنحو عشرة ملايين جنيه، استندانتها الحكومة بقروضها المتلاحقة وديونها السائرة (١١) ولم يقم في المجلس أحد يناقش الحكومة ويسألها عن سبب الضيق المالي الذي تشعر به ويستدعي عقد سلفه جديدة، إذا كانت الإيرادات تزيد على المصروفات بالمقدار الذي ظهر في الميزانية (١١) وألف المجلس لجنة أخرى من خمسة أعضاء منهم أعضاء اللجنة الأولى للبحث عن الوسائل الأولى للبحث عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الحالة المالية، فقدمت اللجنة تقريراً تدل القرائن والملابسات على أنه موعز به من الحكومة، واقتُرحت زيادة الضرائب على الأطنان بمقدار السدس وعقد قرض داخلي.

وألقى إسماعيل صديق (المفتش) بياناً أمام المجلس خلاصته أنه، مع مايز عمه من زيادة الإيرادات على المصروفات، فإن الحاجة تدعو إلى زيادة الضرائب وعقد قرض داخلي بخمسة ملايين من الجنيهات، لأداء الباقي من ديون الحكومة، فوافق المجلس على وجهة نظره، وانتهت المناقشة في المسألة المالية بنتيجتين سيكتين:

● الأولى: زيادة الضرائب على الأطنان بمقدار سدس المربوط من الأموال لمدة أربع سنوات (وبعد انتائها تقررت بصفة دائمة).

● الثانية: عقد قرض جديد زاد من عبء القروض، ولم يخصص شيء منه لسداد الديون السابقة، بل ابتلعت سياسة الإسراف التي كان يتبعها الخديو، وينفذها إسماعيل صديق. ولم يعقد القرض الجديد داخل البلاد، بل اقترضته الحكومة في الخارج من بيت (اوينهايم) المالي، ولعلها أرادت بذلك أن تكتم حقيقته وشروطه عن الأنظار، ولم يكن مقداره خمسة ملايين جنيه، كما وعد إسماعيل صديق باشا، بل كان مبلغا ضخما بلغ حوالي ١٢ مليونا من الجنيهات. ويصف الراقعي هذا التصرف بأنه دليل على مبلغ استهانة الحكومة بقرارات مجلس شورى النواب، وانفرادها بالتصرف في المسائل المالية التي تعتبر الرقابة عليها من أخص حقوق الهيئات النيابية.

على كف عفريت:

لقد أخذت الغيوم تتجمع في سماء مصر بسبب استفحال الديون التي اقترضها الخديو من بيوت المال اليهودية في فرنسا وإنجلترا، وبات مستقبل الديار المصرية وكأنه على كف عفريت بعد أن تكالب المرابون والسماسرة على أرض الكنانة، وكلهم يسعى إلى تلبية ظمأ الخديو إلى المال، وكان العقل المدبر لهذه الصفقات الخسيسة هو إسماعيل صديق (المفتش) الذي كان يعرف شيق سيده ومولاه إلى المال. فسخر عبقريته الفذة في النصب والتحايل للحصول على القروض من أي سبيل.

● فمن يكون هذا الوزير الذي كانت حياته وصمة عار في تاريخ مصر الحديث؟ والذي كان يوصف بأنه «الخديو الصغير» وهالصدر

الأعظم المصري، رغم أنه خرج من قاع المجتمع، فهو ابن فلا
وصعوك الأصل، طالما سد أجداده، بل أبوه ذاته، تحت الكريال
وازرق أرجلهم، ودفقت دما من تعاقب السياط عليها.. ولا
تصاريف القدر دفعت بأمه إلى قصر الأميرة «خوشيار» لتعمل ممرضة
لابتها إسماعيل. وبذلك انفتحت أبواب العز أمام إسماعيل صديق ليص
أخا في الرضاغة للخدو إسماعيل، ورفيقا له في مراتع الصد
والشباب.. وظل يرافق الخديو وهو يصعد أريكة الحكم فحظى بالمناصب
العالية ومنها وظيفة «المفتش» على أعمال دائرة الخديو أولا، ثم مفت
على أعمال الحكومة المصرية ثانيا. فلما اطاح الخديو بوزير مالى
إسماعيل باشا راغب، وقع اختياره على إسماعيل المفتش ليتقلد
المنصب الخطير في وقت كانت فيه مالية البلاد تترنح تحت ضربا
أصحاب الديون. ومن المؤكد أن هذا الاختيار لم يكن خالصا لوجهه
والوطن، وإنما لرغبة الخديو في اختيار رجلى يلبى كل نزواته، وإل
صورة وصفية لهذا الرجل الفذ كما رسمها إلياس الأيوبي مؤرخ عص
إسماعيل:

كان إسماعيل صديق هذا رجلا ماهرا في الواقع، ثاقب الرؤ
متفلق الذهن، يدري، كما لا يدري غيره، كيف تستخرج النقود
مدافنها، وكيف يتوصل إلى تحقيق الرغائب وتل الأغراض، لا يوف
فى سبيل إحراز رضا مولاه هاجس، ولا يهمل أن يرتكب دنية، ولا إثم
إذا كانت تلك الدنية وذلك الإثم يعززان مركزه، ويظهرانه فى مظ
الرجل المخلص، وكان علاوة على ذلك، هماما نشيطا، يحب الشغل
ويلج أبوابه برغبة أكيدة.

كما أنه كان كبير المطامع، شبقاً نساء وأموالاً ولذائذ، فما استلم وزارة المالية، إلا وظهر الفرق حالا بينه وبين سلفه، وحل تشهيل الأعمال محل المظل فيها، وألبت بسرعة في الأمور محل التخبيط والتردد، ودفعت الأذونات المالية في أوقات استحقاقها، بدون إبطاء، لإدراك الوزير الجديد ما في عمل ذلك من المصلحة لمركز الحكومة، ولما كان اسماعيل صديق يفتقر إلى الخبرة في الأمور المالية - وإن صحت تسميته ماليا ولادة - فإنه اتخذ أخصاء من ذوي الدراية فيها، وتلقى عليهم دروساً عملية جعلته في مدة يسيرة كفئاً لمقاومة أحذق عمليات السلفيات والاقتراض، ولم يعد يوقفه وسواس، مهما كان نوعه عن السوق مباشرة إلى ما يقصد من الأغراض، وبرع في ضروب المخاتلة براعة حملت البعض على إلباسه بحق قول القائل: إنما أعطيت الكلمة للإنسان لكي يخفي فكره. وظهر ذلك جلياً للماليين الغربيين الذين استمروا حلاوة التوسط بين الخديو والأسواق المالية للأوروبيين.

وسوف نرى صديق هذا الوصف في مسالك المفتش، وبراعته في الخش والتضليل والخداع.

قصة الديون:

لقد ظهر اسماعيل صديق في وقت مناسب تماماً لأطماعه وجشعه وقدرته على جلب الأموال، وهو نفس الوقت الذي اضطريت فيه مالية البلاد بسبب ديون الخديو. وقصة الديون يجب أن تدرس من بدايتها لما لها من آثار جسيمة على استقلال مصر ووقوعها فريسة للاحتلال البريطاني لفترة تزيد على سبعين عاماً.

لم تمتد حكومة مصر يدها إلى القروض الأجنبية طوال عهد محمد علي وحفيده عباس الأول، وكان سعيد باشا هو أول حكام الأسرة العلوية الذي اقترض من الخارج، ومضى إلى حتفه تاركاً خلفه إسماعيل ديناً قدره أحد عشر مليوناً من الجنيهات، وبدلاً من أن يقوم إسماعيل بتسديد هذا القرض ويجفف ميزانية البلاد من أية أعباء خارجية، اكتفى بتسديد الفوائد المقررة على القرض الذي ظل ثابتاً، ولم يمض العام الأول من حكمه حتى بدأ ينتهج سياسة الاقتراض من البنوك الأجنبية. وفي خلال الأعوام الأربعة التالية كانت ديونه قد بلغت أربعة عشر مليون جنيه، بخلاف عشرة ملايين جنيه قيمة الديون السائرة المحلية، وبذلك بلغ مجموع الديون غداة نشأة مجلس شورى النواب: حوالي خمسة وثلاثين مليون جنيه، ورغم أن هذه السياسة الخرقاء كانت موضع استهجان المؤرخين، إلا أن إسماعيل لم يعدم محامياً قديرًا يدافع عنه ويبرر لجوءه إلى الاقتراض. أما هذا المحامي فهو الدكتور لويس بوض. فهو يبرر لإسماعيل الاستدانة من الخارج لأن مشروعاته العمرانية والحضارية، ومشروعاته العسكرية ومشروعاته الاستقلالية تجاوزت حصيلة إيرادات الدولة التي قدرت في الميزانيات «المربية» التي أعدها إسماعيل باشا المفتش بمبلغ سبعة ملايين و٢٩٠ ألف جنيه ورغم أن لويس عوض يعترف بأن هذه الميزانيات «مربية» إلا أنه يعتمد عليها ويوافق عليها لأنها كانت تستخدم في مشروعات حضارية، ومعنى ذلك أنه لا مانع من إرهاب ميزانية البلاد وتهديد استقلالها طالما أنها تستخدم في أغراض حضارية، بل يمضى لويس عوض إلى ما هو أبعد لتبرير مسلك إسماعيل والرد على منقديه في صيغة أدبية

عاطفية فيقول: وكانت أكثر مشروعات إسماعيل التي كان ينفذها بسرعة محمومة لاهثة، وكأنه يسابق الموت أو يريد أن يسطع مجده في السماكين بأسرع مما سطع مجد محمد علي: مشروعات استثمارية طويلة المدى لاتدر عائداً فورياً، ولذا انتفع بها من جاء بعده، ولم يصب هو منها إلا الارتباك المالي، ومثلها: حفر القرعة الاسماعيلية وحفر القرعة الإبراهيمية ومد السكك الحديدية وخطوط التلغراف وتوسيع الموانئ .. الخ. أو مشروعات خدمات مدنية وحضارية بلا عائد مادي مباشر مثل: نشر التعليم وإنشاء الكبارى وبناء الأوبرا والعناية بالصحة العامة، ورصف الطرق وتجميلها، أو مشروعات وطنية تحسب بحساب المجازفة: كبناء قوة مصر العسكرية والتغلغل في إفريقيا، ومشروعات لشراء سيادة مصر بالمال، وهذه يصعب تقييمها

هذه وجهة نظر مفكر ينظر إلى ديون إسماعيل نظرة مستقبلية تقدمية، تتجاوز الواقع المرير الذي عانتته مصر وشعبها، ويتجاهل المصير الذي أنهى باحتلال مصر، ويستشرف خيوط النور التي انبثقت من وراء ليل طويل كالحل السواد.

مجلس الأعيان

فى يقين بعض الباحثين فى تاريخ الخديو إسماعيل، أنه لم يشرع فى إقامة حياة شبه نيابة، إلا بعد أن ظهرت بوادر الأزمة المالية التى نجمت عن سياسة الاقتراض الويلة، وما جلبته على ميزانية البلاد من خراب، فتفتق ذهن إسماعيل عن فكرة قيام مجلس شورى النواب ليكون مجمعا لأعيان البلاد وكبار ملائكة الأقطان، وهم الذين يتحملون العبء الأكبر فى ضريبة الأرض.. التى هى الشريان التاجى الذى يضخ المال الميرى فى خزينة البلاد، وهم أيضا أصحاب النفوذ والثراء فى الريف، وإليهم المرجعية فى حركة الفلاحين، ويدهم مقاليد الأمور فى مجتمع تحتم تقاليده بأن يحترموا كبيرهم، ويستمعوا له ويطيعوا، وقد صنع إسماعيل بيده هذا «الكبير» عندما وضع نظام العمدة، فصار لكل قرية عمدة - وهى وصف مشتق من العميد أو العمود - يجرى انتخابه من كل أهل القرية انتخابا حرا مباشرا وعلينا، وفى يوم الانتخاب يجتمع الأهالى فى جرن القرية، مثلما كان يحدث فى مدن اليونان القديمة، وتعلن الحكومة عليهم أسماء المرشحين، فيتقدم الفلاح إلى الصندوق

تحت إشراف المأمور، ويعطى على الملأ اسم المرشح الذى يختاره، فيصبح صاحب الأغلبية، عمدة، يعاونه مشايخ القرية الذى كانوا. قبل نظام العمدة. يهيمنون على شئون القرية، ويمثلون حلقة الوصل بين جهاز الدولة فى عليائه، وجموع الشعب فى الريف.

من هذا اليوم من عام ١٨٦٤ نشأت حلقة وسيطة فى سلسلة الجهاز الإدارى بين القمة والقاعدة، القمة التى تحكم البلاد حكماً مطلقاً، والقاعدة التى لا ترى من وجوه السلطة، على مدار العام، سوى وجه جابى الضرائب الذى ينقض عليهم كالوحش الكاسر، إذا حدث قصور أو تلاعب أو عيب فى جمع الضرائب، وحوله شر ذمة من القواصين فى أيديهم كراييج لاسعة، وفى قلوبهم قسوة بالغة، وفى نفوسهم رغبة دفيئة فى الشر والإيذاء والتكيل.

هكذا كان الحال فى عهد محمد على وولده إبراهيم وحفيده عباس الأول، فلما جاء سعيد. وكان ميالاً بعواطفه نحو المصريين. منحهم حق تملك الأرض الزراعية بمقتضى اللائحة السعيدية الصادرة فى ١٥ أغسطس ١٨٥٨، فأحدثت طفرة هائلة فى الكيان الاجتماعى المصرى، كان لابد أن تعقبها طفرة سياسية آتت أكلها فى عصر إسماعيل، فقد ظهرت على قمة الهرم الاجتماعى طبقة كبار ملاك الأراضى. بعد أن كانت حكرًا على الذوات الترك والشركس. وأصبح من حقها ومن واجبها أن تشارك فى صياغة الحياة السياسية المصرية بمقتضى ملكيتها لمصدر الثروة الأساسى - الأرض - وبمقتضى ارتباطها بالسواد الأعظم

من الشعب، فمن هؤلاء الأعيان كان العمدة، ومن العمدة كان الناضبون الذين اختاروا أعضاء مجلس شورى النواب.

أراد إسماعيل أن يمد يده إلى أعيان البلاد، ويتقرب إليهم لعله يسد الفجوة الموروثة بين حكام مصر وشعبها، وهي فجوة قديمة جعلت المصريين يتهيبون حكامهم، وينظرون إليهم نظرة الشك والكراهية، وبدأ إسماعيل أولى محاولات التقريب سنة ١٨٦٤ بأن دعا لفيفا من عمدة كل إقليم للاجتماع مع مدير الأقليم لدراسة الشؤون والمشاكل المحلية، ثم ذهب إلى طنطا بدعوة من أعيان الغربية للاجتماع بهم، وهو في كل هذا يسعى إلى اجتذاب طبقة كبار الملاك لتقف إلى جانبه في محنة الديون، وإلى هذه الطبقة المصرية الأصلية اتجهت أبصار إسماعيل الذكي لكي تشاركه هموم الديون وتبعاتها، ومن هذه المصلحة المشتركة أشرقت طلائع الفجر الجديد للحياة النيابية، التي ما لبثت أن تطورت مع تفاقم الأمة ويعد أن كان المجلس الوليد ظلًا باهتا للخديوية المطلقة، تشكلت ملامحه البارزة وصار له أنياب تقاوم النفوذ الأجنبي وتتصدى له، وتحبط محاولاته لإعلان إفلاس مصر.

أزمة ثقة :

كان إسماعيل يعرف في قرارة نفسه أن هناك أزمة ثقة بينه وبين المصريين واعترف هو نفسه بأنهم «محكومون بالضغط»، فأراد أن يكسب ثقتهم لتحقيق مشروعه الحضاري الكبير، وإقامة نظامه الجديد على زعامة الريف والأعيان، ليستطيع بهم، ويفضل نفوذهم ومكانتهم التغلغل في صميم الخلايا الريفية، وإرشاد الحكومة إلى خير السبل

لتحسين الإدارة وتدبير المال، وقد كانوا جديرين بذلك لمكانتهم بين الناس، ولما كان هؤلاء الأعيان يمثلون في ذاتهم الإرادة الحية للجماعة الريفية التي تهيمن على جوانب الريف، فقد رأى الخديو دعماً لجهازه الإداري وتقويته، تطعيمه بنخبة قوية من هذه العناصر، ليتمكن بهم من حمل رغباته إلى سائر أفراد الشعب، والاتصال بهم اتصالاً مباشراً، ولذلك تعمد إسماعيل أن يأتي تشكيل مجلس شورى النواب معبراً تعبيراً عملياً عن الحقيقة التي تقول إن السواد الأعظم من شعب مصر من الفلاحين، ولكي يستطيع الخديو أن يتصل اتصالاً مباشراً بشئون الملكية الزراعية وصميم الريف، كان لابد أن يكون ذلك عن طريق هيئة منتخبة من الملاك، وكان في استطاعة الخديو ألا يراعى هذا الشكل النيابي القائم على الانتخاب، فينص على تشكيل المجلس بالتعيين، فلماذا لجأ إسماعيل إلى الانتخاب عن طريق العمد، ولم يلجأ إلى التعيين؟

يبرز الدكتور عبدالعزيز رفاعي في كتابه «فجر الحياة النيابية» لجوء إسماعيل إلى الانتخاب، وليس التعيين، رغبة منه في كسب طبقة كبار الملاك إلى جانبه لضمان معنى التعاون، وعلاج أزمة الثقة بينه وبين الفلاحين التي سار عليها أسلافه منذ محمد علي، ولذلك قصرت اللائحة الأساسية حق الانتخاب على طبقة أصحاب الأراضى من العمد الأثرياء، ومن العناصر القوية الخبيرة بشئون الزراعة والريف، ونظراً لعدم وجود هذه الطبقة في عواصم الحضر مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط، فقد نصت اللائحة على تمثيل نظراء هؤلاء من تجار هذه المدن وأعيانها، وبذلك كان الانتخاب مقصوراً على طبقة كبار الملاك

ليتمشى ذلك وأهداف المجلس، إذ لم يكن الخديو بحاجة إلى تمثيل المتعلمين أو التجار، لأنه لم يكن يسعى لتحقيق أهداف «أمة» .. بل يسعى إلى أهدافه على حساب الملكية الزراعية.

نظامنامه :

لقد وضع رسماعيل لمجلس شورى النواب لائحة تنظيمية «نظامنامه» تحدد طريقة الانتخاب وأسلوب المناقشة والحصانة .. إلخ أهم أركانها:

● يتألف المجلس من ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات، ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها فى المديریات (المحافظات)، وأعيان القاهرة وينتخبون ٣ نواب، والاسكندرية ولهم نائبان، ودمياط ويمثلها واحد، على أن يكون التمثيل بحسب تعداد كل منطقة.

● يشترط فيمن ينتخب عضوا أن يكون مصرياً، ولا يقل سنة عن ٢٥ سنة، وأن لا يكون قد صدر ضده حكم فى جنائية، أو حكم بالافلاس، أو حكم بالفصل من الحكومة من هيئة تأديبية، وأن يكون ملماً بالقراءة والكتابة فى الانتخاب السابع (أى بعد ١٨ سنة) أما الناخبون فقد أشرط فيهم الإمام بالقراءة والكتابة فى الانتخاب الحادى عشر أى بعد ٣٠ سنة من تأسيس النظام النيابى (ومعنى ذلك أن الخديو كان يخطط لمحو الأمية خلال ٣٠ سنة).

● يعين الخديو رئيس المجلس ووكيله دون ترشيح من المجلس.

يفتح الخديو المجلس بمقال الافتتاح (خطبة العرش) ويرد عليها

المجلس دون إبداء رأى قاطع فيما ورد فيها .

● يتمتع أعضاء المجلس بالحصانة البرلمانية أثناء انعقاده - فقط - إلا في جرائم القتل .

● لا يجوز لعضو أن يتكلم إلا بإذن من رئيس المجلس، وعلى المجلس احترام رأى الأقلية، والاصغاء لأقوالها وملاحظاتها، ويكون التصويب علنياً، والقرارات تتخذ بالأغلبية، ولا يجوز لعضو طبع أو نشر مناقشات المجلس إلا بإذن من رئيس المجلس .

● جميع قرارات المجلس استشارية، فهي بمثابة توصيات للخبير يفعل بها ما يشاء .

للخبير الحق فى دعوة المجلس للانعقاد، وفى مد دورته، أو تأجيلها وفى حل المجلس وتبديل أعضائه بإجراء انتخابات جديدة .

يلتعد المجلس شهرين كل سنة من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير) ويكون اجتماعه فى القاهرة ، وجلساته سرية .

أسلافنا :

أسفرت أول انتخابات عن فوز ٧٥ عضواً نشر الرافعى أسماءهم حسب محافظاتهم فى الجزء الثانى من كتابه (عصر إسماعيل) حتى نتعرف على أسلافنا فى الحياة القيايية ونتبين مبلغ ما أدوا من واجبات اللداية وتكاليفها . وهم :

القاهرة : موسى بك العقاد، الحاج يوسف عبدالفتاح، السيد محمود العطار.

الاسكندرية: الشيخ مصطفى جميعي، السيد عبدالرازق الشوريحي.
دمياط : علي بك خفاجي.

الغربية : أنريى بك أبوالعز، علي كامل عمدة القصرية، الحاج شتا يوسف عمدة أبو مندور، محمد حمودة عمدة برما، سيد أحمد رمضان عمدة قسطا، عبدالحميد زهرة عمدة حانوت، علي أبو سالم دنيا عمدة مسهلة، سليمان الملواني عمدة ميت حبيش القبليّة، أحمد الشريف عمدة أبيار.

المنوفية : الحاج علي الجزار عمدة شبين الكرم، محمد أفندي شعير عمدة كفر عشنا، موسى أفندي الجندی عمدة منوف، أحمد أبو حسين عمدة كفر ربيع، حماد أبو عامر عمدة جنزور، علي أبو عمارة عمدة مليح، محمد الانبابي عمدة جزى.

البحيرة: الشيخ محمد الصيرفي عمدة قليشان، حسنين حمزة عمدة البريجات، أحمد موسى عمدة نكة العنب، الحاج علي عمار عمدة ببيان، الشيخ محمد الوكيل عمدة سمخراط.

الشرقية والقليوبية: الحاج نصر الشواربي من قليوب، محمد الشواربي من قليوب، أحمد أفندي أبازلة من منيا القمح، الإمام الشافعي أبوشنب عمدة الخانكة، علي حسن حجاج عمدة الزملة، الشيخ محمد جمال الدين عمدة الجديدة، محمد عبدالله عمدة الصفاقين، المعلم

سليمان سيدهم عمدة بندق، بركات الديب عمدة القرين، محمد أفندي عفيفي عمدة الزوامل، عبدالله عياد عمدة كفر عياد.

الدقهلية: هلال بك، سيد أحمد أفندي نافع عمدة دنديط، محمد بك سعيد من نوسا البحر، إسماعيل أفندي حسن عمدة تمي الامديد، الشيخ محرم على عمدة السنبلوين، الشيخ العدل أحمد عمدة جزيرة القباب.

الجزيرة: عامر أفندي الزمر عمدة ناهية، إبراهيم أحمد المنشاوي عمدة زاوية دهشور، عبدالباقي عزوز عمدة الرقق (الرقّة).

الفيوم وبنى سويف: حزين الجاهد عمدة العجميين، على سيد أحمد عمدة الزري، زايد هندي عمدة جزيرة ببا، محمد حسن كساب عمدة النويرة، جرجس بروس عمدة بنى سلامة.

المنيا وبنى مزار: إبراهيم أفندي الشريعي عمدة سمالوط، حسن أفندي شعراوي عمدة المطاهرة، إسماعيل أحمد عمدة بنى أحمد، أحمد على عمدة الزاوية، أحمد حبيب عمدة الفلت، ميخايل اثناسيوس عمدة أشروبة.

أسيوط: سليمان أفندي عبدالعال من ساحل سليم (أبو محمود سليمان باشا وجد محمد محمود باشا)، عثمان محمود غزالي عمدة بنى رزاح، يوسف محمد عمر عمدة الشيخ تمي، رميح شحاته عمدة القوصية، عمر حمد عمدة الشغبة، عبدالعال موسى عمدة دروة.

جرجا: محمد حمادى عمدة بلصفورة، حميد أبرستيت من أولاد عليوة، عبدالرحمن حمد الله عمدة الجبيلات، عثمان أبو ليلة من الكتكانة، عطية مهران من ناحية نزه، أحمد سلطان عمدة بNDAR.

قنا وأسوان: عمر أفندي أبو يحيى عمدة أبو مناع، محمد سحلى
عمدة فرشوط، على إبراهيم عمدة حجازة، أحمد أفندي عبدالصادق
من أسوان، أحمد على إسماعيل عمدة السليمية.

قوة حقيقية :

وفي قراءة نقدية لأسماء هؤلاء الأعضاء لاحظ الدكتور لويس
عوض أن هذه العائلات ظلت تشترك في الحياة العامة وفي حكم البلاد
خلال الثورة العربية، وحركة الحزب الوطنى الخديوى، وثورة ١٩١٩
حتى ثورة ١٩٥٢ وهى عائلات: العقاد والقطار من القاهرة (ليس
بالضرورة أصلاً أو ملاً) وجميعة والشورى من الاسكندرية،
والشورى من القليوبية، وأبازة من الشرقية، وأبو العز والشريف من
الغربية، والجزار وشعير والجندي وأبو حسين من المنوفية، والوكيل من
البحيرة، والزمر من الجيزة، والشريعى وشعراوى من المنيا، وسليمان
من أسيوط، وأبوستيت من جرجا، وأبو سحلى من قنا، وليس معنى ذلك
أن كل الباقين لم يكن لهم أو لسلهم دور فى الحياة العامة أو أنهم
انقرضوا كعائلات، فمذهب من كانت لهم سطوة الملكية الزراعية دون أن
يشتغلوا مباشرة بالسياسة، ومنهم من لا تزال أسماء عائلاتهم دارجة
حتى اليوم دون أن يكون لهم دور بارز فى الحياة العامة مثل عائلات
الصير فى أبوشنب وعياد ودنيا وكساب ودوس وهلال .. الخ. ولكن
المهم - فى رأى لويس عوض - أن أعضاء مجلس شورى النواب فى
عهد إسماعيل - حتى من انقرضت أسماؤهم - كانوا فى عصرهم قوة

حقيقية فى البلاد لأنهم كانوا يمثلون طبقة عريضة من العمد والمشايخ فى البلاد تبلغ الآلاف عدداً، وبذلك يمثلون أصحاب المصالح الحقيقية فى الريف المصرى .

أوروبا تتسائل :

ولقد أحدث ميلاد أول مجلس نيابى مصرى ، دويًا كبيراً بين الرأى العام الأوروبى حتى أن صحافة إنجلترا وفرنسا وبلجيكا خلعت عليه معاييرها الدستورية أوصافاً كثيرة أبعدته عن حقيقته ومرامه ، وقد رصد الدكتور عبدالعزيز رفاعى بعض تعليقات الصحف الأوروبية ، وكيف أن مصر على أبواب التحول إلى ملكية دستورية برلمانية ، وذهب بعضها إلى حد المقارنة بين المجلس المصرى الوليد ومجلس الشيوخ الفرنسى ، ومجلس الدولة بها ، وكان لتمثيل العناصر المسيحية فى المجلس أطياب الأثر فى الدعاية لإسماعيل والتدليل على سماحة عصره ، وقد رحب أحرار فرنسا بأنباء نشأة المجلس كعمل فريد فى الشرق ، ألا أن وقعه كان مقلقا لحكومة فرنسا خشية أن يكون محاولة لسلخ مصر عن تركيا (صديقة فرنسا وقتئذ) وإقامة حكم وطنى نيابى فيها ، واستفسرت الحكومة الفرنسية من نوبار باشا الذى كان متواجداً فى باريس عن صحة هذا الاحتمال ، فقال لهم إن المجلس النيابى ليس أكثر من تنويع لمسعى الخديو لتقوية جهازه الإدارى واستكمالهِ على أساس العرف المتبع فى انتخاب رؤساء القرى والإعلاء من شأنهم بدافع الرغبة فى تنمية الثروة المصرية ، ووضع بذلك حداً للشائعات حول النظام الجديد .

أما رد الفعل في تركيا فكان سيئا، وقالت صحفها أن إسماعيل وضع
لمصر دستورا ومجلسا نيابيا، وكان من شأن هذه التعليقات أن تسيء
إلى علاقة الخديو بتركيا، ولم ترحب الحكومتان الانجليزية والفرنسية
لهذا التطور لأن الدولتين كانتا تعملان على الإبقاء على حالة
مصر السياسية في حدود التبعية لتركيا. ولذا كانت نشأة المجلس مثيرة
لفضولهما، فلما أوجس إسماعيل خيفة من الآثار العكسية أو عز إلى
نوبار أن يؤكد الدولتين بأن القصد من المجلس إرساء قاعدة للتعاون
بينه وبين شعبه.

نكبة القروض

سارت الحياة شبه النيابية التي أقامها الخديو اسماعيل، في خط متواز مع الأزمة المالية التي صنعها اسماعيل بيديه، وتسبب فيها باسرافه وتبذيره وعدم تبصره بعواقب الافتراض من البنوك الأجنبية، فكلما اشتدت وطأة الأزمة المالية، شعر أعضاء مجلس شورى النواب بثقل المسؤولية، فالبند بلدهم، والأرض أرضهم، وعليهم يقع عبء تسديد الديون الباهظة التي اقترضها الخديو، وإذا كانت الحكومة - ممثلة في وزير المالية الكذوب اسماعيل باشا صديق - تقدم لهم بيانات مضللة حول انتعاش الحالة الاقتصادية وزيادة الإيرادات على المصروفات، فإن هذه الأكاذيب لم تفلح في تزييف الحقائق المرة التي كان يشعر بها النواب في قرارة أنفسهم، ولا يستطيعون الإفصاح عما يخالج شعورهم من قلق وتذمر، فهم أصحاب المصالح الحقيقية، وملاك الأطنان التي تتزايد عليها الأموال الأميرية بطريقة تفضح حالة الانتعاش الكاذب الذي تروج له الحكومة حتى تخدع الناس، وتستنزف ما في جيوبهم من نقود.

وفي ١٦ مارس ١٨٦٨ افتتح الخديو دور الانعقاد الثاني للمجلس بالقلعة، وألقيت خطبة العرش فحفلت مثل سابقتها، بذكر مناقب ولى النعم، والانجازات العظيمة التى تحققت على يديه دون أى اشارة إلى القروض التى عقدها مع المرابين اليهود، ولم يتطرق إلى المشاكل المالية الداخلية، باستثناء الرد على مطلب سابق بتعديل مواعيد سداد أقساط الأموال الأميرية. وتهرب الخديو من تنفيذ الاقتراح بحجة أنه لا يخلو من صعوبة، وقال أن الحكومة لا تقصر عن إجراءاته حسب الامكان. ووعد بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التى تؤخر تنفيذه.

لقد انعقدت هذه الدورة فى وقت استحسنت فيه الأزمة المالية، وصارت الخزينة خاوية حتى أن الحكومة عجزت عن دفع مرتبات الموظفين، وتعرضت البلاد إلى حالة من العسر الاقتصادى بسبب هبوط أسعار القطن، بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، واستغناء المصانع الأوروبية عن استيراد الأقطان المصرية، فعادت الأسعار إلى مستواها القديم، وتعرض الفلاحون إلى أزمة رهيبية قصمت ظهورهم، لأنهم اعتادوا - أثناء ارتفاع الأسعار - الاستدانة من المرابين بفوائد فاحشة وصلت إلى ٤٨ ٪ فى السنة (١١) وبلغ مجموع الديون المتراكمة على الفلاحين حوالى مليون و٤٠٠ ألف جنيه، أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد من قحط فى الحبوب بسبب هبوط فيضان النيل. وإصابة الثروة الحيوانية بالطاعون.

موارد جديدة:

وبدأت الحكومة تفكر فى البحث عن موارد مالية جديدة سواء من المصادر المحلية أو الخارجية. وبالنسبة للداخل هذاها تفكيرها إلى

مشروع بإعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل دفع بدل نقدي (ثمانين جنياً) وعرضت الحكومة المشروع على مجلس شورى النواب مشياً مع سياستها في إشراك النواب في الأمور المالية، فكان أمراً طبيعياً أن يستحسنه العمدة وكبار الملاك ليندفع المجال أمام كل منهم لافتداء أتباعه من الجندية بدفع البديل النقدي، فلم تكن الجندية وقتئذ تشجع على الانخراط في سلكها، وذكرىات حروب محمد علي لا تزال ماثلة في النفوس، كما كانت أساليب الجندية بطبيعتها تدفع للنفور منها، لذلك ما كادت الحكومة تعرض المشروع على المجلس حتى وافق على دفع البديل العسكري نقداً، ومن ثم استطاعت الحكومة أن تفتح إماليها مصدراً كبيراً لتدعيم إيراداتها على حساب هذه الفئات، بل وعلى حساب الطبقات الفقيرة ذاتها أيضاً، فقد كان ذلك القانون مشجعاً لهم - برغم فقرهم - على إرهاق أنفسهم من أجل التخلص من الخدمة العسكرية، ليضمنوا لأبنائهم العافية بدل المعاناة من سيناتها.

ومن المسائل التي لها علاقة مباشرة بالقضية المالية، مسألة الأراضي البور التي أرادت الحكومة أن تجعل منها مورداً مالياً، فعرضت على أعضاء مجلس الشورى مشروعاً لضمها إلى الملاك في حدود نظم مالية معينة، وقبول المشروع بالموافقة والرضا من جانب النواب لأنه يضيف إلى ممتلكاتهم الزراعية مساحات جديدة، وفي نفس الوقت يحقق للحكومة مصدراً مالياً خاصة إذا عرفنا أن مساحة هذه الأراضي بلغت مليوناً ونصف مليون فدان، ولاحتياج إلا إلى الماء لتصبح أرضاً زراعية ترفع من حجم الضرائب التي تجبها الحكومة، وانسياقاً وراء عمليات زيادة الموارد المالية للدولة - وافقت الحكومة على اقتراح بعض أعضاء المجلس بتسجيل الأراضي الزراعية، وترغيب

الأهالى بتحرير حجج أملاكهم بالمحاكم ، والتصريح لكل مالك بأثبات ملكيته أمام القضاء، مقابل رسوم تدخل خزينة الدولة . وهكذا قام مجلس شورى النواب بإسعاف الحكومة بالموارد المالية التى تنقذ خزيتها الخاوية عن طريق بيع أراضى الفيضان (طرح النهر) وأراضى الجزائر وضم الأراضى البور للملاك نظير اجراءات مالية، ثم فرض ضرائب جديدة على الأراضى البور والمالحة والبرارى وتوسيع الرقعة الزراعية بالتشجيع على اصلاحها وزيادة امكانياتها على تقبل ضرائب أخرى، وجاءت هذه القرارات بدعم هدف الحكومة من خلال تكليف كبار الملاك بالتزامات جديدة، وعندما أثار بعض النواب مسألة امتلاك الأراضى الواقعة على جانبي الاسماعيلية، رحبت الحكومة بالاقترح اذ وجدت فيه وسيلة لزيادة المساحات الزراعية وتنمية الانتاج الزراعى، وبالتالي مصدرا جديدا من مصادر المال، وبعد مناقشة مستفيضة قرر المجلس إعطاءها للراغبين بمثل الطريقة التى اتبعها المجلس فى توزيع أراضى البرارى السابقة بالمجان لاجال محدودة، على أن تدفع عنها الضرائب بعد مضي مدة واعتمد الخديو اسماعيل هذه القرارات، وعهد الى وزارة الداخلية بتنفيذها . (راجع كتاب فجر الحياة الليابية فى مصر الحديثة للدكتور عبدالعزيز رفاعى) .

بوابة الجحيم:

الى هنا .. وبعد هذا العرض الموجز .. يمكن القول ان حكومة الخديو اسماعيل، ومعها مجلس شورى القوانين، خطت خطوات عملية لمواجهة الأزمة المالية، واتخذت التدابير الكفيلة لزيادة الموارد، وسد حاجة الخزينة العامة الى المال، وتدبير مصادر جديدة تقبل الميزانية

من عثرتها، وتجلب البلاد مغبة الوقوع في براثن المرابين الاجانب.. ولكن.. ما حدث لم يكن في الحسبان.. فبينما كان المجلس يشارك الحكومة في همومها المالية، كان الخديو اسماعيل يبعث أعوانه إلى باريس للتفاوض مع البنوك وبيوت المال للحصول على قروض، ويفتح بوابة الجحيم حتى يشبع نهمه إلى المال، ويغدقه في أمور لا تعود على البلاد بأي منفعة، ويتخلى عن العهد الذي قطعه على نفسه عشية جلوسه على الأريكة الخديوية بأن يجذب المسلك الرعر الذي سلكه عمه سعيد باشا عندما استن سنة الاقتراض من الخارج. وقال اسماعيل في حشد من قناصل الدول الأجنبية: «إن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد في المالية، وسأبذل جهدي في اتباع قواعد النظام والاقتصاد، وقد عزم أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة، لا أتجاوزها أبداً.

لقد ندد اسماعيل، حينما تبوأ العرش بإسراف سلفه سعيد، لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات.. ولكن لم تمض عدة شهور حتى نقض العهد، واتخذ من الاقتراض عادة سنوية ظلت ملازمة له حتى بلغت القروض في نهاية عهده أكثر من ١٢٦ مليون جنيه انجليزى (١١) في وقت لم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض، لأن مصر تعد - كما يقول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى - من أغنى دول العالم، وتستطيع إذا وجدت إدارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلى القروض. وينقل الرافعى عن مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) وهو مؤلف مجهول عاش في مصر خلال هذا العصر وألف فيه كتابه القيم: اقتراض اسماعيل أول قروضه عام ١٨٦٤ (يعنى

فى العام التالى لجلوسه على العرش) وتذرع لتصويفه بحاجة الحكومة إلى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد، وإسداد أفساط ديون سعيد باشا.. فأما مقاومة الطاعون البقرى فكانت حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون، ولم يرد بميزانية ١٨٦٤ مما أنفقتة الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥ ألف جنيه، وتعجب المؤلف من أن تلجأ الحكومة إلى الاقتراض برغم ما جاء فى الميزانية من زيادة الدخل على المنصرف. وقال أن السبب الحقيقى لهذا القرض الأول هو أن اسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه، بل سار سيرة بذخ وهوى وإسراف، واستكثر من شراء الأتبان والأملاك لنفسه والإنفاق عليها، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول، وما كان سداد ديون سعيد ولا الإنفاق على مقاومة الطاعون البقرى الا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون (١١). هذا ما يقوله مؤلف كتاب (تاريخ مصر المالى) الذى يصفه الرافعى بأنه كاتب مشهود له بتحرى الحقائق، والاعتدال فى الرأى، وليس فى كلامه مبالغة، لأن المعروف عن اسماعيل باشا أنه كان بطبعه ميالاً إلى الاستكثار من المال والعقار، وظهرت عليه هذه الميول منذ ولايته الحكم، فقد كان نظار أملاكه يرغمون الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو، حتى صار مالكاً لخمس أطيان القطر المصرى (١٢). أما مدام (أولمب إدوار) فقالت فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر) لم يكن اسماعيل يهتم الا بجمع الملايين، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر ما يستطيع، ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة. تاركاً

لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى بعده .

مدافعون عن القروض :

ومع ذلك لم يعدم إسماعيل باشا من يدافع عن سياسة الاقتراض ويجد لها ألف مبرر، ويضعها فى قائمة الأعمال الصالحات التى أراد بها الخديو خير مصر ونفعها . والعمل على استقلالها عن تركيا . والرغبة فى أن يضع مصر فى مصارف الدول العظمى ولو عن طريق السلف والدين . انظر ما يقوله مؤلف كتاب عصر اسماعيل - إلياس الأيوبى - عن مبررات ديون اسماعيل، فى فصل جعل عثراته «السحاب فى السماء» : أن تنفيذ الخطة التى رسمها اسماعيل لنفسه، يوم ارتقى عرش جده وأبيه، استلزم مصاريف جمة للتمكن من إزالة جميع العقبات - أيا كان نوعها وسببها - فاضطر إلى الاستدانة والاقتراض، ولما كانت مصر من أغنى بلاد الأرض، وكان المشهور عن الأمراء الشرقيين عموماً، عدم التدقيق فى المعاسبة، وعن (اسماعيل) على الأخص، سعة سماحة الكف، وعظم كرم النفس، فأما المالين الغربيين، لاسيما اليهود، أظهروا من الاستعداد لإجابة جميع طلباته أغرب ما يتصوره الإنسان، بل بالغوا، فى بادى أمرهم، فى إغرائه على الاستدانة منهم إلى حد من المرغبات والمحبات يكاد لا يتخيله التصور: فتلا الاقتراض منهم الاقتراض، وإسماعيل فى تلهبه الفائق لتحقيق أمنياته السامية لا يفكر فى أن يعمل للأعباء المالية ولكيفية تراكمها حساباً، ولا يرى من نفسه ميلاً مطلقاً إلى تقدير عواقبها، بفعل تربيته ومنتبته ومركزه،

فاستمر في سيره السريع وعينه غير شاخصتين إلا إلى المرمى الفخيم الذي كان سيره يذنيه منه، ولا يهمه من أمره إلا أن يرى الذهب طوع بنانه دوماً (١١) .

فما هي الأمنيات الساميات التي طمحت إليها نفس اسماعيل، واستهون من أجلها أن يضع الأغلال في عنق بلاده ويجعلها تحت رحمة المرابين اليهود؟ هل إغداقه الرشاوى والهدايا على السلطان ويطانته الفاسدة من أجل تغيير نظام وراثة العرش مما يعد من المصالح العامة التي تعقد من أجلها القروض..؟ وهل شراء قصر (الأميركون) على ضفاف البسفور لينزل فيه الخديو بضعة أيام من المنافع القومية التي يهون من أجلها استقلال مصر وحريتها وكرامتها؟ بعد أيام من جلوسه على عرش مصر، توجه اسماعيل إلى الآستانة ليقدم إلى السلطان عبدالعزيز فروض الولاء، ويوجه له الدعوة لزيارة مصر، فلبى السلطان الدعوة، وقضى في مصر عشرة أيام تمتع فيها بكل ما وفره له الخديو من عناصر المتعة والدعيم، وعندما غادر السلطان الديار المصرية عائداً إلى بلاده حشد له الخديو من الهدايا والتحف والنفائس ما ملأ جوف سفينة بأكملها.. كما غمس في جيب الصدر الأعظم - رئيس الوزراء التركي - ستمين ألفاً من الجنيهات .. بخلاف ما حصل عليه الآخرون .. لماذا فعل اسماعيل ذلك؟ ولماذا أغدق كل هذه الأموال من دم الشعب المصري؟ من أجل أن يستصدر من السلطان فرماناً بتغيير نظام توارث العرش - حتى يؤول إلى أكبر أبناء اسماعيل، بدلاً من النظام القديم الذي يورث العرش لأكبر أفراد الأسرة العلوية (١١) - وقبضت السلطنة العثمانية الثمن: ثلاث ملايين جنيه ابتلعها السلطان

ى كرشه، وزيادة الجزية السنوية التى تدفعها مصر لتركيا من ٤٠٠
 ف جنيه عثمانى، (إلى ٧٥٠ ألفاً، أى ما يقرب من الضعف (II)). وقد
 يعلم القارئ أن مصر تحملت أعباء هذه الزيادة الجسيمة حتى عام
 ١٩٥٠ والتي بلغت ٢٥ مليون جنيه عدا فوائدها، لأن حكومة تركيا
 سددت على (حس) الجزية المصرية من دول أخرى، وتعهدت
 حكومة المصرية بتسديد أقساط الديون إلى تلك الدول وظلت تدفعها
 حتى عام ١٩٥٥ م. يقول الرافعى عن هذه الخسارة الفادحة التى تكبدها
 سماعيل من أجل تغيير نظام الوراثة: من الاسراف فى القول ما يزعمه
 بعض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة
 نبلاد، وأغلب الظن أن الباعث له على هذا التغيير، هو ما كان بينه
 وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل، وعمه عبدالحليم من الشقاق
 والشحناء، ولم يكن إسماعيل يخفى كرهه لهما وحقدّه عليهما، وكان
 لأميران أيضاً لا يكتمان كراهيتهما لإسماعيل، ومن أجل ذلك سعى فى
 مرماتهم من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه. وقد اغتتم
 حكام تركيا وذو النفوذ فيها فرصة هذا التنافس، ليهبتزوا من أموال
 مصر ما تصل إليه أيديهم، فقد بذل الأميران عبدالحليم ومصطفى
 فاضل أموالاً طائلة فى الآستانة لإحباط مسعى اسماعيل، فاستفادت من
 لتاحييين، ولكن اسماعيل كان أكثر مالا، وأعز جانباً، فنجح فى مسعاه،
 هكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الآستانة (...). ولا يعد
 هذا التغيير فى نظام التوارث مكسباً كبيراً لمصر حتى تبذل من أجله
 تلك التضحيات العالية الباهظة، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا
 لقول، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش إلى

(توفيق) ولم تكن ولايته خيراً على البلاد (....) ولاندسى انه فى عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى، وكان عليه جانب كبير من تبعه وقومه، فلو لم يتقرر نظام التوريد الجديد، لكان جائزاً أن يخلف اسماعيل على العرش أميراً أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق.

القرض الأول :

روى إلياس الأيوبي قصة القرض الأول حينما كاف الخديو أثناء وجوده فى باريس وزيره المقرب نوبار باشا بالتفاوض مع بيت المال فى شأن ذلك القرض . واستغرقت المفاوضات ثلاثة شهور تمكن بعدها من عقد الاتفاق فى ٢٤ سبتمبر ١٨٦٤ ، وبموجبه تعهد المتعاقدون بأن يدفعوا إلى الحكومة المصرية خمسة ملايين جنيه انجليزى على أربع دفعات متساوية تقدم الدفعة الأولى فى نوفمبر من نفس العام، أما الدفعات الثلاث فتقدم فى يناير وفبراير وأبريل ١٨٦٥ ، وأن تسدد لهم الحكومة المصرية (لاحظ أن الحكومة المصرية هى التى تلتزم بالسداد وليس الخديو الذى اقترض من أجل قضية شخصية بحتة) ذلك المبلغ بفوائده على خمسة عشر قسطاً سنوياً، قدر كل قسط منها ٦٢٠ ألفاً و٢٩٤ جنيهاً وأن تكون إيرادات مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة ضمانة لذلك، وتحول رأساً إلى الدائنين (لاحظ مرة أخرى أن ضمانة القرض إيرادات حكومية صرفه .. وليس إيرادات الدائرة المسنية أو الخاصة الخديوية) . أما الرافعى فيروى أوجه الصرف فى هذا القرض، فيؤكد أن اسماعيل لم ينفق شيئاً يذكر من قرض ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة، بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه،

واشترى في ذلك الحين قصر (الأمريكون) على ضفاف البوسفور ليأخذه مقرًا له عندما يزور الآستانة، ولم يكن لولاية مصر قصور خاصة في هذه المدينة ينزلون بها من قبل، ولكن اسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ، أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء عن قصور السلاطين، فابتاع ذلك القصر، وأنفق المبالغ الطائلة في توسيعه وزخرفته، ثم بدأ ينشئ القصور الفخمة في مصر، فشرع في إقامة سراي الجزيرة المشهورة وكان التصميم على أن تكون داراً أنيقة، ثم اتسعت فصارت قصرًا فخماً، وتعددت المباني حولها، ومدت الطرق الجميلة بين الجزيرة والجزيرة، وأنفقت الأموال جزافاً في سبيل أنشائها.. وكل هذه النفقات الباهظة جعلت الخديوي يفكر في قرض آخر.. ولما تمض ثمانية شهور فقط على القرض الأول (١١) .

وليس من ضئير - يقول الرافعي - أن يبتنى ولي الأمر ما شاء من القصور والساريات، ولكن إذا كانت مالية البلاد لا تسمح بنفقات تلك المباني، ولا سبيل إلى أقامتها إلا من القروض، فلا تسوغ الاستدانة لهذا الغرض، لأنه لا يجوز أن تقترض حكومة رشيدة قرضاً ما لإنفاق قيمته على مثل هذه الكماليات.

الخديو الفنجري

فى رأى بعض المؤرخين المدافعين عن السياسة المالية للخديو إسماعيل، أنه لم يقدم على الاستدانة من الخارج، إلا من أجل مصر ورفعة شأنها بين الأمم، وتحقيق المزيد من استقلالها عن السلطانية العثمانية، ولما كان كرش السلطانية لا يهضم إلا الذهب الرنان، فقد كان إسماعيل مضطرا إلى الاقتراض من الخارج لسد بالوعة الاستدانة كي يحصل على الفرمانات الشاهانية التى تثبت استقلال مصر وتدفع بها بعيدا عن الهيمنة التركية (١١) .

حسناً.. فمبدأ الاستقلال الوطنى هدف مشروع لا يختلف عليه مصرى يؤمن باستقلال بلاده عن أى نفوذ خارجى، ولكن ما هو معنى الاستقلال فى مخيلة الخديو إسماعيل حتى يناضل من أجله، ويبدل فى سبيله النفس والنفيس؟ هل كان معناه طرد قوات الاحتلال العثمانى من مصر؟ الجواب بالنفى.. لأن مصر لم يكن على أرضها جندى عثمانى واحد منذ عصر محمد على، ولم يكن يربطها بالدولة العلية سوى أداء أقساط الجزية المقررة منذ عام ١٥١٧ م عندما فتحها سليم الأول، والتى

ظلت مصر تدفعها حتى عام ١٩٥٥ م. وتحقق استقلال مصر - عمليا - في مضمون فرمان ١٨٤١ م الذي أعطى مصر طعمة لمحمد علي وذريته يحكمونها هنيئا مرثيا بعد استصدار الموافقة الشرعية من خليفة الاسقانة، وباستثناء هذا القيد الشكلي، فقد كان محمد علي يتصرف في شئون مصر تصرف المالك في ملكة دون اعتبار للباب العالي، وكانت صورة استقلال مصر - في عهد محمد علي - جليلة كالشمس، وهل هناك أوضح من بناء قوة مصر الذاتية ممثلة في الجيش المصري الذي صال وجال في أنحاء الشرق الأوسط، وبلغ من الجسارة أن دق أبواب الاسقانة نفسها متحديا السلطان الجالس على عرش آل عثمان (!).

أى استقلال كان يسمى إليه إسماعيل، ويسرغ له خنق مصر بالديون؟ وهل نقل ولاية العرش من أكبر أفراد الأسرة العلوية إلى أكبر أنجال الرأى مما يحقق استقلال مصر عن تركيا؟ وهو الإجراء الذي دفع فيه إسماعيل ثلاثة ملايين جنيه ليطعم فم السلطان عبدالعزیز، بخلاف ما حصلت عليه بطانة السلطان من هدايا وأموال؟ وماذا جنت مصر في هذا الصراع العائلى والعناد الشخصى سوى الابتلاء بحكم توفيق.. الخديو الذى خان بلاده، وفتح أبوابها للاحتلال الانجليزى (١١) وماذا عاد على مصر من هذا الاستقلال، الذى سعى إليه إسماعيل، وأهدرت فى سبيله الملايين من دم قلبها؟ لقد أدت كل جهود إسماعيل، والاستقلالية، إلى ضياع استقلال مصر.. ووقعها تحت الوصاية الأجنبية التى بدأت بإنشاء صندوق الدين، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر، ثم تعيين لجنة تحقيق أوروبية، ثم تعيين وزيرين أجنيين - أحدهما انجليزى والآخر فرنسى - لهما حق الاعتراض على

أى قرار وزارى، ثم انتهت بطرد الخديو أولا، واحتلال مصر ثانيا..
وتصدع صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها
العظيمة من عهد محمد على (١١) .

صرح الحضارة:

ويرى المدافعون عن سياسة إسماعيل الخرقاء، أنه أنفق هذه
القروض على مشروعات تمدين مصر وتحديثها، ونقلها - حضاريا - من
خريطة أفريقيا المظلمة، إلى خريطة أوروبا التى تشع بالنور والشفافة
والعلم والمدنية.. إلخ. وكلها أهداف جيلة.. ولا ننكر أن إسماعيل أقام
صرح الحضارة الحديثة.. ولكن.. هل أنفقت كل هذه القروض على
المشروعات العمرانية؟ أم أن نصيب هذه المشروعات كان ضئيلا
بالقياس إلى الأموال التى أهدرت على بناء القصور والملاعب
والمراقص والملاهى والحفلات المخملية والليالى الحمراء التى تضاهى
أساطير ألف ليلة وليلة (١١)

* هذا هو السؤال الذى يجب أن نطرحه كي نمنع الخلط بين
الأوراق، ونفرز عمليات التعمير والتحديث التى اتخذت ستارا للتغطية
على عمليات السفه والتبذير.. بل التخريب.. فى ظل نظام سياسى
يختلط فيه المال العام مع المال الخاص للخديو.. وحيث لا توجد
فواصل وحدود بين ما هو عام.. وما هو خاص (١١) .

ثم.. من يقول إن التحديث يستوجب الاقتراض من الخارج،
وتحميل ميزانية البلاد فوق طاقتها.. واعتصار أموال الناس لتسديد فوائد
القروض - ولا نقول القروض نفسها - لأن ميزانية البلاد ناءت بهذه

الأحمال الثقيلة، وعجزت عن الوفاء بها.. مما وضع البلاد على شفا
الإفلاس (١١) .

لقد أقام محمد على منشآت التحديث والتعمير وأرسل البعثات وأقام
الجيش واشترى المدرعات والمدافع والبوارج، ولم يقترض فلسا واحدا
من الخارج، وقديما أقام الملك خوفو الهرم الأكبر ولم نسمع أنه مديده
إلى لئيم، وشاد ملوك مصر وسلطينها العمائر والمساجد والقناطر
والسدود وشقوا الترع والمصارف دون أن يقترضوا من الأجانب، وكان
هؤلاء العواهل - وهم أدنى ثقافة من إسماعيل المتفرنج - يدركون
مخاطر التدخل الأجنبي في شئون مصر، ولو نظر إسماعيل في تاريخ
أبيه وجده، لتعلم منهما خطر التعامل مع الأجانب، وبلغ حرص محمد
على في هذا المجال شأوا كبيرا، حتى أنه رفض منح شركة انجليزية
امتياز مد السكة الحديدية بين القاهرة والسويس، ورفض شق قناة
السويس لأنه كان يدرك أن هذا المشروع سيضع مصر تحت وصاية
الدول البحرية الأوروبية، وهو مالم يظن إليه سعيد أو إسماعيل، حتى
ليصدق على كل منهما المثل الشعبي: يخلق من ظهر الشاطر خايب
(١١) .

شخصية الخديو:

وللأمانة : يجب أن نسبر غور شخصية الخديو إسماعيل، نلنا نحيط
بما كان يعتريها من ضعف وعيوب دفعت به إلى الهاوية، ولم أجد
أصدق من الصورة الوصفية التي رسمها بقلمه المؤرخ عبدالرحمن
الرافعي عن شخصية إسماعيل حيث اجتمع الجانب الحسن إلى الجانب
السيء، وظهرت آثار الجانبين معا في أعماله وسياسته خلال الثمانية

عاما التي تولى فيها حكم مصر، ولما كانت أخلاق إسماعيل هي العامل الأول في شخصيته، فإن دراسة أخلاقه تعطينا عنه صورة عامة، فلقد كان بلا مراء : اية في الذكاء والفهم وسرعة الخاطر، وقوة الذاكرة، ومضاء العزيمة، وعلم الهمة، وكان شجاعا لا يعرف الجبن والإحجام، قوى الشخصية، عظيم المهابة .

وبعد أن يعرض الراقى الجانب الإيجابى فى شخصية إسماعيل، والمشروعات العظيمة التي قام بها - مما لا يدخل فى موضوعنا الآن - ينتقل إلى الجانب السبىء من شخصية إسماعيل ويتمثل فى: بذخه وإسرافه، وعدم تقديره العواقب، وضعفه أمام الملذات والشهوات، وقد أدت به هذه العوامل مجتمعة إلى التبذير فى أموال الخزانة العامة، فلم تكفه الملايين التي كان يجبيها من الضرائب، بل عمد إلى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة، ولا يخفى أن هذه القروض هي الوسيلة التي تذرعت بها الدول للتدخل فى شئون مصر، ووضع الرقابة المالية عليها (...) ولم يكن إسماعيل فى حاجة إلى من يبصره بمطامع إنجلترا والدول الأوروبية فى عصر، فإن تاريخ محمد على وإبراهيم، صفحة ناطقة بتطلع إنجلترا إلى وضع يدها على البلاد وما وقوفها فى وجه فتوحات إبراهيم وأنتمارها بمصر فى مؤتمر لندن ١٨٤٠م ببعيد عن ذاكرة إسماعيل، فلم يكن ينقصه الاعتبار بالحوادث السياسية .

ثم يشير الراقى إلى عيب كبير فى شخصية إسماعيل هو: ركونه الشديد إلى الأوروبيين والدول الأجنبية، واعتماده عليهم، وثقلته بهم ثقة

لا حد لها، وهذه الثقة كانت من عوامل تورطه فى القروض الخارجية، فقد كان لحسن ظنه بالأجانب، لا يحسب حساباً لليوم الذى ينتقلون عليه، وتتحول تلك القروض إلى أداة للتدخل الأجنبى، ومن مظاهر هذه الثقة أنه عهد إلى الأجانب، من رعاية الدول الاستعمارية بمهام خطيرة من شئون الدولة، وأطلعهم على أسرارها، ومكن لهم من مرافقها، وفى عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية التى تغلغت فى البلاد، وعهد إلى الأجانب بمناصب كبرى من التى كانت الحكمة تقتضى إبعادهم عنها، كتعيين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى حاكماً لمديرية خط الاستواء، والكولونيل غوردون حاكماً لها من بعده، ثم حاكماً عاماً على السودان، وهلم جرا... كل هذه التعيينات ترجع إلى إسرائف إسماعيل فى ثقته بالأجانب والاعتماد عليهم، وتلك نقطة ضعف كبير فى سياسته تبين لنا الفرق بينه وبين محمد على...).

والخلاصة - عند الرافعى - أن عصر إسماعيل كان عهد تقدم وعمران اختلطت به أغلاط وأخطاء أفضت إلى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى، ولو خلت شخصيته من عيوبها لجعل من مصر (يابان) أخرى، ولصارت على يده دولة من أقوى الدول المستقلة وأعظمها شأنًا، ولكن هكذا شاء حظ مصر العاثر أن تتلاحق الأخطاء، وتختلط السيئات بالحسنات فى تاريخ إسماعيل، فاغتمت الدول الاستعمارية الفرصة فى أغلاطه، والضعف الذى انتاب البلاد على عهده، ووجدت من ذلك سبيلاً إلى تحقيق أطماعها فى أرض الكنانة، والضعف فى كل عصر آفة الأمم، والقرة هى سياج حريتها واستقلالها.

قطار بدون سائق :

كان إسماعيل في شططه واندفاعه نحو الغرب الأوربي، أشبه بقطار بدون سائق يضبط حركته، ويلزمه التآني في المنحنىات التي تتطلب الهوينى، أو يجبره على الوقوف في المحطات التي تستوجب ذلك، ومضى إسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملايسهم ومهراتهم، متناسيا أنه حاكم مسلم يحكم شعبا مسلما له موروثاته وعاداته وتقاليدته، وأن تبدل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلى نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعى تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى، ولم يلتفت إلى ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج، بل بطش بمشاريخ الأزهر عندما عارضوه، وانتشى بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته، وإنهالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر، ولم تكن هذه المقالات لوجه الله، وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين.

كان أقصى ما يريده إسماعيل: أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفندجى القاعد على أموال قارون، ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال، ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة، وهى أن هذه الأموال هى من خزائن بنوكهم، وهى بضاعتهم ردت إليهم فى أشكال من السفه والبدخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلا (11) .

انظر .. ثم أحكم .. بعد أن تقرأ هذه النادرة التي رواها إلياس
الأيوبي في الجزء الأول من كتابه (عصر إسماعيل) :

ذهب الخديو لحضور المعرض الدولي في باريس، وصدرت
الصحف الباريسية تبشيراً بوصول الخديو، مصر إلى عاصمة
الإمبراطورية الفرنسية، ولما كان هذا اللقب جديداً على المسامع، أقبل
الناس يتساءلون : خديو؟ ما هو الخديو؟ وأشرأبت أعناق أفهامهم إلى
الوقوف على معنى الكلمة، بالتعرف بحقيقة الأمير المطلقة عليه، وكان
(إسماعيل) قد ذهب إلى باريس، وجيوه ملأى بالنقود، وخزائن
المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه، ففتح يده بسخاء وبذخ لم
يعهدهما العالم الغربي في عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض،
فبات أحدثه إعجاب الجميع ولقبته الدوائر الاجتماعية (أسد اليوم)،
وانكسفت أمام أصفره الرنان، والمبدول بجود حاتمي، شمس جلالة
السلطان عبدالعزیز على شدة سطوعها. ووقع في خلد العامة أن
(الخديو) إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة، بعث إلى الحياة، ثانية،
ليؤكد للملأ أن أقاصيص تلك الرواية إنما هي حقائق، لا حديث خرافة،
وأنه (خليفة الفراغة على عرش القطرين) أكبر ملك، حلت قدماء أرض
فرنسا، كما أنه أغنى عواهل الأرض قاطبة (١١)

فتاة القصر :

ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس، تلك القصة
التي رواها الكونت دي لافيزون، في مذكراته، وهي أن أحد كبار
الديلاء الفرنسية دعا الخديو إسماعيل إلى وليمة في قصره، بضواحي

باريس، فأجاب الخديو دعوته، وإذا به يرى قصرا بلغ من الجمال والجلال، وفاخر الرياش، ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبدا، في حوزة غير الملوك، فأعجب (إسماعيل) به أيما إعجاب، ويعد تناول الغداء - وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين - أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره، فشكره النبيل على تطفه، وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد، فأحب مساعدته بشكل لا يتجرح له إحساسه، فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره، وكان الرجل على شدة احتياجه إلى النقود، لا يرى في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم، وتخرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض، فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحملة على العدول عن رغبته في المشتري، فأجاب : إنى قد أبيعته يا مولاي، مقابل خمسة ملايين من الفرنكات .

ولم يكن القصر يساوى أكثر من مليون ونصف مليون فرنك، ولكن إسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائفة، وقال : إنى اشتريته منك بهذا المبلغ، وحرر له في الحال حوالة بثمنه على أحد البنوك بباريس، ولم يجد الرجل مفرا من قبول البيع، غير أن إسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعا، وعرف أنها أبنة النبيل، فقال بابتسام جميل مخاطبا والدها : (على أنى لا أحسبك تمانع فى تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليدا لذكرى استحسان الخديو مصر، ظرفها وأدائها ولكيلا يقال أنى زرتك لأجرك هـ قصرك) .

وبدلاً من أن يعلق المؤرخ (الأيوبي) على هذا التصرف بالاستنكار والذم والتهديد بخديو مصر الذى يبدد أموالها فى السفه والفجور، نراه

يقول: فكان لهذه الهبة الجليلة، وكيفية منحها، رنة إعجاب في العاصمة الفرنسية، جعلت (إسماعيل) موضع رشارات البنان. والتفادات الأعين، حيثما توجه، وأينما حل، وسهلت عليه جدا تحقيق الرغائب السامية الدائرة في فؤاده، ألا وهي القضاء على القبيدين المقيدين لاستقلال بلاده، وهما: ما تبقى من ظل السيادة العثمانية، والامتيازات الأجنبية (١١) .

يد مثقوبة:

بالله عليكم.. هل رأيتم أشد سخفا من هذا التبرير الأبله لسفاهة خديو مصر؟ وهل فطنتم إلى هذا الربط المتعسف بين يد إسماعيل المثقوبة، وبين استقلال مصر، وتبديد الملايين من أجل كشف ما تبقى من ظلال السيادة العثمانية والامتيازات الأجنبية..؟ وأين الفوائد التي عادت على رفعة مصر ورقبها في عيون الأجانب، من إغداق خمسة ملايين فرنك على فتاة هيفاء فرنسية ذات خمسة عشر ربيعا (١١) .

أنه الضعف الذي يصيب المؤرخ حين يكتب في ظل العصر الذي يؤرخ له، فيطلق لقلمه عنان الرياء والمديح وتبرير الفساد، ويجعل من الفسيخ شريبات حتى يحظى برضاء سادة العهد الذي يكتب فيه، ولا غرو أن يفوز (الأيوبي) بالجائزة الأولى في المسابقة التي تمت عام ١٩٢٣ تحت رعاية الملك فؤاد بين المؤلفين لوضع كتاب يؤرخ لعصر أبيه.. ومع ذلك فالكتاب حافل بالنوادر التي تكشف عن فساد إسماعيل وتصرفاته الخرقاء، وتبذيره المال في وقت كانت مصر تلن فيه من

وطأة الديون حتى أن السلطان عبدالعزيز أصدر في عام ١٨٦٨ م فرمانا يغل يد الخديو عن الاستدانة الأجنبية لمدة خمس سنوات عاشها إسماعيل كما يعيش الفأر في المصيدة، فلما أوشكت السنوات الخمس على نهايتها، شد الخديو الرحال إلى الاستانة ليعمل على تحرير نفسه من هذا القيد، ولم يتورع أن يصحب معه والدته، الأميرة خوشيار، ليستخدمها في تطويع إرادة الحريم السلطاني ليسانده في مطالبه من السلطان وأخذ الخديو معه صفائح الذهب والهدايا التي تدخل السرور على قلب عبدالعزيز، وفي طليعة هذه الهدايا خمسمائة بندقية من طراز «مرتني هنري»، دفعت مصر ثمنها لمعامل أنجلترا، فلما حل عيد جلوس عبدالعزيز على عرش السلطنة، أقام إسماعيل في قصره، على ضفاف البوسفور، سلسلة من الولائم لكبار رجال الدولة، ختمها بوليمة خاصة لجلالة السلطان، بذل فيها من صنوف اللذات، وأريق فيها من المشارب ما لم يقع في خلد أحد، وتوج ذلك جميعه بأن قدم للسلطان «طقم» سفرة من صنع باريس، كل آنيته من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، وقد استعمل في تزيينها من العاس وحده ما يزيد على خمسة آلاف قيراط (١١) .

قائمة الرشاوى:

يقول (الأيوبي) في لهجة المعجب بسخاء سيدة : على أن جميعه، رغم جسامته، لم يكن بالنسبة إلى اللاحق إلا كنسبة التوابل إلى الطعام الحقيقي، فإن (إسماعيل) لم يمض على إقامته في الاستاذ شهران، حتى كانت قائمة أعطياته وهداياه كما يلي:

- * مليون جنيه عثمانى للسلطان عبدالعزیز .
- * خمسة وعشرون ألف جنيه انجليزى للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) .
- * خمسة عشر ألف جنيه لوزير الحربية .
- * عشرون ألف جنيه إلى كبار رجال السراى السلطانية .

ومن جانبها قامت الوالدة باشا باستمالة قلوب الحريم السلطاني، وفوق الهدايا النفيسة التى قدمتھا إلى نساء الوزراء العثمانيين وكبار موظفى السراى، تقریرت من السلطانة ذاتھا - والدة عبدالعزیز - وأولمت لها الولائم الفاخرة، وقدمت لها من التحف الثمينة مالا يمكن وصفه، أو حصره، مما أكسب مصالحي إسماعيل فى السراى السلطانية صوقا غير قابل للرفض، وهنا تقدم إسماعيل بمطالبه، واستجاب له عبدالعزیز، وأصدر له الفرمان الذى يسمح له باستئناف الاقتراض : إنى شاء.. ومتى شاء.. وكيفما شاء (١١) .

وعاد إسماعيل إلى مصر فرحاً مبتهجاً بهذا الانتصار.. وتزينت الاسكندرية ثلاثة أيام.. وكذلك القاهرة.. ودقت البشائر، وعزفت الطبول، وأقبل عليه الوزراء والكبراء مهنتين بهذا الأنجاز الباهر.. وكان ولى الدعم قد جاب الديب من دبله.. وما علموا أنه عاد بالذكبة والدمار على مصر.. إذ لم تمض سوى أيام حتى كان إسماعيل قد استدان أفدح وأكبر قروضه الأجدبية وهو القرض الذى أطلق عليه المؤرخون بحق: القرض المشنوم لفداحة قيمته وقد بلغ ٣٢ مليون جنيه (١١) .

القرض المشؤم

فى أغسطس ١٨٧٢ عاد الخديو إسماعيل من الآستانة، بعد أن قضى فيها سحابة الصيف، وفتح على البهلى جعبته العامرة بالذهب والفضة ليغترف منها السلطان وأمه وزوجاته وحاشيته، عساه يحظى بالرضا السامى، ريفك القيد الذى فرضه عليه السلطان بعدم الاقتراض من الدول الأجنبية، وقعلت الرشاوى فعلها الساحر، واستطاع إسماعيل أن يشتري الذمم الخزية فى ذاك البلاط الفاسد، فأعطاه عبدالعزيز ملك التحرير والانعتاق، وسمح له بأن يقترض كيفما شاء.. ومتى شاء.. وأنى شاء.. ورقص إسماعيل طرباً لهذا النصر المؤزر.. وما درى أن السلطان منحه الحبل لئكى يشنق نفسه.. فكان رقصة أشبه برقصة الطائر وهو يترنح من سكرات الذبح.. لقد رفعت الوصاية عن إسماعيل فمضى فى طريق الغواية الى نهايته، كأى وريث سفيه، ما أن يرفع عنه الحجر حتى يبدد أمواله دون حساب لغدر الزمان (١١). وقيل أن يصل إسماعيل إلى ديار المحروسة، كانت أنباء النصر المبين قد سبقته، فاكتست الاسكندرية أزهى حللها ثلاثة أيام بلياليها، وكذلك القاهرة.

ودفعت البشائر، وعلفت الزينات، توافد كبار رجال الدولة على القلعة يقدمون القهاني إلى أميرهم لحصوله على حق الاقتراض دون استئذان السلطان، وكلهم يمني نفسه بهبة من الثروة التي ستهبط من بترك أوروبا II.

فهل رأيت اختلالاً في القيم، وتدهوراً في معاني الوطنية، أبشع مما حدث في هذا العصر الذي صار فيه الاقتراض غاية المني، ودليل استقلال وحرية .. بلد يقيم الأفراح والليالي الملاح - ليس لأنه تحرر من الاستعمار الأجنبي - ولكن لأنه دخل بحية، الاقتراض الأجنبي (II) . بعد عودة الخديو إلى عاصمة ملكة، وصلته الدفعة الأولى من الصفقة في شكل فرمان ١٠ سبتمبر ١٨٧٢ وفيه يعترف السلطان بالامتيازات التي سبق أن حصل عليها إسماعيل من دار السعادة، وبعد ١٢ يوماً وصلته الدفعة الثانية ممثلة في الخط الشريف، برفع الحظر على الاقتراض الخارجي، ولكن حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان . فقد تبين إن رجال البلاط العثماني خجلوا من تدوين هاتين الوثيقتين في السجلات الرسمية - وأن لم يدخلوا من قبض الرشوة التي دفعت ثمناً لهما - فلما دارت الأيام، وخلع السلطان عبدالعزیز ثم قتل، رفض مدحت باشا - الصدر الأعظم والمصلح المعروف - الاعتراف بالفرمانين، ولكنه أخذ بنصيحة سفير إنجلترا في الآستانة، وصاحب الكلمة النافذة في الدولة العليا، واضطر إلى الاعتراف بهما لوجود تأشيرة السلطان عليها.

هذه مجرد طرفة، وإن كانت كالحبة وسمجة، ولكنها تعطيك صورة عن عاقبة التعامل مع اللصوص بعد توزيع الغنائم، ونعود بعدها إلى مشاهدة وقائع التراجيديا المصرية التي صنعها إسماعيل.

الديون السائرة :

أراد الخديو أن يمارس حريته بعد خروجه من الاعتقال، ويستمتع بعادته المزدولة في الاستدانة من الخواجات، فأقدم على عقد أفدح قرض في تاريخه، وهو القرض الذي سماه الماليون «القرض الكبير» وسماه الرافعي «القرض المشنوم»، وهي تسمية أصدق، نظراً للمصائب التي نجمت عنه، ووضعت مصر على شفا الإفلاس، وعجلت بسقوط إسماعيل، واحتلال مصر احتلالاً عسكرياً دام سبعين عاماً أو يزيد. وقبل أن أعرض عليك قصة هذا القرض المشنوم، سأقدم إليك بياناً مختصراً عن القروض التي سيقته، وقبل هذا وذاك لابد أن تكون على بينة من القروض الداخلية التي استدانها الخديو من أبناء شعبه، وهي التي يطلق عليها اسم «الديون السائرة»، وتشتمل على المشتريات والاستجارات والمعاملات المدنية والتوصيات، وتشتمل كذلك على الإفادات أو البونات (الأذون) المالية، أو بونات الروزنامة أو بونات الدائرة السدية، وهي عبارة عن كمبيالات تكتب بقيم مختلفة مسحوبة على الدواوين المتقدمة تحت الإذن، موقعاً عليها من وزير المالية أو من ينوب عنه، وتستحق الوفاء في الميعاد الموضع بها، وكانت هذه البونات تودع بالخزائن ليشتريها الراغبون، وبعد مساومتهم على سعر الفائدة، يدفعون صافي قيمتها للخزانة، ويتسلمون الكمبيالات، ويتاجرون فيها، وعند حلول موعد السداد يقدمونها للخزانة ويقبضون قيمتها. وكان

المرابون الأجانب المقيمون بمصر من أكثر الفئات إقبالاً على شراء هذه الكمبيالات لارتفاع سعر فائدتها. ولم يكن للديون السائرة حساب معروف، بل كان الخديو كلما احتاج إلى المال، استدان بقدر ما تصل إليه يده، وقد اختلفت الآراء في تقدير حجم هذه الديون لصعوبة حصرها، فمؤلف كتاب (تاريخ مصر المالي) يقدرها سنة ١٨٧٤ بحوالى ٢٦ مليون جنيه، وقدرها آخرون بحوالى ٢٨ مليون جنيه، وجاء في الوقائع المصرية بتاريخ أول إبريل ١٨٧٣ أنها بلغت ٢٥ مليون جنيه. وهذا طبعاً بخلاف ديون الدائرة السنية (أطيان الخديو الخاصة) وقد بلغت أربعة ملايين جنيه بفائدة كانت تصل إلى ٢٤ ٪ سنوياً.

مسلسل القروض :

كان هذا حجم القروض الداخلية .. والآن نتكلم عن القروض الخارجية التى استدانتها الخديو من بيوت المال اليهودية فى فرنسا وانجلترا، وسبق أن ذكرت لك أن إسماعيل، عندما جلس على عرش البلاد سنة ١٨٦٣ ندد بسلفه - سعيد باشا - لأنه اقترض أحد عشر مليوناً من الجنيهات، وانتقده انتقاداً لا ذعاً لأنه أقدم على هذا الفعل الربيل، روعد بتسديد هذا الدين فى أقرب فرصة حتى يظهر مالية مصر من أى نفوذ أجنبى .. ولكن .. شتان ما بين الأقوال التى يتفوه بها الحاكم فى مسهل حكمه ليخدع بها شعبه، وما بين الأفعال التى يدمر بها شعبه، وإليك بيان القروض السنوية التى استدانتها إسماعيل :

* فى العام القالى لجلوسه على الأريكة المصرية، افتتح إسماعيل مسلسل القروض بخمسة ملايين و ٧٠٤ آلاف و ٢٠٠ جنيه استدانتها من

بيت «فروهلينج وجوش» الانجليزى بفائدة ٧٪ ويسدد على ١٥ سنة. أما المبلغ الحقيقى الذى دخل خزانة مصر فهو أربعة ملايين و ٨٦٤ ألف جنيه بفائدة ١٢٪. أما أين ذهب الفرق فعلمه عدد حاشية الخديو وسامسرتة والقوادين الذين كانوا يقبضون عمولاتهم مسبقاً.. وقد رهنّت الحكومة لسداد فوائد هذا القرض: ضرائب أطيان مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة.

* فى العام التالى (١٨٦٥) اقترض إسماعيل ٣٣٨٧٠٠٠ جنيه من بنك «الانجلو إجيبشيان»، لم تتسلم مصر منها سوى ٢٧٥٠٠٠ جنيه وبفائدة فاحشة بلغت ٤٪ شهرياً أى ٤٨٪ سنوياً. أما الرهن فكان ٣٦٥ ألف فدان من أراضى الدائرة السنية.

* فى العام التالى (١٨٦٦) وهو عام تكوين مجلس شورى النواب، اقترض إسماعيل من بنك «فروهلينج وجوش» ثلاثة ملايين جنيه لشراء أملاك الأميرين حليم وفاضل، ولرشوة السلطان حتى يوافق على تغيير نظام وراثته العرش. ولم تتسلم مصر منها سوى ٢٦٤٠٠٠ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٧) اقترض إسماعيل من البنك «الإمبراطورى العثمانى» مبلغ ٢٨٠٠٠٠ جنيه، والسبب غير معروف، أو بحجة تسديد دين سعيد باشا، أو لتحويل الديون السائرة إلى دين ثابت. ولكن بقى كل شىء على حاله، ولم تتسلم مصر من هذا المبلغ سوى ١٧٠٠٠٠ جنيه.

* وفى العام التالى (١٨٦٨) اقترض إسماعيل ١١٨٩٠٠٠ جنيه من بنك «أرينهايم»، لم تتسلم مصر منها سوى ٣٨٤٠١٩٥ جنيه
أن سعر القرض ٦١٪ وخصص لسداد أقساطه: إيرادات الجم

وعوائد الكبارى وإيراد الملح ومصايد الأسماك . وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة لمدة خمس سنوات . ورغم فداحة الفرق بين قيمة القرض الحقيقية والاسمية، فقد أنفق منه الخديو نحو مليونين فى الاستانة لرشوة السلطان ويطانته، وأنفق جزءاً منه على إتمام قصوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالأسكندرية وتأثيثها بفاخر الرياش ، ومن هذا القرض أيضاً أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وقد بلغت مليوناً ونصف مليون جنيه، وإليك تعليق المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على هذه المسألة : أنظر كيف أن نفقات تلك الحفلات كانت من القروض، فكان الخديو فى هذا الموقف شبيهاً ببعض الذوات والأعيان فى الاستدانة للإنفاق على إقامة الحفلات والولائم، والظهور بمظهر الفخفخة واللبذخ، أمام قوم ليس فى قلوبهم ذرة من الإخلاص لمصيفهم، فإن ضيوف القناة، ومعظمهم من ذرى الرؤوس المتوجة، وأصحاب النفوذ والسلطان المالى والسياسى فى أوروبا، هم الذين استعبدوا مصر بعد انتهاء تلك الحفلات، وهم الذين ضربوا عليها الوصاية الشديدة الوطأة، ولقد أحدثت نفقات حفلات القناة فراغاً كبيراً فى الخزانة، وبدأت مظاهر الضيق والارتباك تبدو على وزارة المالية، لقرب المواعيد المضروبة لأداء أقساط الديون، ولم يكن فى خزائنها ما يفى بذلك، فاضطر الخديو تفريجاً للضائقة، وكتماناً لأسرارها، أن يستدين من أحد معارفه ٣٠٠ ألف جنيه، وقبلت وزارة المالية أن تخصص سدداتها بقائدة ١٤ ٪ لمدة ثلاثة أشهر، ويدهى أن قبول هذه الشروط القاسية دليل على ما وصلت إليه الحالة من الضيق والإعسار.

غلطة قاتلة :

فى غضون هذا الوضع المتردى الذى كان يتطلب حكمة وتعقلاً، أقدم الخديو إسماعيل على غلطة قاتلة بتعيينه إسماعيل باشا صديق (المنش) وزيراً للمالية، فكان أشبه بالقط الذى سلموه مفتاح الكرار. فعاث فيه فساداً ونهباً وغشاً وتلفيقاً. وكان بارعاً فى جلب الأموال بالنصب والاحتتيال دون خوف لأنه كان مطمئناً إلى أن مهمته الأساسية هى إسعاد مولاه، وتدبير الأموال التى تنعشه من أى سبيل. وكان يبتكر أساليب لا تخطر على بال عتاة النصابين والأفاقيين منها أنه فى صيف ١٨٦٩ باع للتجار الأجانب نصف مليون أردب من بذرة القطن، والقطن لا يزال قائماً على سيقانه فى الأرض. وتسلم الثمن نقداً وعداً.. فلما تم جنى القطن وحل موعد تسليم البضاعة ذهب المشترون إلى الشئون لاستلام البذرة فلم يجدوا شيئاً، وتبين لهم أن الوزير باع البذرة إلى مشتريين آخرين.. أى أنه باعها مرتين.. وعندما ارتفعت أصوات المشتريات بالاحتجاج، استدعاهم الوزير وقال لهم: ولا تزعلوا.. كم دفعتمهم فى ثمن الأردب؟ قالوا: دفعنا ٧١ قرشاً. قال: وأنا اشتريت منكم الأردب بسعر ٧٨ قرشاً.. واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة كمبيالات بفائدة ١٢٪ سنوياً.. أى أن ربحهم من الصفقة الوهمية ١٨٪ سنوياً وتكررت هذه العملية أكثر من مرة، وتبين للجنة التحقيق الأوروبية أن الحكومة كانت تباع للتجار الأجانب غللاً ليست فى حوزتها، ولا ينتظر أن تحوزها، وتقبض ثمنها فوراً، فإذا جاء موعد التسليم، اشترت الحكومة الغلال من ذات التاجر الذى باعته إياها، ودفعت ثمنها أوراقاً وسندات على الخزانة مع فوائد تصل إلى ٢٠٪ ولا تحسب

الفوائد على المبلغ الأصلي الذي دفعه التاجر، بل على المبلغ التالي المقدر ثمناً لغلاله .. وبهذه السرقات الفاحشة كانت خزينة الحكومة تلزف أموالاً بلا حساب أو عقاب .

قرض الدائرة السنوية :

ولما حل عام ١٨٧٠ ، والخديو مقيد بعدم الاقتراض من الخارج طيفاً لشروط قرض ١٨٦٨ ، ويمقتضى فرمان الباب العالي ، لم يجد إسماعيل بداً من الاقتراض لحسابه الشخصي ، فاستدان من البنك «الفرنساوى - المصرى» ٨٦٠ر١٤٢ر٧ جنيهاً بفائدة ٧٪ بضممان أطيانه الخاصة ، ولذا سمى هذا القرض : قرض الدائرة السنوية الثانى ، وصدر بواقع ٦٧٪ فقط بعد استبعاد السمسرة والعمولة ، فكانت النتيجة : إنه لم يدخل من القرض إلى خزائن الخديوى سوى خمسة ملايين جنيه ، حتى بلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنوية سنوياً لأداء هذا القرض ٦٦٨,٩٦٠ جنيهها أى ١٣٪ تقريباً من رأس المال المدفوع ، وزعم الخديو أنه عقد هذا القرض ليستخدمه فى إنشاء مصانع السكر ومد السكك الحديدية فى أطيانه لنقل محصول القصب . وعند إنشاء المصانع والسكك بلغت تكاليفها أضغاف ما تستحقه ، فضلاً عن أن أرباحها تقل عن فوائد الدين . ولهذا القرض حكاية يرويها إلياس الأيوبي وتكشف عن سفاهة الخديو . فيقول إن الذى قدم هذا القرض هو محل «بيشوفشهم وجولد شمديت» ونال فى مقابل ذلك امتيازاً لتأسيس بنك يدعى «البنك الفرنساوى - المصرى» كان الخديو نفسه أكبر مساهميه ، واكتسب بربع أسهمه أى بما بلغت قيمته ٦,٢٥٠ر. فرذك ، وقام مؤسسه ببعض شئون تصدير القرض ،

وعلى الرغم من تصديره بواقع ٧٠ ٪ فقط، وبالرغم من هبوط صافي التصدير إلى ٦٧ ٪، فإن القرض لم يغط سوى ثلثيه فقط، ولم يكتب أحد في الثالث الباقي، فأوصيت الحال خفض أسعاره، وكانت النتيجة أنه لم يقبض منه سوى خمسة ملايين جنيه فقط، ويحكى الأيوبي عن الأساليب السوقية التي كان يسلكها الوزير إسماعيل صديق للترويج لهذا القرض وتشجيع الناس على الاكتتاب فيه، فكان يذهب بنفسه على رأس فئة من رجال الحكومة إلى مقر البنك ليوهم الناس بثبات الموقف المالي، ويكون قدرة للسذج، ولو للحظة، ولكنه لم يجد قبولا عند الناس، وارتفعت أصوات الصحف الوطنية تطالب الباب العالي بالتدخل لمنع هذا القرض. وإذا بأنباء حرب السبعين بين فرنسا وألمانيا تلقى بظلالها الكئيبة على الخديو بعد أن رأى عرش صديقه الحميم نابليون الثالث ينهار أمام الجحافل الألمانية. ويرى صديقه العزيزة «أرجيني» تهرب كجرذان السفينة، ولما عم الضيق واشتد الكرب، لجأ المفتش إلى سلاح الدعايات الكاذبة، فأشاع بين الناس أن الحكومة عازمة على بيع سككها الحديدية إلى شركة انجليزية، وقارة يزعم أن وزارة المالية على وشك أن تستبدل إفادات الديون السائرة بحيث تصيب منها ١٢ مليون جنيه، ونجحت هذه الدعايات في رفع سعر القرض المذكور إلى ٧٤ ٪.

قانون المقابلة :

في ذلك العام (١٨٧٠) بلغ مجموع الديون التي اقترضتها إسماعيل ٣٣ مليون جنيه، في أقل من سبع سنوات، ومع ذلك يذكر مؤلف كتاب (موقف مصر المالي) أنه كان من الممكن إنقاذ الموقف، والخروج

الأزمة الخانقة لو عدل الخديو عن خطته، وتكسب سبيل الأسراف والتبذير، ولما ضاقت سبل الاقتراض الخارجى أمام الخديو، تفتق ذهن وزير مالىته إسماعيل صديق عن حيلة يبتز بها أموال المصريين، فعمد فى البداية إلى زيادة الضرائب، ولكن هذا المعين لم يشبع حاجة الخزينة إلى الأموال، فابتدع المفتش طريقة تعد بمثابة قرض إجبارى يجبى من الأهالى، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم، وأعد لذلك قانوناً عرف باسم «قانون المقابلة»، وبمقتضاه يدفع مالك الأطيان مجموع الضرائب المربوطة على أرضه لمدة ست سنوات مقدماً، وفى مقابل ذلك يعفى من دفع نصف المربوط على الأرض إلى الأبد. أى يدفع المالك ضرائب السنوات الست دفعة واحدة، وتحسب لهم فوائد عن هذه الدفعة الواحدة بواقع ٨٥% وأساس هذا المشروع، على حسابان إسماعيل صديق، أن الدين العام يبلغ ضعف الضرائب العقارية عن ست سنوات، فإذا دفع الأهالى الضرائب مضاعفة عن هذه السنوات الست، سدد الدين كله، وفى مقابل ذلك تعفيهم الحكومة إلى الأبد من نصف الضريبة المربوطة على أطيانهم، وتعهدت الحكومة فى هذا القانون، بأن من يدفعون المقابلة لا يزداد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل، ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة، ولا يجوز لوزير المالية - بعد الحصول على المبالغ المطلوبة - إصدار سندات على الخزانة أو استدانة ديون جديدة، ولا تجوز المطالبة بسلف مؤقتة ولو تحت تأثير قوة القاهرة كشرق أو غرب إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس النواب، وقضى القانون أن تخصص المبالغ المدفوعة من المقابلة لسداد ديون الحكومة. وأرجو أن تضع خطين تحت العبارة التى تمنع وزير

المالية من الاستدانة أو إصدار سندات على الخزانة «بعد الحصول على المبالغ المطلوبة.. لأن إسماعيل صديق، الحريق في المراوغة والتدخل من الأخلاق، سوف يستخدم كل الحيل للانعتاق من هذه القيود، بحجة أن المبالغ المطلوبة لم تكتمل (11) فرغم أن الحكومة جعلت دفع «المقابلة» اختيارياً إلى أنها استخدمت القوريط بالنسبة للبشوات وكبار الأعيان، واستخدمت الضغط والإكراه والضرب بالكرياج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الإكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم، لأنهم يعلمون براعة الحكومة في التحلل من العهود، ورغم ذلك لم تجمع الحكومة من أموال المقابلة سوى خمسة ملايين جنيه لغاية آخر سنة ١٨٧١. يقول الراقصى: رغى عن البيان أنه لم يدفع شيء من هذه الملايين لتسديد الدين العام، أجنبياً كان أو سائراً، بل ابتلعتها هاهوية الإسراف التي ابتلعت القروض الأخرى، وعلاوة عن ذلك فإن وزير المالية إسماعيل المفتش نقد عهده بالامتناع عن إصدار سندات على الخزانة، وأصدر إفادات مالية استدان بها عدة ملايين أخرى بلغت اثني عشر مليون جنيه، ونقضت الحكومة عهدها أيضاً فزادت الضرائب على ذات الزطيان التي دفعت المقابلة، وكانت المقابلة طريقة معوجة في الاستدانة، لأنه معلوم أن معظم إيرادات الحكومة السنوية في بلاد زراعية كمصر، تجبى من الضرائب على الأطينان فإنقاص نصف المربوط من الضرائب إلى الأبد يؤدي إلى تضروب معين المال بعد انتهاء السنوات الست، مما يضاعف من الضيق المالي، هذا فضلاً عن أن الحجة التي تذرعت بها الحكومة وهي وفاء الدين العام لم تتحقق البتة، ولم يسدد شيء من هذا الدين، بل زاد عما كان عليه، فكأن «المقابلة» كانت وسيلة لاقتناص الأموال من الأهالي وتبديدها.. ومن

اتجهت همه إسماعيل ،الخدويه وإسماعيل «المفتش» إلى خارج الحدود لاستئناف مسلسل الاقتراض ، فكان القرض المشكوك من بيت «أوبنهايم» ، وكانت الحجة هي نفس الحجج السابقة التي لم يتحقق منها شيء وهي تسديد القروض . وبلغت سندات القرض ٨٤٥٪ بفائدة ٧٪ ولم يدخل الخزانة منه بعد الخصم والسمسة والعمولة سوى ٢٠٠.٧٤٠ ر.جنيه أى بنقص ٣٧٪ من قيمة الدين الاسمية ، فخسرت الحكومة من أصل القرض ٢١ مليون جنيه فى حين أنها التزمت بتسديد قسط سنوى ٢٦١ر٢٦٥ر٢٦١ جنيهًا ثم إنها لم تقبض المبلغ نقدًا ، بل تسلمت منه أحد عشر مليون جنيه فقط ، والباقي وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية .

شروط جائزة :

ومن هذا يتبين - كما يذكر الراقى فى كتابه عن عصر إسماعيل - أن قرصناً ألقى على عاتق البلاد عبثاً جسمىاً مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه ، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقداً أحد عشر مليون جنيه فقط ، وليس فى تاريخ القروض ، فى العالم قاطبة ، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة ، بل هذه السرقة العلنية ، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط ، وقد رهن إسماعيل لسداد هذا الدين المشكوك ما بقى من موارد الإيراد التى لم تخصص كلها أو بعضها للقروض السابقة وهي :

أولاً : إيرادات السكك الحديدية وقدرها ٧٥٠ ألف جنيه فى السنة .

ثانياً : الضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وقدرها مليون جنيه .

ثالثاً: عوايد الملح وقدرها ٢٠٠ ألف جنيه.

رابعاً : مليون جنيه من ضريبة المقابلة.

خامساً : كل الموارد التي خصصت للقروض السابقة متى أصبحت حرة، ومن تهكم الأقدار أن إسماعيل عقد هذا القرض المنحوس في نفس السنة التي حصل فيها على الفرمان الجامع الذي يعد أقصى ما حصل عليه من المزايا، أو بعبارة أخرى: فإن إسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمي في علاقته مع تركيا، في الوقت الذي أشرفت فيه البلاد على حالة من الإفلاس أفقدتها استقلالها المالي ثم السياسى.

خلع إسماعيل

كان خلع الخديو إسماعيل وطرده من مصر، ثمرة مؤامرة خبيثة حبكتها إنجلترا، وهى فى ذروة مدتها الاستعماري، وسارت الدول الأوروبية فى ركابها وسابرتها دولة الخلافة العثمانية وكانت فى أضعف حالاتها، ولم يكن عزل إسماعيل بسبب عجزه عن تسديد الديون كما أشاعوا، لقد جعلوا من أزمة الديون حجة لتبرير خلعهم، وصوروه على أنه «أكالنجى» يعتزم عمل تفليسة ليستهرب من سداد الديون، ولم يكن هذا صحيحا، وأن الصحيح أن إنجلترا هى التى كانت تسعى إلى إعلان إفلاس مصر تمهيدا لاحتلالها والسيطرة على قناة السويس - مفتاح الهدد - وهو ما حدث فى عهد توفيق، وكان الوزيران الأوربيان فى حكومة نوبار ثم توفيق يعدان مشروعا لإعلان أن مصر فى حالة إفلاس، ولكن.. زعماء الوطنية المصرية تحركوا.. وأعدوا مشروعا مضادا يكفل ضمان الديون وتسديدها من إيرادات الحكومة المصرية، وقدم هؤلاء الزعماء «اللائحة الوطنية» إلى «الخديو» إسماعيل وتضمن بتدين اثنين لا ثالث لهما : أولهما تسوية الديون الأجنبية على أساس أن الإيرادات تكفى المصروفات والوفاء بحقوق الأجانب،

وثانيهما: تعديل النظام البرلماني وتخويل مجلس شورى النواب السلطات المعمول بها في البرلمانات الحديثة، وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية بحيث تكون الحكومة مسئولة أمام المجلس النيابي - وليس أمام الخديو..

ولو أمعنت النظر في هذه اللائحة الوطنية، فسوف ترى فيها روحا جديدة على الحياة السياسية المصرية في سبعينيات القرن التاسع عشر، وأنها خطوة انتقالية في تطور البلاد، فالمجلس النيابي الذي رأى النور في عام ١٨٦٦، وولد بدون سلطات فعلية تعطيه حق المشاركة والرقابة على مقدرات البلاد، هذا المجلس الذي أراد به إسماعيل أن يكون مجرد ديكور يتباهى به أمام الدول الأوروبية - إذا به يكبر وينمو ويبلغ درجة النضج.. ويطالب بتطبيق المبادئ الأساسية التي قامت عليها الحياة البرلمانية في أوروبا وأولها مبدأ المسؤولية الوزارية، حتى تكون الوزارة مسئولة أمام ممثلي الشعب، وإذا بقيادة الشعب يتحركون لإجهاض المؤامرة التي كان يدبرها الوزيران العميلان - أحدهما الإنجليزي والثاني فرنسي - ويعلن قادة الشعب أن مصر قادرة على سداد الديون مع الحفاظ على كرامتها وسمعتها أمام العالم..

كان بطل هذه الحركة الوطنية هو: شريف باشا الذي ارتبط اسمه في تاريخ النضال بالنزاهة والشرف والتشيث بالدستور ورفض الهيمنة الأجنبية على مصر. أما أعوانه الذين شاركوه في إعداد اللائحة الوطنية فهم: اسماعيل راغب باشا، شاهين باشا، حسن باشا راسم، جعفر باشا، السيد علي البكري (نقيب الأشراف) الشيخ الخلفاوي، الشيخ حسن العدوي، وأعدوا عريضة أشبه بالذاكرة التفسيرية لللائحة وقع عليها عشرات من أعضاء مجلس النواب والتجار والأعيان والعلماء

والضباط والموظفين العاملين والمتقاعدين، كما وقع عليها شيخ الإسلام، وبطريق الأقباط وحاشام اليهود وحمل وفد من أحرار البلاد اللائحة الوطنية وذهبوا بها إلى قصر عابدين فقابلهم الخديو ورحب بهم، وأقر اللائحة وأمر بترجمتها وإرسالها إلى قناصل الدول الأجنبية وفي نفس اليوم (٧ أبريل ١٨٧٩) أمر بإعفاء ابنه (توفيق) من رئاسة الوزارة وتكليف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة وفقاً للمبادئ التي تضمنتها اللائحة الوطنية. وجاء في خطاب التكليف: إنى بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً، أرى مدم الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية، لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الله والأهالى، حتى نشأ عنه اضطراب ونفور، سرى فى جميع القلوب وحركها.. وزيادة على ذلك فإن النتيجة التى حررها ناظر المانية (الانجليزى) وأظهر بها أن القطر فى حالة إفلاس، كانت سبباً فى تغير قلوب الأمة.. لقد وكلكم بتشكيل هيئة النظارة من أعضاء أهليين مصريين.. مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الأمة الذى سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها.. هذا ولعلمى بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع.. إلخ..

وثيقة تاريخية هامة:

فى رأى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن هذا الخطاب يعد

الوثائق الهامة في تاريخ الحركة القومية والحياة الدستورية في مصر، لأن الخديو اسماعيل اعترف في هذه الوثيقة بأن من واجباته اتباع رأى الأمة، وأنه لم يكن راضيا عن الوزارة المستقيلة لمخالفتها إرادتها، فهو يعلن أنه مؤيد لمطالب الأمة معثلة في نوابها تأييدا تاما، وأنه موافق على اللائحة الوطنية التي تقدمت بها، ومما هو جدير بالاعجاب: إشادة الخديو بمصريته ووطنيته . كذلك قرر اسماعيل في كتابه مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب، وهو أساس النظام الدستوري الحديث، فهذا المبدأ العام الذى يعد قوام الدساتير قد تقرر إذن في مصر سنة ١٨٧٩ بالوثيقة التي استجاب بها الخديو اسماعيل إلى الأحرار فيها إلى شريف باشا تأليف الوزارة على أساس هذه القاعدة وظاهر أيضا من وثيقة ٧ أبريل أن الخديو لم ينقض تعهداته للدول، فقد أشار في ختام الوثيقة إلى إيجاد مصلحة تفتيش الإيراد والمنصرف، والمقصود منها نظام الرقابة الثنائية الذى تقرر فى مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦، ولو سلكت الدول الأوربية مسلك الاعتزال حيال مصر، لما اعترضت من جانبها على تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأجنبى، ولكنها وقفت موقف التعنت وسوء الدية وأعلنت رفضها لهذه الخطة الجديدة ..

المثير للعجب والغرابة أن ترفض الدول الأوربية المسلك الجديد الذى سلكه الخديو اسماعيل، وهو ارتماؤه فى أحضان الشعب، وقبوله مبدأ المشاركة الوطنية فى إنقاذ البلاد من «الخية» التى تحببها إنجلترا حول رقبة مصر، ربما يخيّل إليك أن هذه الدول «المتحضرة» غضبت من إقصاء الوزيرين الأوربيين من حكومة شريف باشا، وكأننا يقومون

بمهمة الرقابة والهيمنة على شئون البلاد، ولكن الحقيقة أن إنجلترا -
وتابعها فرنسا - إنما توجست خيفة من التطورات السياسية التي جرت
على مصر، وخشيت من تلك الروح الجديدة التي بدأت معالمها في
تدفق الدماء الوطنية في شرايين الحياة المصرية، وظهور زعامات
وطنية تتحمل المسؤولية، وتبدي استعدادها للمشاركة في تسوية أزمة
الديون .. وكل هذا يدل على أن مصر تسير في طريق الاستقلال
والتححرر من الهيمنة العثمانية. وتمضي خطوات بعيدة في الطريق الذي
شقّه محمد علي .. وهو بناء مصر الحديثة المستقلة عن تركيا وغير
تركيا ..

عشم إبليس :

هذا هو السبب الحقيقي الذي أثار مخاوف إنجلترا - أم الديمقراطية -
وجعلها تسعى، منذ مشروع اللائحة الوطنية، إلى خلع اسماعيل وطرده
من مصر، قبل أن يتحول إلى رمز وطني، وبدأت إنجلترا تسابق الزمن
قبل أن تتطور الحركة الوطنية في مصر إلى الدرجة التي تفسد خططها
الدقيقة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس ..

بدأ وكلاء الدول الأوروبية وقناصلها يتوافدون على قصر عابدين
لإبلاغ اسماعيل احتجاجهم على اللائحة الوطنية، وهو يظهر لهم عدم
الاكتراث، ثم تطور الاحتجاج إلى تهديد بالخلع والعزل وتعيين أخيه
وعدوه اللدود - مصطفى فاضل بدلا منه .. ولكنه قابل التهديد بع
المبالاة .. فقد كان لديه أمل ضئيل في أن تقف الدولة العثمانية إ
جانبه، ولا تخذله في هذه اللحظات العصيبة، وقد تكالبت عليه إنجلترا

وحرصت عليه كل أوربا، كان يتصور أن ملايين الدنانير الذهبية التي أغدقها على السلطان وحاشيته وأهل بيته سوف تعمل عملها حيث حانت لحظة الاستدجاد بالدولة العلية، وأوفد الخديو مندوباً عنه - طلعت باشا - إلى الآستانة محملاً بما أمكن جمعه من الأموال والتحف في تلك السنين العجاف. لعل هذه الرشاوى تفلح في إقناع السلطان عبدالرحمن بعدم الرضوخ لمطالب الدول الأوربية بعزل اسماعيل. وطالت إقامة طلعت باشا في استانبول، مما جعل الخديو يشعر بالقلق وأدرك أن عشمه في مساندة السلطان أصعب من عشم إبليس في الجنة، فبدأ يهيئ نفسه للرحيل. ويختار من حريمه أقربهن إلى قلبه، ويذكر كاتنب سيرته - الياس الأيوبي - جمع من كل حريمه ما كان معهن من حلى ومصاغ، واستدعى عدداً من صائفي الأقباط وأقامهم بعابدين يشتغلون ليلاً ونهاراً في نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل نقلها والتصرف فيها، وجرّد سراي عابدين من كل ريشها الثمينة التي كانت ملكة الشخصى، لا ملك الحكومة، ومن أنبتها الذهب الخالص والمرصعة - وقدر ثمنها بـ ٨٠٠ ألف جنيه، ومن كل طنافسها القديمة، وأثاثها الفاخر، ولوحاتها ونجفاتها الفضية، ولم يبق لخلفه من الـ ٢٤ طاقم سفرة الفخمة الموجودة فيها سوى طاقمين، وكانا أقلها قيمة، وأرسل جميع ذلك - ما عدا نسائه - إلى الأسكندرية في صناديق مغلقة، حملت على ظهر اليخت المحروسة، تحت حفظ حراس مؤتمنين..

وعاب الأيوبي على إحدى صحف الأسكندرية قولها إن اسماعيل بذل مجهوداً أخيراً لجمع أموال من الأقاليم، وأنه وضع يده على كل النقود التي كانت موجودة في خزانة المالية، وقدرها ما بين

٢٠٠ و ٣٠٠ ألف جنيه، وغنمها لنفسه . وفات ذلك الأفاك - كاتب المقال
كما وصفه الأيوبي - أن اسماعيل كان أدرى الناس بأنه لو فعل ذلك
لعرض نفسه إلى حجز الدول والحكومة المصرية ذلك المبلغ من مرتبه
السرى، فلا يكون قد جنى من عمله سوى العار والسخط العام ..

قرار العزل:

وفى تلك الأثناء كانت الدول الأوربية قد نجحت فى الضغط على
السلطان عبدالحميد وأجبرته على إقصاء اسماعيل عن أريكة مصر،
وتعيين ابنه (محمد توفيق) وفى صباح يوم ٢٦ يونية ١٨٧٩ أ برق
سفير إنجلترا فى الآستانة بأن الإرادة السلطانية قد صدرت بعزله، وفى
ضحى نفس اليوم، تلقى زكى باشا، السر تشريفات، برقية محررة باللغة
التركية ومرسله، إلى اسماعيل باشا خديو مصر سابقا، وكان زكى باشا
جالسا فى مكتبه بالدور الأرضى من قصر عابدين، وتصادف وجود
خيرى باشا (المهمندار) حامل الأختام السنية، وعدد من كبار رجال
القصر، وأسقط فى يديهم جميعا، وعلا الاصفرار والاضطراب جباههم
جميعا، وحاروا ماذا يفعلون (١١) وكل منهم يرفض أن يكون حامل
البرقية المشنومة إلى الخديو وهو يتربع على كرسى العرش فى الدور
العلوى، وحاولوا إقناع خيرى باشا بالقيام بهذه المهمة لأنه حامل
الأختام، إلا أنه رفض بإصرار.. وبينما هم يتجادلون دخل عليهم رئيس
الوزراء شريف باشا، فسلموه البرقية، فتردد بعض الشيء، إلا أنه
بصفته وزير مصر الأكبر، فمن واجبه أن يقوم بالتبليغ، ولم يكن
بالرجل الذى يحجم عن مثل هذا العمل مهما كان شاقا ..

الإرادة الهمايونية :

حمل شريف باشا البرقية وصعد إلى الطابق العلوى ، وفرض البرقية وهو فى الطريق فإذا نصها: «إن الصعوبات التى نجمت أخيرا فى أحوال مصر الداخلية والخارجية، بلغت مركزا عسيرا، وقد ينتج عن استمرارها كما هى خطر لمصر والدولة العثمانية، ومن أهم واجبات الحكومة السلطانية إيجاد الوسائل لتقرير الطمأنينة والأمن والرفاهية بين الأهالى، وإنما صدرت القرارات لهذه الغاية عيدها، فيما أنه قد ثبت أن بقاءكم فى منصب الخديوية لن ينجم عنه سوى مضاعفة الصعوبات الحالية، وزيادة خطورتها، فجلالة مولانا السلطان، بناء على تداول مجلس وزرائه، قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا فى منصب الخديوية، وأصدر إرادته الهمايونية بذلك، وقد أبلغ هذا القرار السامى إلى سعادته بإشارة برقية على حدة، وعاليه فإننى أدعوك إلى التخلّى عن شئون الحكم طبقا لأوامر جلالة السلطان، ..

تقدم شريف باشا على استحياء من إسماعيل، وقدم إليه البرقية، فقرأها وكأنه يعرف ما فيها، أو يتوقع هذه النهاية، وبعد أن فرغ منها التفت إلى شريف وقال له: «أدع سمع توفيق باشا حالا». فخرج شريف باشا وامتطى مركبته إلى قصر الإسماعيلية (مكان فندق هيلتون حاليا) فوجد الأمير توفيق على وشك الركوب متجها إلى قصر عابدين بعد أن تلقى فرمان التكليف، فركب شريف إلى جواره، فلما وصلا إلى عابدين، توقف شريف بالدور الأرضى، بينما صعد توفيق إلى حيث كان أبوه فى انتظاره، علنًا نهض إسماعيل وتقدم من ابنه - الخديو

الجديد - وانحنى فللم يده وقال: «إني أسلم على أقدينا، ثم قبله على وجنتيه، وتمنى له أن يكون أوفر حظا وأكبر سعادة من أبيه وبعد ذلك انحنى أمامه ودخل إلى دائرة الحريم، تاركا توفيق يجلس على عرش مصر. ويبدأ حياة جديدة كانت وبالا وشؤما على البلاد والعباد..

أما اسماعيل فقد بدأ يتهيأ لمغادرة القاهرة في القطار الخاص.. الذى سيحمله إلى الإسكندرية حيث يستقل اليخت (المحروسة) ولكن إلى أين؟.. كان اسماعيل يأمل أن يقضى بقية أيامه فى الاستانة، إلا أن عبدالحميد السلطان غليظ الفؤاد حرم عليه أن يقيم فى أى بلد من ممتلكات الدولة العثمانية. وشاء القدر أن يعيش إسماعيل طريداً شريداً فى العواصم الأوربية التى طالما شهدت أيام عزه ومجده..

الساعات الأخيرة في حياة إسماعيل

في صباح يوم ٣٠ يونية ١٨٧٩ نهض الخديو المخلوع إسماعيل من نومه بعد آخر ليلة قضها في قصر عابدين، القصر الذي بدأه إسماعيل وجعل منه تحفة معمارية ومقرا للحكم بعد أن ظلت القلعة المقر الرسمي لحكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي، هبط إسماعيل إلى الطابق الأرضي فوجد في انتظاره جمع غفير من الأمراء والوزراء والكبراء والتجار والأعيان، جاءوا لتوديع أميرهم الوداع الأخير بعد أن عاشوا في كنفه سبعة عشر عاما كانت أشبه بزلزال هز مصر من أعماقها ونقلها إلى مشارف المدينة الحديثة، ثم هبط بها إلى هاوية الدمار والوقوع في براثن النفوذ الأجنبي، وها هو إسماعيل يطوي صفحته الأخيرة بخيرها وشرها، ويستعد لمغادرة البلد الذي أراد أن يجعله قطعة من أوروبا. فإذا بأوروبا تقامر عليه، وتجمع كلمتها على إقصائه ونفيه من مصر، بعد أن استشعرت الخطر من تصاعد النزعة الوطنية والتفافها حول إسماعيل..

عندما حانت الساعة الحادية عشرة، جاء الخديو الجديد - محمد توفيق - ليصحب أباه إلى مثواه الأخير، وليس في هذا الوصف مبالغة أو

خطأ، فقد كتبت نهاية اسماعيل الحقيقية يوم غادر مصر، وسوف تصبح السنوات التي سيعيشها اسماعيل في المنفى، مجرد محطة انتظار لليوم الذي يغادر فيه الدنيا بأسرها، وصافح اسماعيل ضيوفه فردا فردا.. ثم غادر القصر متوكئا على ذراع ابنه توفيق، واستقل الاثنان العربة الخديوية ومن خلفها عربات الأمراء والكبراء. وقطع الموكب شوارع القاهرة وقد خيم عليها صمت حزين بعد أن كانت تصج بالصخب في أيام اسماعيل، ولم يكن هناك من مراسم الوداع الرسمي سوى صفين من الجنود اصطفوا على الجانبين، أما الناس فكانوا بين حزين على نهاية العاهل الذي فرط في الأمانة، ولم يحافظ على السفينة من العواصف والأنواء، وبين شامت في الرجل الذي جر البلاء على البلاد وجعلها رهينة للمرابين والأفاقيين وشذاذ الأفاق..

وحين بلغ الركب محطة العاصمة، ترجل اسماعيل إلى الرصيف حيث يقف القطار الذي سيحمله إلى الاسكندرية، بينما وقفت عربات مسدولة الستائر تنطلق منها صيحات البكاء والنحيب من بعض النسوة لعلن بقايا الحريم اللاتي قرر اسماعيل تركهن في مصر، بعد أن أنتفى مدهن من تصلح لمرافقته في حياته الجديدة، ولكن المفاجأة كانت في انطلاق الزغاريد من بعض جرانب المحطة، قسيل أنهن من حريم اسماعيل المفتش جنن يبدن الشماعة والتهكم على الرجل الذي قتل سيدهن غيلة، ووجد اسماعيل على رصيف القطار عددا من كبار المودعين، فقال لهم: إني، وأنا تارك مصر أعهد بالخديو، ابني، إلى ولائكم وإخلاصكم. وعندئذ تقدم توفيق فقبل يد أبيه، عندئذ قال له اسماعيل وهو يجهش بالبكاء: كنت أود يا أعز يا البنين، لو استطعت أن

أعالج بعض المصاحب الذى أخشى أن تسبب لك ارتباكاً، على أنى
وائق من حزمك وعزمك، وأوصيك بإخوتك، وسائر الآل برأ.. فاتبع
رأى ذوى شوراك، وكن يا بنى أسعد حالاً من أبيك..

الطائر الشريد يبحث عن عش:

وحانت لحظة الرحيل، فصعد اسماعيل الى عريته الخاصة، وترك
القطار ليشرق الطريق وسط المزارع المتراصة فى دلتا النيل، وأخذ
اسماعيل يتطلع إلى الأرض الخضراء تتخللها المساقى والطرق والقرى
والمدن، ويملاً عينيه من مناظرها عساها تخفف عنه لوعة الفراق حين
يقضى ما تبقى له من عمر فى بلاد الفرنجة، لقد كان يود أن يمضى
أيامه الأخيرة فى بلاد العثمانيين أو فى أى بلد شرقى، ويبحث إلى
السلطان عبد الحميد يستعطفه حتى يسمح له بما يريد، ولكن السلطان
رفض أن يسمح له بالإقامة فى أى أرض من ممتلكاته، فإلى أين
يذهب الطائر الشريد؟ وفى أى عش يجد السكن والراحة النفسية؟ وعلم
ملك إيطاليا، أو مبرتو، بقرار السلطان. فبعث إلى اسماعيل يبدى
استعداده لقبوله ضيفاً على إيطاليا وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع
فى أرقى ضواحي مدينة نابولى، وقبل اسماعيل العرض من هذا العاهل
شاكراً له وفاءه لذكرى أبيه الملك فيكتور عمانوئيل الذى كانت تربطه
بالخديو مودة حميمة، ولعل اسماعيل والقطار ينهب الأرض قد جاشت
على خاطره ذكريات الأيام الخوالي عندما كان يهبط العواصم
الأوربية، فتترجح المجتمعات، وتلبس المدن أحسن حللها، وتبدى أجمل
زينتها، وتتهيا لاستقبال العاهل الشرقى الذى يذكرهم بملوك ألف ليلة

وايلة حيث يندثر عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ترى.. كيف تستقبله هذه المجتمعات بعد أن زال عنه المجد، وجفت من يده الأموال.. وصارت خزينته خاوية إلا من الذكريات (١١) .

غروب ليس له شروق :

أفاق اسماعيل من غفوته على عجلات القطار وقد توقفت عن صريرها الرتيب، فعلم أنه قد بلغ الاسكندرية، وركب اسماعيل وصحبه عربات مقفولة أقلتهم إلى الترسانة، ومنها حملتهم القوارب إلى داخل البحر حيث ترسو المحروسة، وقد ازدحم سطحها بجمع من ذوى المقامات الرفيعة، وتمالك اسماعيل نفسه ليظهر أمام مودعيه رابط الجأش، فأخذ يلاطفهم واحداً واحداً.. ويداعبهم بعبارات الود لعلها تذيب جبل الشجن الذى تراكم على قلبه، وكان من الصعب عليه أن يواصل تمثيل دور البطل الذى لا تهزه المحن، فترك مودعيه، وأوى إلى غرفته فى جوف السفينة، وعندئذ غادرها المودعون، ورفعت المحروسة مراسيها وبدأت تمخر العباب بينما السفن الراسية فى الميناء، والمدافع المنصوبة على طابية كوم الناصورة تطلق مدافعها تحية لخدّيو مصر المخلوع، وهو يغادر أرض مصر للمرة الأخيرة، وبينما كانت الشمس تلقى بنفسها عند حد الأفق حيث تختلط زرقة الماء بزرقة السماء، كانت شمس اسماعيل تسقط فى الغروب الذى يؤذن بليل أبدى ليس له شروق (١١) .

وعندما حطت المحروسة رحلها على رصيف ميناء نابولى، لم يهبط اسماعيل، وظل قابعا فى جوفها خمسة عشر يوما، كان الأمل

يراوده بأن تسمح حكومة مصر ببقاء المحروسة في حوزته، فهي آخر قطعة يشم منها ثرى مصر، ويتمنى أن يقضى فيها بقية عمره، ولكن الحكومة المصرية رفضت، وهددته بأن تقطع عنه راتبه السنوى إذا استولى على السفينة..

وعادت المحروسة إلى مصر، ونزل اسماعيل فى القصر الذى تحيط به الحدائق البديعة، وعلى البعد منه يبدو بركان فيزوف الذى تهدر النار من قمته، ولكن.. كل هذه المناظر الخلابة والحياة الرخوة، لم تفلح فى إخماد الحريق الذى يتفجر فى قلب اسماعيل حينما إلى وطنه، وكلما سمع عن أحداث الثورة العرابية التى أخذت بخناق ابنه توفيق وتكاد تعصف بعرشه، راوده الأمل فى العودة إلى مصر، ويحث بالمكائبات إلى والده يستعطفه، ولكن توفيق كان صارما فى رفضه عودة أبيه إلى مصر، فلجأ اسماعيل إلى الحكومات الأوربية مبدىا الدم على ما بدر منه، معلنا استعداداه لتنفيذ كل مطالبها إذا سمحت له بالعودة إلى بلده، وكان موقف الدول الأوربية لا يقل صرامة عن موقف الابن الذى رأى فى عودة أبيه ضياعا لعرشه، فازداد به تشبثا خاصة بعد أن انحاز إلى إنجلترا انحيازاً مخزيا وسمح لهم باحتلال مصر لضمان بقائه فى مقابل إخماد الثورة..

صدود وجحود وتكران:

أخذ اسماعيل يتردد على العواصم الأوربية التى تعرفه جيدا، وتذكر إسرافه وسفاهه وإنفاقه الأموال على توافه الأمور بغير حساب، ولكن.. شتان بين زيارته السابقة، وزيارته لها وهو مخلوع خاوى الوفاض، لقد وجد أبواب الفنادق الفاخرة موصدة فى وجهه لأنه لا يستطيع الوفاء

بنفقاتها، فكان يقيم في أحقر الفنادق، وكان يطرق أبواب الوزراء والكبراء ورجال المال والبدوك الذين طالما تمرغوا في كرمه، فلا يجد إلا الصدود والجحود. وارتأى إسماعيل أن يستعطف السلطان عبدالحميد ليسمح له بالإقامة في قصره - الأمر كون - الذي اشتراه على ضفاف البوسفور، وجعله مقراً ومأوى كلما اقتضته الظروف الحج إلى كعبة السلطنة العثمانية ورافق عبدالحميد، وقرح إسماعيل، وما درى أنه كان كالمنجس من الرضاء بالنار، فقد كانت إقامته في قصره أشبه بحياة العصفور في القفص، أحاط به الجواسيس من كل ناحية، وضيقوا عليه الخناق حتى اعتلت صحته، وتكاثرت عليه العلل والأمراض..

لقد ظن إسماعيل أنه سيجد في كنف السلطان ما يخل به الزمان ومن بزه وعطفه ما يرد إليه بعض هذه الماضى، ولكنه انتقل في الحقيقة من سجن إلى سجن، ومن منفى واسع الرحاب إلى معتقل ضيق الجذاب، ولو علم إسماعيل أن حياته في الآستانة خير من مقامه في نابلي لما طلب هذه الأمنية، ولما استبدل القيد بالحرية.. فقد عاش في تركيا ما تبقى له من عمر وهو معذب النفس، منهوك القوى، عليل الجسد، فاقد الأمل، لا يطمئن إلى الحياة، ولا تطمئن الحياة إليه، ولا يسأله الدهر، ولا يستسلم إليه، حتى أنه طلب من السلطان أن يسمح له بالسفر إلى مدينة (إمس) المشهورة بمياهها المعدنية، فكان رد السلطان: «عندك في الأناضول مياه (بروصة) المعدنية تستطيع أن تذهب إليها للعلاج.. وقد سبق لك - أيام كنت خديو مصر - أن استشفيت فيها، وأعلنت وقتها أنها أفضل من حمامات أوروبا بأسرها..

ثلاثة أمراض وثلاثة أحزان :

وعندما جلس عباس الثانى - أبى توفيق - على عرش مصر ١٨٩٢ ، ذهب لزيارة جده فى منفاه ، وتجددت مساعى اسماعيل للعودة إلى مصر ، ولكن تصرف عباس لم يكن أفضل من تصرف أبيه ، فتجاهل مطلب جده ، إلى أن جاءت التقارير الطبية تقول أن الحالة الصحية للخديو اسماعيل بلغت حد الخطر ، وبينما كان الخديو عباس يشهد حفلا بدار الأوبرا تلقى برقية تنذر بسوء الحال ، فاستدعى أعمامه واستشارهم ، واستقر رأى على أن يسافر الأمير أحمد قواد والأمير إبراهيم حلمى ليكونا بجانب والدهما ريثما يسعى عباس لعودة جده إلى مصر ، وفى صباح الغد استدعى عباس مجلس الوزراء ويأحثهم فى الأمر ، فأجمعوا على عدم الموافقة ، خشية أن تجر عليهم عودة اسماعيل أزمة سياسية ، فعارضتهم الخديو عباس معارضة شديدة ، ثم اضطر إلى النزول على رأيهم ، وسافر الأميران إلى استانبول وبعثا ببرقية تحوى قرار الأطباء بأن اسماعيل مصاب بالالتهاب الرئوى ، والسرطان المعوى ، ومريض الاستسقاء ..

لقد اجتمعت على الخديو اسماعيل ثلاثة أمراض ، كما تحالفت عليه ثلاثة أحزان : حزنه على ضياع عرشه ، وحزنه لخيبة مسعاه ، وحزنه لفراق وطنه .. لكن أحزانه كانت أشد إيلاما على نفسه من أمراضه ، فعاد الخديو عباس يجتمع بالوزراء مرة ثانية ، وثالثة ، ولكنهم أصروا على رفضهم عودته إلى مصر ، واحتجوا بمعارضة الإنجليز ورفض

السلطان، وأصدروا قراراً بانتهاء البحث في هذا الأمر.. بينما كان إسماعيل يسير حديثاً نحو نهايته المفجعة ..

الحنان الغروب:

للأستاذ طاهر الطناحي كتاب عنوانه (الحنان الغروب) تناول فيه بأسلوب أدبي شيق وديع، اللحظات الأخيرة في حياة المشاهير، ومنهم الخديو إسماعيل، وما لاقاه من عنات وقسوة وهو يعاني سكرات الموت، حتى أن الخديو عباس ساءه موقف مجلس الوزراء منه ومن حده، فبعث بسر دار الجيش المصري الأسبق «محمد راتب ياشاء» إلى الأستانة ليكرر الرجاء في عودة إسماعيل رفقا بـصحته، فلم يظفر بالقبول، وقست الأقدار على الخديو إسماعيل، وهو على فراش الموت، وعبدت له في أيامه الأخيرة بعد ما ابتسمت له عهداً زاهياً، واستسلم إسماعيل، وئس من رجوعه إلى مصر حتى في أيام سقمه، واستوت عنده الحياة والموت، بل كان الموت أهون على نفسه، وأشوق إلى قلبه من حياة عزل فيها عن عرشه، وحرم فيها من وطنه، وعانى فيها أشد الآلام ..

وفي ١٧ يناير ١٨٩٥ تنبّه إسماعيل من إغماء طويل أصابه، فاستدعى نجليه الأميرين أحمد فؤاد وإبراهيم حلمي، وقال وهو يطارد عن نفسه الألم: «إذا مت فأدفنوني في مصر، مقر جدي وأبي، ومواطني وأحلامي، الذي عشت له، وتمليت سعادته، وحرم على العودة إليه» ..

ولما انصرف الأميران بعثا بهذه الوصية إلى مصر، فأعد الخديو عباس قبراً فخماً لجدّه في مسجد الرفاعي، ومكث المريض العظيم

يعانى الآلام الفظيعة عدة أسابيع، وفى يوم ٢ مارس ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير، فصعدت روحه إلى السماء تشكو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخاً فى شيخوخته، ولا مريضاً فى مرضه، ولا محتضراً على فراش موته.. مات اسماعيل بعدما قضى سنة عشر عاماً فى منفاه، وإذا كان الموت يحل المشكلات، ويذلل الصعاب، فقد حل موت اسماعيل تلك المشكلة الكبرى، والصعوبة العظمى التى تحطمت عندها جهود الأمراء. وتخاذلت أمامها مساعى العظماء، فما كاد يذيع نعيه فى البلاد، حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر، فعاد فى موكب حافل، ليس أشد إبلاماً من موكب خروجه من وطنه، هذا الخروج الذى طوى آخر صفحة من حكمه، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته فى هذه الدنيا.

الفهرس

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٧ | محمد على فى معيار التاريخ |
| ١٩ | مصر قبل محمد على |
| ٣٢ | مصر الحديثة |
| ٤٩ | أولادنا فى باريس |
| ٦١ | مذبحة المماليك |
| ٧٣ | أتباع سان سيمون فى مصر |
| ٨٩ | تأسيس الجيش المصرى |
| ٩٧ | سليمان الفرنساوى دينامو الجيش |
| ١٠٩ | إبراهيم الكبراوى |
| ١١٧ | عباس الأول |
| ١٢٥ | سعيد باشا والثورة العربيه |
| ١٣٥ | من أجل جمال عيون فرنسا |
| ١٤٥ | تطور الحياة البرلمانية فى مصر |
| ١٤٧ | مجلس شورى النواب |
| ١٦١ | نائبان مشاغبان |
| ١٧٣ | الفلاح القصيح |
| ١٨٧ | الأزمة المالية |
| ١٩٩ | مجلس الأعيان |
| ٢١١ | نكبة القروض |
| ٢٢٣ | الخديو القنجرى |
| ٢٣٥ | القرض المشنوم |
| ٢٤٩ | خلع إسماعيل |
| ٢٥٩ | الساعات الأخيرة |

رقم الإيداع - ٩٩/١٠٣٠٢

I.S.B.N. 977 - 01 - 6313.9



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولامر عند تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار العرشة للجميع. للأطفال
.. الشباب.. للأسرة كلها.. تجربة مصرية خالصة يعبر فيها ويشج
رودها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم ومازالت أحلام بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة..

مهوران مبارك

To: www.al-mostafa.com